خيري شلبي

سارِقُ الفرَح

روايَة

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

سارق الفرح

سارق الفرح

خيري شلبي

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

سارق الفرح

حقوق الطبعة العربية 2010

ISBN: 978-9953-27-924-4

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب،
أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو،
وبأي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك،
إلاَّ بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدماً.

الناشر

شارع فردان، بناية بنك بيبلوس	**Verdun St., Byblos Band Bldg.**
ص. ب. 11-5769	**P.O. Box 11-5769**
بيروت 1107 2200 لبنان	**Beirut 1107 2200 Lebanon**

هاتف Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178
فاكس Fax (+961 1) 805478
بريد إلكتروني E-mail
daralkitab@idm.net.lb
www.dar-alkitab-alarabi.com

www..academiainternational.com
www..academia.com.lb

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن فكر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

على سبيل التقديم:

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغاً كان رهيباً في المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيري على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر في العالم العربي أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافي أسماء رواد في مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى، وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص، ها هي تواصل اصداراتها للعام التاسع على التوالي فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعي بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التي أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى ((مكتبة الأسرة)).. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك.

د. سمير سرحان

الفهرس

سمبو

طَبَقُ الأرض

العروس

طق الليل

شق الثعبان

ديك الجن

سَارقُ الفَرَحْ

أمسيات الفحم الرديء

عدل الطاسة

موقف الغرق

الحَوَلْ

المرجع

منزلة الشوق!

قيام الواجب

العرجاوي عطا

الصاعقة

سمبو

العزومة جاءت على المرام. لم يتخلف أحد من مشايخ العرب المدعوين، الذين ذهبت الركائب بالرجال لعزومتهم في بلدان بعيدة، من البحيرة والغربية، ومن النجوع والبراري، حتى امتلأت زريبة العماروة بعشرات الركائب المزدانة السروج، المزركشة البرادع، ما بين حمير وبغال وجياد. حتى طائفة الأفندية الذين لم يكن من المتوقع حضورهم جميعاً حضروا وفي صحبتهم ناس مدعوون من قبلهم. وازدانت دار العماروة بالبياض الجديد ورسوم السباع على واجهتها منقسمة على أكثر من بقعة تلتف حول فتحة الباب، وهي كتابة قديمة تتجدد كل عام عند عودة أحد العماروة من الحجاز.

وفي قاعة الطبيخ وفي الفناء وفي المندرة تتصادم الأجساد ببعضها من فرط اللخمة والحماسة والطهمة، وليس على الوجوه سوى الابتسامة العمارية البلهاء الطيبة التي تضاعف ألغادهم تحت أذقانهم فتضيء وجوههم المحمرة المليئة بالدماء والملامح المنتفخة في وسامة طريفة محببة، وليس على الألسن سوى كلمات: ((كل سنة وأنت طيب.. مبروك.. عقبال عيالك.. يا رب نولها للجميع)). ذلك أن هذه العزومة التي تقيمها العماروة اليوم ليست ككل العزومات إنه عزومة مزدوجة، فثلاثة من العائلة عادوا من أداء فريضة الحج، واثنان من شبانها قد نجحا في كليتي الحقوق والطب، وبنت من العائلة ستعلن خطوبتها اليوم، وأربعة أطفال من أبناء العائلة سيتم ختانهم على حجر العروس بعد ساعات قليلة.

وقد تم كل ذلك على خير وجه، كما رسم له الحاج محمود عمرو وتمناه. وزعت الشربات وأكياس الحلوى، ووزعت الزغاريد في كل سماوات البلدة، ووزعت التهاني والابتسامات والأحضان على كل الحاضرين.

ثم جاء دور الطعام، فامتدت عشرات «الطبالي» وفوقها عشرات الصواني النحاسية الكبيرة. وامتدت أناجر الفتة، ترتص فوقها هبر اللحم المسلوق، بجوار سلطانيات الشوربة الكهرمانية المزدانة بفصوص التقلية، وأطباق عليها أكوام اللحم المشوي والمحمر. فأكلوا جميعاً حتى التخمة.

وكانت البقعة التي يجلس فيها الحاج محمود عمرو الكبير تضم نخبة خطيرة من علية القوم: مشايخ عربان باشوات، ومأمور المركز، ومهندس الري، ومفتش الري، وشكري زغلوك أشهر محامي في البندر وصهر الحاج محمود، والحاج سالم المسلماني شيخ البلد الذي تمت اليوم خطوبة ابنه على بنت محمود عمرو الصغير ابن أخ الحاج محمود عمرو الكبير.

وكان من الواضح أن الحاج محمود عمرو الكبير ينتظر شيئاً ما، إذ راح يتطلع بناظريه نحو الفناء كأنما يستعجل حضور الشيء، ولم يهدأ إلا بعد أن ظهر الولد سمبو، وهو من عبيد العماروة أبّاً عن جد، عمره فوق الأربعين بقليل، لكنه رفيع، سنار، طفلي الملامح حاد النظرات، في عينيه بريق دائم يشرح كل أعماله وأقواله، فيجعلك تحار إن كان هو صادقاً فيما يفعل أو يقول، أم أنه يمزح؟ وغم أنه لا يمكن أن يمزح في بعض الأفعال والأقوال وإلا طارت رقبته فإن أسياده لا بد أن يستوضحوه كلما تكلم قائلين: «بذمتك ودينك؟ جد؟». وهو قد بات يعرف هذا، فصار يتبع قوله على الفور: ((وحق دي الليلة مساها حصل!)).

اقترب سمبو يحمل صينية عليها بطيخة نمس كبيرة مشقوقة نصفين بالطول، وضعها أمام الحاج محمود عمرو ورفاقه، واستدار مسرعاً ليحضر صينية غيرها. نظر الحاج محمود عمرو في الصينية وصاح:

- سكِّينة يا ولد.

صاح سمبو وهو يهرول:

- حاضر يا سيدي.

وبعد قليل عاد سمبو مهرولاً يحمل صينيتين، على كل منهما بطيخة كبيرة مشقوقة، وضعهما في مكانين متجاورين ثم انطلق مهرولاً. فلحق به صوت الحاج محمود عمرو صائحاً:

- سكِّينة يا ولد.

فرد من بعيد فيما يهرول:

- حاضر يا سيدي.

وفي الطريق التقى به في الفناء من سلَّمه صينيتين، فانطلق

عائداً بهما إلى المندرة ليضعهما في مكانين أمام بقية الضيوف، ثم انطلق مسرعاً، فلحق به صوت الحاج محمود عمرو بعصبية:

- سكِّينة يا حمار بسرعة.

صاح سمبو في ارتباك وخوف:

- حاضر يا سيدي.

ثم وسع من هرولته فاندفع يجري، وبعد بضع دقائق عاد يحمل مقصاً كبيراً تقطر منه مياه الغسيل التي لم تستطع إزالة ما تراكم عليه من صدأ وغلظة. مقبضاه ملفوف بخيوط من صوف الغنم لتريح يد من يمسك به لفترة طويلة. من الواضح أنه المقص الذي يستخدمه العماروة في جز فراء الغنم، بكل بساطة وهدوء تقدم سمبو مادا يده بالمقص.

بهت الحاج محمود عمرو وغاضت الدماء في وجهه و تفصد العرق من جميع أنحاء جسده. ودب الحرج في جميع الجالسين فكتموا الضحك لدقائق، لكنهم عجزوا عن الكتمان، فانفلتت القهقهات منطلقة صافية تهز الأبدان بشدة، فيما هم ينظرون إلى سمبو باستنكار مضاعف لتغطية شعورهم بالحرج. كل ذلك وسمبو واقف في مكانه لا يريم، ممسكاً بالمقص في انتظار أن يمد الحاج محمود يده ويأخذه. في حين بقي الحاج مسمراً في جلسته في ذهول، تنطلق من عينيه طلقات رصاص مكتومة الصوت، ولولا بقية من هدوء لقام الآن ونفضه في الأرض حتى يزهق روحه. ما أثار ثائرة الحاج محمود عمرو وبالله بعرق الغضب أن سمبو لم يكن في يوم من الأيام غبياً هكذا.. فما الذي حل به اليوم؟ أهي ربكة العزومة باعتبارها أكبر عزومة أقاموها في حياتهم؟ ربما.

وكان الأمر على وشك الإنتهاء حينما سارع أحد غلمان الدار وجاء بسكِّينة كبيرة نظيفة أنيقة بمقبض من الفضة، سلمها لواحد ممن في حضرة الحاجة محمود عمرو. وجاء غيره بمثيلات لها، ينضح منظرها بالثراء الفاحش، وزعها على باقي المجاميع، الذين تناولوها. سمُّوا وشرعوا في الحال في تشريح البطيخ وهم يكتمون الضحك بقوة الحرج فلا يقدرون. واستدار الغلام فسحب سمبو من كتفه، لكن الحاج محمود بآخر ما في أعصابه من هدوء زأر فيه:

- استنى هنا يا ولد.

فتسمر سمبو في مكانه قائلاً من ريق ناشف:

- نعم يا سيدي.

قال الحاج محمود في رصانة تنذر بالخطر:

- أنا يا ولد قلت لك هات سكِّينة ولا هات مقص؟

قال سمبو والبريق المعهود في عينيه يزداد تألقاً وغموضاً:

- السكينة يا سيدي.

- أمّال جبت المقص لي.. ي.. ي.. يه؟!

هكذا قال الحاج محمود عمرو وهو يحدجه بنظرات متوعدة فقال سمبو:

- عشان البطيخ يا سيدي!

شاطت كل أعصاب الحاج محمود عمرو، فتذرع بسخرية مفتعلة، وسأله باسماً:

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص؟!

- بالمقص يا سيدي!

هكذا أجاب سمبو في بساطة منقطعة النظير، وكأنه قذف الحاج محمود عمرو بجردل من الخراء في وجهه، حتى أن الرجل تأفف ولوى ملامحه وميل رأسه بعيداً، وظهر عليه الألم، هو الذي لم يستطع مخلوق في البلدة كلها أن يستفز غضبه صار الآن في قمة الغضب، وفي قمة الشعور بضرورة التمسك بالهدوء. ظهر على وجهه كأنه قد أصيب بمرض السكر فجأة، وكبر في السن عشرين عاماً، و خرج صوته من جراب صدىء:

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكِّينة ولا بالمقص؟

- بالمقصى يا سيدي.

وهنا تفجرت المندرة كلها بضحكات صاعقة داوية، فكأنها كلما وقع أحذية وبراطيش وصرم قديمة تنهال على رأس الحاج محمود عمرو ووجهه، فما ازداد إلا تشبثاً بالهدوء فعاد يسأل من جديد:

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكِّينة ولا بالمقص؟

- بالمقص يا سيدي

- طب أمشي أنجر من قدامي!

وكانت هذه العبارة هي ما ينتظره الجميع من أول المبتدا. وكان من الممكن أن ينتهي الأمر هكذا بالفعل، ولكن الحاج محمود عمرو بعد هذه الواقعة البسيطة العابرة صار غيره قبلها. انزوى طوال القعدة وقد تعكر دمه، وضؤل جسده، وتدلت شواربه وبدأ كأنه انحط إلى مخلوق من الدرجة العاشرة. راح يتميز غيظاً وكمداً وقهراً، ويحاول إخفاء ذلك فيكشف عنه. الجميع قد أحسوا بذلك فراحوا يداعبونه، ويسخرون من غباء سمبو، ويجرجرون الحاج محمود عمرو للفرفشة والإندماج معهم وكل ذلك لا يزيده سوى غيظ على غيظ، وقهراً فوق قهر، ودماغه شاتت، يودي ويجيب: هذا المخلوق الغبي الحمار كيف يصر على حكاية المقص أمام هذا الجمع الحاشد فيسبب له هذه الفضيحة الشنعاء؟! وطاف بذهنه أن أحدهم أو معظمهم ربما اضطر في بعض الأحيان أو في معظم الأحيان إلى تشقيق البطيخة بالمقص، ولكن هذا الولد الغبي كيف يقول هذا أمام الناس؟ وهكذا ركبه النكد وأحسّ أن العزومة كانت شؤماً على مزاجه. وانفضت العزومة وهو لا يدري كيف تمكن من توديع الضيوف.

وكان الفجر قد أوشك على الأذان حينما عاد الحاج محمود عمرو وحده إلى الدار. فجلس في مكانه المعتاد في المندرة، وطلب الولد سمبو فجاؤوا به وهو ينتفض مذعوراً من الخوف، ولسانه يلعق شفتيه في كل برهة. وقف أمام الحج محمود عمرو خافض الجبين يتوجس حائراً، حتى لقد أشفق عليه الحاج وقرر أن يعفو عنه بعد أن يوبخه بكلمتين قاسيتين وينبهه إلى حموريته حتى لا يقع فيها مرة أخرى. فظل برهة طويلة ينظر إلى سمبو ولا يدري كيف يبدأ كلامه، لكنه بكل هدوء الأب حين يعاتب طفله بلهجة يطمئنه من خلالها قال:

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكِّينة ولا بالمقص؟

- بالمقص يا سيدي!!

طارت الشومة في الهواء كلمح بالبصر، ثم هوت على كتف سمبو فدكته. فصرخ صرخة فزعة مفزعة كقرع الهاون. وشعر الحاج محمود عمرو بأن الضربة كانت أقوى من اللازم وأنها ضربة موت لولا أن الله ستر. فهدأ نفسه وقال:

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص؟

- بالمقص يا سيدي!!

وهنا فقدت الهراوة السيطرة على نفسها، فصارت تنتشال وتنحط على كتف سمبو في غيظ شديد. وسمبو يتلقى الضربات ينتفض تحتها، يتلوى من الألم ويطلق الصراخ الملتاع المستغيث. في حين وقف رهط كبير من رجال الدار على مبعدة يبسملون ويحوقلون يطلبون من الله الستر وتعدية الليلة على خير قبل أن يموت الولد في موضوع هايف كهذا، صار الكبار منهم يتشفعون للولد، يطلبون من الحاج أن يصلي على النبي ويفضها سيرة. والحاج لا يعرف كيف يمنع نفسه من الاستمرار في الضرب، إلى أن تعب هو، ولهث، فأوقف الهراوة وأسند جسده عليها وقال للولد من خلال لهاثه:

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكِّينة ولا بالمقص؟

- بالمقص يا سيدي!!

فما كان من الحاج محمود عمرو إلا أن عدل ثيابه حول جسده، وأحكم لف الشال على كتفيه، وخلع الزعبوط ولبسه، ثم تقدم نحو باب المندرة صائحاً فيمن ورايا.

- هاتوه وتعالوا ورايا.

كانت الكلمة أمراً لا يجرؤ أحدهم على مخالفته. فسحبه بعضهم ومضوا خلف الحاج محمود عمرو، الذي فتح الباب وخرج إلى الحارة، ثم إلى شارع داير الناحية، فعبر الجرن الكبير، وانتقل الى الأرض المزروعة، ومضى على شواطىء القنوات ومن خلفه رجال يمسكون بالولد سمبو، لا يعرفون إلى أي مكان هم ذاهبون، ولا ماذا يقصد الحاج من وراء ذلك، لكنهم لا يملكون إلا المضي خلفه.

أشرفو جميعاً على مصرف نمرة تسعة، أكبر مصرف في العب كله، متصل بفرع رشيد مباشرة، لا حد لعمقه، مليء بالمياه على الدوام إما من الصرف أو من الفيضان، ويتبارى شبان البلدان الواقعة عليه في عبوره، وفي كل عام لا بد أن يغرق فيه نفر أو نفران، والقصص المخيفة تترى على شطآنه ليل نهار عن الجنيات التي تسكنه، وعن أرواح الغرقى.

على شاطىء هذا المصرف وقف الحاج م‍ـح‍ـم‍ـود عمرو، فجاء الرجال وتوقفوا بجواره وقد شلَّت أذهانهم عن التفكير. تقدم الحاج محمود عمرو من سمبو وقال له إنذار أخير مغلف بشيء من الهدوء:

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكِّينة ولا بالمقص؟

- بالمقص يا سيدي!!

- غرقوه.

هكذا صاح الحاج محمود عمرو أمراً، رافعاً ذراعه لتأكيد الأمر:

- غرقوه!!

فانتفضوا جميعاً. وتقدم شابان فأمسكا سمبو من إبطيه، وبدلاً من رميه في قلب المصرف نزلوا به شيئاً فشيئاً على الشاطيء في انتظار أن يغير الحاج رأيه فيأمر بإعادته. فلما بقي الحج على رأيه توغلوا شيئاً فشيئاً حتى صاروا قاب قوسين أو أدنى من منطقة العمق السحيق. وكانت المياه قد وصلت إلى قرب صدورهم وهنا صاح الحاج محمود عمرو من فوق الشاطىء:

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكين ولا بالمقص؟

- بالمقص يا سيدي!

- غرقوا ديك أمه!

هكذا جعر الحاج محمود عمرو بعصبية وجنون. وكان الشبان قد صاروا ميالين إلى إغراقه بالفعل والخلاص من هذه المحنة التي لم تكن تدور لهم في بال. فدفعوا سامبو نحو العمق السحيق فصارت جثته تختفي تحت الماء شيئاً فشيئاً إلى أن غابت رأسه تماماً. وهنا جعر الحاج جعرة أخيرة كأنما ليخلص بها ضميره:

- إحنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص؟

لم يسمعوا صوتاً، لكنهم رأوا ذراع سمبو مرفوعة تطفو على سطح الماء فاردا أصبعيه يحركهما بعلامة المقص. فنشَّن الحاج بالهراوة على ذراعه وقذفه بها لتصنع في الماء ضجة كبرى دون أن تصيب ذراع سمبو، التي كانت قد تهدلت واختفت تحت الماء. فأشار إلى رجاله أن أخرجوا، فخرجوا، ومضى بهم عائداً إلى الدار، وهو طوال الطريق لا يكف عن البصق والشتم والهذيان.

طَبَقُ الأرض

كل زملائي الأنفار يحبون العمل في أرض عائلة الجوابر؛ هذا ما بان لي، من يوم ما اشتد عودي فكبرت على نقاوة اللطع من أشجار القطن، وعلى الجري وراء حمار السباخ، وصرت أستطيع الشغل في العزيق وشتل الأرز وتطهير المصارف وجمع القطن وحش البرسيم.. وكل هذه أعمال تحتاجها أراضي الجوابر. النفر بسبعة قروش في اليوم، ومواسم الشغل تهجم مرة واحدة قبل البذار وعند الحصاد. نفر كثيرون يأخذونها من قصيره ويلبدون لمقاول الأنفار كي يضمهم في ترحيلة لثلاثة أشهر أو أكثر أو أقل، يضمنون الموسم كله، ولا الحوجة للعمل يوماً والانتظار يومين، يقبضون عربوناً مجمَّداً ينفع في مصلحة كبيرة. ونفر أكثر لا يحبون الترحيلة، قطعت الغربة حتى ولو لساعة واحدة؛ وطالما أن الزمن النذل رخص للخسيس أن يتحكم في الأصيل، فتحكم بتحكم وخسيس بخسيس ونبقى في بلدتنا أحسن؛ خسيس تعرفه أحسن من نصف خسيس لم تعرفه بعد. هؤلاء ربنا يكرمهم أيضاً، لأن الكل لا بد أن يبيت متعشياً في النهاية، وشغل البلدة كثير، ليس عند العائلات وحدهم، بل وعند ناس من ذوي الغدان والفدانين.

الترحيلة تأخذ الواغش وتمضي به إلى بلاد بعيدة؛ الباقون يمزمزون في الشغل عند أهالي البلد. كل عائلة عندها شغل لا بد أن تبيّت على الأنفار قبل دخول الليل. المحظوظ من يبيِّت عليه مرسالَ من عائلة الجوابر - ليس ببعيد أن يستندل النفر فيرجع في كلامه إذا بيِّت عليه مرسال من عائلة أخرى ثم فوجيء بمرسال الجوابر يجيء ليبيِّت عليه قائلاً: عندنا عزيق بكره يا فلان؛ فى الحال سيرد قائلاً: إحنا خدامينك يابا الحاج، ثم يتسلل قبل أذان العشاء متوجهاً إلى دار من بيّت عليه من قبل: عدم المؤاخذة يا حاج فلان!! وحق دي الليلة ومساها الولية أمي كان اتفقت مع الجوابر من غير ما أعرف! سامحني بكره بس!...

وكنت فرحاً بفأسي التي اشتريتها من مولد سيدي إبراهيم الدسوقي جديدة وصنع لها النجار يداً طويلة سرحة خشنة كي لا تتزحلق في يدي إذا عزقت. أضعها على كتفي وأمشي مختالاً بين الرجال، معجباً بشراشيب دكة السروال أبو حجر الطويل، والصديري

فوق الفانلة أم كم طويل، ومنديل محلاوي مربوط حول رأسي فوق الطاقية اتقاءً لحرارة الشمس، وآخر معقود على رغيفين وخيارتين من بلاص المش نسميه حمام البلاص، وعقدته مدخولة في يد الفأس؛ ذلك هو غدائي الذي سآكله عندما يمر قطار الظهر البعيد..

فرحتي في ذلك اليوم لا تقدر بمال؛ لأنني صرت رجلاً بين الرجال، ولأنني سارح للشغل في غيطان الجوابر. قال الولد حموده الجرف في غبطة وهو يعض على نواجذه:

- ((إبسط يا عم! يومك نادي بإذن الله!)).

وكان الحاج محمد جابر يشخط في الأنفار المتخلفين عن الركب، ويهدد بضرب الشلوت في القلب إذا لم يكن للواحد همة. طرف نبوته راح يزغد أجناب من يطولهم. قلت للولد حموده الجرف:

- «الحاج يأخذنا بالشدة من أولها!».

قال:

- «ولن يترك الواحد منا يرفع قامته دقيقة واحدة!».

قلت:

- «ربنا يستر في هذا اليوم»

قال:

- ((وإذا لم يعجبه عزيق أحد يخطف الفأس منه ويريه الشغل على أصوله! وعندما يرد الفأس يضرب صاحبه بيد الفأس على دماغه!))

- «يعني أوسخ من شغل الوسية!».

- «الوسية أرحم!».

- ((فلماذا تحبون الشغل عندهم؟!)).

- «لأنهم يقدمون للأنفار فطوراً! هذا كل ما في الأمر!».

- «يا سلام!.. سيفطروننا اليوم!»

- ((قبل نزولنا الخطوط نفطر!)).

- «كتر خيرهم والله! يتأمَّروا على كيفهم بقى!»

ومشينا في اتجاه قرص الشمس الأحمر حتى وصلنا إلى حوض البقمة بعد نصف ساعة سيراً على الأقدام بين الحقول، الحاج محمد جابر أمامنا راكباً حماره، والحاج سالم جابر - ابنه الكبير - وراءنا راكباً حماره، ومن ورائه أم حنفي التملية، الملاية، تحمل على رأسها حلة الغسيل الكبيرة، وبجوارها ابنتها سعدية تحمل قفة مغطاة بحزمة من البرسيم. وكان موكبنا يستطيل كلما حودنا في طريق ضيق. وإذ توقف حمار الحاج محمد جابر توقفنا، عند ساقية على شاطىء قناة رفيعة تفصل بين حوضين من الأراضي.

وقال الحاج محمد جابر:

- «كل واحد يقعد في مطرحه!» فتقرفصنا جالسين في صف طويل على الجرف الطري للقناة. نزل هو فربط حماره في وتد على مدار الساقية. وجاء نحونا بقدمين حافيتين مفرطحتين، تختمان الأرض الطرية ببصمات غائرة، إذ تترك قدمه في الأرض ختماً كاملاً، بأصابع خمس متلاصقة وكعب مستديرة. صرت أتأمل في أقدامه المطبوعة على الأرض فأتذكر ما يشاع في البلدة من أن العتقي لم يفلح في تفصيل بلغة على مقاس هاتين القدمين، وأنهم نجحوا في تفصيل بلغة له عند عتقي في بندر دسوق لكنه لم يطق لبسها فرمى بها ولم يعد يلبسها إلا عند صلاة الجمعة. وكنت أعجب من الشقوق الغائرة في كعبيه كشقوق الأرض الشراقي، وكانت ناشفة صلبة لدرجة أنه كان يستعين بكعبه في دق مسمار في خشب أو غرز وتد في الأرض.. صرخ الحاج محمد في أم حنفي:

- ((مدي يا مرة واعملي لك همة شوية!))

فأسرعت تتمايل تحت ثقل الحلة الكبيرة. فلما صارت أمامه ساعدها على إنزال الحلة إلى الأرض. ثم وصلت البنت سعدية فأنزلت القفة، فأزاح عنها حزمة البرسيم فإذا هي مليئة بالأرغفة الطرية. صار يوزع على كلّ واحد رغيفاً. ثم جاء الحاج سالم ورفع غطاء الحلة فإذا هي مليئة بشربة العدس. صار يقلبها بمغرفة كبيرة من الخشب، فيتصاعد منها الدخان حاملاً رائحة العدس الفواحة. صاح الحاج سالم وهو يقلب العدس بالمغرفة:

- «طبعاً ما عندناش صحون تكفيكم!»

صاح فيه الحاج محمد:

- «صحون إيه يا جدع؟ نعمل سفرة؟! أنا سأعمل لك صحوناً ربانية!»

ثم غرز كعب قدمه في الأرض الطرية، وبرمه، فصنع حفرة تشبه الطبق، ثم نزع كعبه صائحاً في الحاج سالم:

- «إغرف هنا!»

ونقل كعبه إلى بقعة مجاورة فضغط به الأرض وبرمه صانعاً حفرة أخرى كالطبق الغويط. وهكذا مضى يصنع بكعب رجله حفراً في الأرض كالأطباق، والحاج سالم من خلفه بالحلة يضع في كل حفرة مغرفة من العدس. انحنى الأنفار على الحفر يقتطعون اللقم ويغمسونها في الحفر ثم يطوحون بها في أفواههم. نقرتني نظرة الحاج محمد من بعيد، فاقتطعت اللقمة بسرعة، وانحنيت على الطبق.

العروس

الفرحة دوت في صدري أول ما وقعت عيني عليها بين يدي الصياد: سمكة بِنّية كالعروس المجلوَّة المزوَّقة بأطياف حمراء وزرقاء وخضراء، في حجم وليد صغير؛ تنتفض بالحياة وبالفزع، كأن شبكة الصياد الجهنمية قد انتزعتها من مخدع الفرح ليلة عرسها عارية من الفراش. استبشرت خيرا بمنظرها، وطار قلبي من الفرح لمَّا رأيت الصياد يحملها بين يديه ويضعها ضمن البيعة التي سأبتاها منه لأسرح بها في شوارع أسيوط أو في حلقة السمك بسوقها الكبير..

وحدها وزنت أربعة كيلو جرامات وربع؛ أزاد الصياد فوقها بقية الخسمين كيلو التي أبتاعها في العادة كل يوم. ثم أشار إلى السمكة البنية الكبيرة قائلاً:

((عندك زبون لها؟))

قلت بحماسة كبيرة كأنني أدفع عنها عين حسود مجهول:

- وماذا تكون هذه؟

ثم إنني أحكمت ((الجَنْبة))، لممت أطرافها حول السمك، قربت أذنيها من بعضهما؛ أدخلت الشومة فيهما؛ وحملت الشومة على كتفي، والجنبة نائمة على ظهري، ومضيت مشمِّراً ذيل جلبابي أصعد السلم الطيني لمسطاح النيل، حتى صرت على ربوة الشارع العمومي وتأهبت للصياح معلناً عن السمك الطازج الصابح. وكانت البنية تنتفض داخل الجنبة انتفاضات عنيفة تكاد تدفعني للإنكفاء على وجهي؛ حيث كانت عفية مليئة بطبقات من اللحم المشفي المستنير.

ما إن خطوت بعض الخطوات حتى حاذاني رجل كالدرفيل يركب دراجة.كان متقمطاً كالأفندية الخواجات، ويضع فوق رأسه برنيطة من الخوص، وكان نظيف الثياب والمظهر إلا من بعض الغبار الذي رماه عليه الطريق. أوقف الدراجة وواجهني حتى كادت العجلة الأمامية تدخل بين ساقي لتشنكلني. في اللحظة التي شرعت

فيها في الصياح محتجاً، تبسم هو عن أسنان ذهبية وشارب حليق الأطراف مما جعله يبدو كرجل مهم من الحكام أو موظفي الميري. قال في شيء من الود:

- «أرني يا عم ما معك من سمك!»

أنزلت العصا عن كتفي، وفتحت الجنبة، فانتفضت البنية تكاد ترمي بنفسها إلى الشارع: وكانت تفتح فمها وتغلقه كبندول الساعة، وترمش بعينيها ناظرة إلينا في استرابة كأنها تقول: إستذوق أنت وهو! عودا بي إلى مخدعي تحت ستر الماء!..

نظر الرجل إليها ولمعت في عينيه بوارق غامضة؟ قال:

- «أرنيها»

رفعتها إلى صدري في رفق أبغي تهدئة روعها، كطفلي الذي سأسلمه لشخص آخر ليداعبه. أمسك بها الرجل في قسوة؛ لدهشتي رفعها إلى أنفه وجعل يشمها..

ركبتني العفاريت؟ أوشكت أن أنتزعها من بين يديه بل أن أبصق في وجهه الكالح الشبيه بقفا غليظ؛ لكني استمسكت بطول البال من أجل خاطر عيون الاستفتاح؛ اكتفيت بالشخط في وجه الرجل مشوحاً بذراعي فى غضب أكاد أخرق عينيه:

- ((تشم كيف يا بو العم؟! تشم ماذا؟! تشمَّها وهي ترتعش بين يديك وتفتح فمها؟!))

ظهر على وجهه شيء يسير من الخجل؛ قال:

- «بكم تبيعها؟!»

ساعة استفتاح وساعة صبحية؛ لا بد أن أبدأها بالصدق والنية الخالصة حتى لا يعاكسني الله بقية اليوم؛ قلت:

- «تعطيني عرقي ريالاً وتأخذها؟»

قال:

- ((عشرون قرشاً بحالها؟ لا مانع على كل حال له!))

قلت:

- «ثمنها ثمانون قرشاً! وفيها ربع كيلو زيادة بدون حساب! هات مائة قرش».

عادت الكلاحة إلى وجهه، قال:

- «ثمانون قرشاً فقط!».

هنا لم أتمالك أعصابي، نسيت الاستفتاح وساعة الصبحية؛ بكل نفس ضايقها الموت نزعت السمكة من يديه بعنف؛ فرميت بها في الجنبة وأنا أبرطم بشتائم مضغمة، ملوحاً بالشومة في توتر قبل أن أشكها في أذني الجنبة وأحملها لأمضي تاركاً إياه وراء ظهري، وقد حلفت بالطلاق ثلاثاً ألا يأكلها أو حتى يشمّها حتى لو ناداني بالموافقة، غير أن الملعون لم ينادني؛ فنسيت أمره وانغمرت في حلقة الأسماك أروح وأجيء، أتقرفص عند التعب على أية ناصية. كان السوق ماشياً، والسمكات تتناقص في قعر الجنبة شيئاً فشيئاً حتى نفدت كلها ما عدا البنية التي كفت عن الإنتفاض تماماً حيث قد هدها التعب. لكنني كلما لامستها بأطراف أصابعي ارتعشت قليلاً؛ فعدت بها إلى داري حزيناً كاسف البال؛ بيَّتها في صفيحة المياه على أمل أن تمتد بها الحياة حتى الصباح..

في اليوم الثاني وجدتها قد ماتت؟ حملتها فإذا هي متهدلة اللحم مترنحة، وضعتها في الجنبة بين السمكات الجديدة التي ابتعتها لرزق اليوم: اتحذت طريقي إلى السوق. ساعة زمن واحدة كنت بعدها قد انتهيت من بيع كل السمكات وجبرني الله؟ لكن البنية بقيت راقدة في قعر الجنبة كالحظ العاثر؛ ينظر إليها المارة فلا يتوقفون. ووالله لو كانت ابنتي من لحمي ودمي قد عنست وبارت وفاتها قطار الزواج ما حزنت عليها كل هذا الحزن الذي راح يشق قلبي شقاً. قلت: فلأغير نحس المكان، وحملت الجنبة ومضيت أجوب حواري أسيوط منادياً عليها طالباً لها العدل، معزياً نفسي على التعب بأنني متوجه إلى داري في الأصل. وكانت الصفيحة في انتظارها بمياه الأمس؛ فدلقتها فيها مفوضاً أمرها وأمري إلى الله. إرتطمت بقاع الصفيحة كقطعة من الحجر الثقيل؛ رفعتها ثانية؛ كانت منتصبة متصلبة لا فرق بينها وبين الشومة؛ رغم الأسى عابثتها بأن أوقفتها على رأسها فوق أصبعي كما يفعل البهلوان الأونطجي بالعصا، صرت أحرك يدي لتحتفظ بتوازنها؛ إمتزجت حركة يدي بخاطر طاريء مؤداه أنها لو بقيت متوازنة على أصابعي فسوف يكون ذلك إيذاناً برواحها، وإن اختلت ووقعت فهي إذن لواقعة في قرابيزي. ظلت أفعل هذه اللعبة حتى كلت يدي، فتركت البنية تقع في الصفيحة مرتطمة بها في ضجة متفجرة بالرذاذ..

في صباح اليوم الثالث رفعتها فإذا هي قد ماتت الموتة الأخيرة، التي لا نفع بعدها. كانت صلابتها قد انهارت، صارت هى كالكرباج، صار لحمها طرياً هشاً، تظهر عليه بصمات أصابعي غائصة. وضعتها بين السمكات الجديدة التي ابتعتها لرزق اليوم وقرأت الفاتحة وآية الكرسي، وانتويت إن غازلها زبون أن أوافق بأي «سعر يشاء؛ لكن أحداً لم ينظر إليها، لم يقترب منها..

عند ما انتهت السمكات كلها قلت: ما من بد؛ وحملتها لكي أبيعها للفسخاني ولو بعشرين قرشاً؛ إذ هي لم تعد تصلح للبيع ولا تصلح للأكل، وليس لها من مصير سوى صفيحة القمامة أو صفيحة الفسخاني يأخذها متعفنة جاهزة ليضعها مباشرة تحت الملح بين طبقات العفن..

في الطريق الى دكان الفسخاني اصطدمت بالدراجة مرة أخرى. نظرت فإذا بي أمام نفس الرجل ذي البرنيطة الخوص والشارب الحليق الأطراف والوجه الغليظ كالقفا واللبس الخواجاتي. ما ان تعرفت عليه حتى صحت في وجهه بازورار مشوحاً:

- «إه! أهو أنت؟ دعني في حالي الله لا يسيئك!»

اعترضني قائلاً في ابتسامة متملقة:

- «سأشتري منك!».

شوَّحت في وجهه شاخطاً:

- ((أنت لا تشتري! الله يسهل لنا ولك!)).

قال بجدية وهو يستوقفني بيده:

- ((سأشتري هذه المرة! أقسم أنني سأشتري!))

قلت صادقاً.

- «لم يعد معي سمك للبيع!»

قال بإلحاح وهو يزغدني بمزاح:

- «قلت لك سأشتري هذه المرة بكل صدق!».

قلت:

- ((لا تقليب عندي ولا شم ولا بحلقة!))

قال في امتثال:

- ((ماشي كلامك!)).

ففتحت الجنبية؛ وبسرعة تناولت ورقة من ورق أكياس الأسمنت، لففت فيها البنية المتعفنة وسلمتها له قائلاً:

- «هات مائة وخمسة وثلاثين قرشاً!».

لم يرد؛ إنما دب يده في جيب سرواله الخلفي، فأخرج محفظته، وعدَّ لي مائة وخمسة وثلاثين قرشاً، واحتضن اللفة ومضى يترنح كالنشوان ممسكاً الدراجة بيد واحدة؛ وقفلت عائداً إلى الدار متخفياً بالحواري الجانبية؛ فيما أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

المعادي - في 15 مايو سنة 1989

طق الليل

كنت ساهراً عند المسقى أحرس المياه حتى لا يقطعها أحد عن زمام أرضنا ليوصلها إلى زمام أرض أخرى. ومن أجدر مني بهذا العمل؟ لا أحد في العائلة بل في ليل المنطقة كلها من هو أشقى مني. الليل نفسه يخشاني ويداريني السكات. فإن تنحنحت، جاءني صوتي نفسه مؤكداً لي أن ليس راكباً على ظهر الليل سواي. وإن صرخت في شبح من أشباح الليل، خبطت صرختي في جبهة الظلام مثل الحجر المسمى ((طق الليل))، فيطلق الشرر من صرختي، ليتبدد الشبح، أو أمسكه بيدي كخرقة بالية، ناهيك عن طخ النار الذي قد أضطر إليه، أسهل شيء بالنسبة لي وفي نفس الوقت آخر شيء أفعله. أما إن امتدت أصابعي على الزناد، فقل يا رحمن يا رحيم على من تقع ناري عليه. لو بلدة برمتها أحصدها في لمح البصر، مع أنني سأتوقف عدة مرات لملء الخزنة بالرصاص والتنشين مرة أخرى. إذا امتدت يدي على الزناد فإنها لا تعرف التراجع حتى لو اتضح لى أنني أضرب في أهلي وناسي.

الجميع يعرفون هذا وبندقيتي الميزر هي أول من يعرف، ولذا فهي وأنا روحان في دبشك واحد بماسورة تتمشى فيها روحي في كل آن. بندقيتي هذه تعرف طبعي وأعرف طبعها. تظل معلقة في كتفي مثل ريشة لا أشعر بوجودها حتى تجيء لحظة الغضب الفاصلة فحينئذ تجيء هي في بالي، ثم تختفي فأعرف أنني قد صرت في بالها. وحين تشتد لحظة الغضب أشعر بها ثقيلة فوق كتفي. وحين تلحقني المهانة ولو من بعيد أراها قد قفزت من تلقاء نفسها وصارت بين كفي في وضع التنشين الذي لا يذكر التاريخ في بلدتنا أنه قد خاب مرة واحدة أو أدى إلى جرح فقط. كل طلقة برأس تقع يعني تقع، وقعة أبدية لا قيام منها إلا يوم القيامة وعليك وعلينا خير.

السر ليس في الطلقة ولا في بندقيتي الميزر الأصيلة إنما هو في عيني بالصلاة على النبي. أحياناً لا يكون بي ثمة حاجة لإحكام النشان حتى وإن نكن في العتمة. وما حاجتي أصلاً للنشان؟ إن عيني تنتظر انقذاف الطلقة من الماسورة لتأخذها من يدها طيراناً لتضعها في جسد الأبعد.

الكل يظهر احترامه الشديد لي، ولا يؤخر لي طلباً. وأعرف أنهم مع ذلك يشتمونني من وراء ظهري بتهمة أنني مدب، والحقيقة أنهم يضيقون بصراحتي التي تشبه سرعة طلقتي من بندقيتي وتشبه كذلك إصابتها للهدف. أقول للأعور أنت أعور، في عينيه وليس من ورائه. ولقد علمني جدي الكبير أبو هميلة أنني لا أقيم وزناً لكل من يزعل من الحق أو يلوي بوزه؛ وأن أحتقر كل خنيس يظهر أنه يحبني وهو في الواقع يخشاني. وهؤلاء كثر، وهم الذين تعلمت من أجلهم عِشرة البندقية حتى تزوجتها على سنة الله ورسوله برخصة استصدرتها من الحكومة بواسطة عمي سلمان بك أبو هميلة عضو مجلس الشيوخ الشهير على سن ورمح لا بد أنكم تعرفونه.

عشقت البندقية وعشقتني البندقية درءاً لغدر الجبناء الذين يأكلون على طبالينا في المواسم والأفراح، ويربضون لنا في حقول القصب والذرة يبتغون ظهورنا. فالبلاد ملآنة بالظلم أي نعم، ولكن لسنا نحن بالظالمين؛ إنما الظلم الآتي من فوق يجعل السماء مكفنة بسحب من القطران تنفثها طاسات صدور محترقة من نيران تحتها. الظلم يتبعه ظلام، هكذا رأينا بأعيننا. والظلم قرين الظلمة هكذا قال عمي الكبير الشيخ حمدان أبو هميلة وهو يجلس على عتبة دارنا القديمة فوق المصطبة زاهداً في الدار الجديدة ذات التراسينات والجدران الملونة.

في الظلمة لا بد أن يطمح كل إنسان في خطف زاد لنفسه، وفي الظلمة لا بد أن يدافع كل إنسان عن نفسه، ولا تنسى العداوانة بعضها لله في الله. بعضهم يهمهم أن يرفعك عن مقعدك ليجلس بدلاً منك. بعضهم يستخسر فيك النعمة. بعضهم يريد أن يشاركك، يزاملك، ينافسك، يضايقك، يزحزحك يسرق الكحل من عيني زوجك، والنضارة من وجه أولادك، يسرق دمك والعياذ بالله.

كان لا بد أن يطلع من عائلتنا ولد ابن ليل يأتمر الليل بأمره يخضع لإشارته. وكان هذا الولد هو.. أعوذ بالله من قولة أنا. وكان لا بد أن يجيء في عائلتنا ولد يبرع في اللعب بنيران البنادق يصنع منها أفراحاً وأتراحاً وشموساً في حالات غروب وأخرى في بواكير شروق. وكان هذا الولد هو.. أعوذ بالله من قولة أنا.

وفي تلك الليلة البعيدة الليلاء، كنت مبسوطاً ومنسجماً أربعاً وعشرين قيراطاً، الحشيش وحششت. الشاي وخرطت ثلاث زردات. السجائر وبرمت ربع أوقية دخان عفرتها في لذة واستمتاع. النشاط في جسمي على سنة عشرة. أروح وأجيء أمام الخص تحت شجرة التوت بجوار الساقية، وليس من صوت سوى نعيرها الونيس.

شرائح المياه تنساب من عيني بئر الساقية مندفقة في القناة الساعية بأعماق أراضينا تزغرد في صمت. والقمر ينزل ضيفاً على شجرة التوت، فيبعث الأنس على أماد لا يحدها البصر..

فجأة ظهر الثلاثة الأشباح قادمين من بعيد من اتجاه البلدة يمشون في جرأة مدهشة، كأنهم لا يرون القمر. فإن كانوا عمياناً فكيف لم يشعروا بي، لم يشمّوا رائحة رهيبتي، حتى لتؤاتيهم الجرأة في الإقتراب مني هكذا بلا إمم ولا دستور. ثم إن ثلاثتهم لا يمشون على السكة بل يخوضون في قلب زرعنا كأنهم في ((يغمة))، في وكالة من غير بواب. يا أولاد الوسخة!.. هكذا قلت في نفسي من شدة الغيظ. من هناك؟ تكلم أنت وهو.. هكذا صحت فيهم. فلم يردوا، بل ظلوا يقتربون مني في بجاسة وجسارة حتى كدت أخاف لأول مرة في حياتي.

أيقنت أنهم من أشقياء الليل الملثمين جاؤوا يغتصبون المياه لأرض واحد من الأعيان الكبار. ولم يكن ليتم هذا إلا على جثتي قبل اغتصاب نقطة مياه واحدة. وإذا بالبندقية بين كفي في وضع التنشين الذي لا يخيب: طاخ طاخ أفرغت فيهم الخزنة كلها. عمرتها من جديد وتهيأت للطخ، لكنني لم أسمع صرخة أحد ولا صوت سقوط جثة. فتحت عيني عن آخرهما ومسحت بهما الفضاء كله فلم أجد أي أثر لأي أحد على الإطلاق خدعت نفسي وقلت لا بد أنهم تمكنوا من الهرب، لكنني واثق من أنني نشنت على أجسادهم مباشرة. فماذا يكون هذا يا ربي بحق نبيك محمد؟!

الحقيقة لم آخذ ولم أعط في الأمر. نسيته، أنساني آذان الفجر الوافد من عشرات المآذن البعيدة التي بدت في هذه اللحظة قريبة بجوار القمر مباشرة. انتهت الليلة على خير، كما أن الأرض شربت حتى شبعت وفاض منها. مضيت إلى الدار فنمت نوماً عميقاً لم أصبح منه إلا على ضجيج الأولاد يصبحوني للغداء ثاني يوم من رقدتي. وقد عقدت المفاجأة لساننا جميعاً، إذ أنني صحوت مذعوراً ذراعاي منكسرتان فوق صدري في وضع مسكة البندقية والتنشين. حاولت وحاولوا عدلها فلم نستطع، حاولت أن أتكلم، فوجدت لساني ثقيلاً يفسر الكلام بصعوبة. قلنا: لعلها عين حسود ما تلبث حتى تزول قرصتها بعد رقية بالبخور من عمتي الحاجة هنومة. لكن عمتي هنومة أحرقت زكيبة بخور، وقالت تعزيم تفلق الحجر، فلم ينعدل لي ذراع، ولم ينفك لساني.

لأجل خاطر عمتي هنومة فك الله لساني قليلاً بعد مدة قصيرة.

داخوا بي على الحكماء، و كلى حكيم يراني يسب جهل من سبقه، ويفتي بأدوية جديدة وأكل جديد وكهن جديد لا نفهمه. وكل ذلك مصاريف في الهواء كالطلقات الفشنك تصنع دوشة ورعباً دون أن تصيب، فلما بدأ الصرف يحتاج لبيع أشياء نملكها قلت: لا.. الطبيب هو الله والمداوي هو الله.

أولاد الحلال كثار.أحدهم رآني ذات يوم وهم عائدون بي من عند الحكيم. سألني ما الأمر؟ حكيت له ما حدث بالتفصيل مثلما أحكي لكل من يراني. قال الرجل: بس! وأضاف:

- ((أنت أخطأت يا حاج رشاد! أنت.

ضربت الجن بالنار!)).

إقشعر بدني ربك والحق. مع أن هذا لم يحدث لي أبداً.. قلت:

- ((وما العمل الآن يابا الحاج؟))

قال:

- «كله على الله! عندي طبيبك!»

ذهبت بصحبته ووفد من عائلتي إلى بلدة بعيدة تحملنا الركايب، وحمل معنا هدية تملأ العين لذلك الذي يصاحب الجن. طرقنا باب دار متواضعة لكن شكلها نظيف لطيف.

تلقانا رجل أبيض الوجه ملتح بلحية بيضاء ملونة بالحناء ومدببة الشكل، بعينين كلوزتي القطن بارزتين حين يرفع عنهما الجفنين، تبدو نظرته كدودة حمراء ينبعث منها بريق حاد؛ يرتدي جلباباً أبيض تتصاعد منه رائحة المسك زاعقة تصدع الرأس. وبيده مسبحة طويلة، جرجرت وراءه إلى قاعة داخلية مستطيلة في وسطها باب يفصل بينه وبين قاعة ملحقة بها. جلسنا فوق حصير ملون ومساند. دفعنا بالهدية للرجل وقدم لنا الشاي والقرفة. واستمع لحكايتي من جديد، حيث حكيتها هذه المرة في حذر ودقة فلم أترك صغيرة ولا كبيرة إلا وصفتها وأثبتها. وكان الرجل قد أشعل بخوره، وبدأت القاعة تغرق في دخان كثيف الرائحة.

بعد مجهود كبير بذلك الرجل وتصبب فيه عرقه تهلل وجهه ولهج بالصلاة على الحبيب النبي، وقال إنه تمكن من معرفة الجان الذين بادرتهم أنا بالعدوان وطخختهم بالنار دون سبب. وقال إنهم رجلان

وامرأة، أما المرأة فهي زوجة أحد الرجلين والآخر شقيقه، وأنهم من الجان الطيبين المسالمين، فلا يستحقون مني هذه الفعلة الشنعاء التي كان لا بد أن تودي بحياتي لو لا طيبهم هم.

استراح قلبي بعض الشيء، وتعشمت خيراً، وقلت: على بركة الله. ففاجأني الرجل قائلاً إنه سوف يستحضرهم الآن أمامي لنعقد مجلس صلح بينا، وأن علي - بالطبع - أن أكون غاية في الرقة واللطف معهم. قلت:

- «طبعاً طبعاً يا رجل نحن على الأقل لا بد أن نرعي حرمة الدار التي نحن في ضيافتها! فأنت تطمئن من هذه الناحية من جانبي!».

فتبسم عن فم يبدو كعش العصافير، وقال إنه يتعشم في جعلهم سصفحون عني. قلت:

- «على بركة الله فليحضروا! أهلاً وسهلاً مرحباً على عيني ورأسي ما دمنا في مجلس صلح!».

فجأة ارتعش الرجل وظهر عليه الهلع. وإذا بشيء في سقف الغرفة يضيء كالقنديل، ثم يأخذ في الهبوط من السقف محدثاً صريراً حاداً، ثم يستقر متربعاً أمامنا بجوار منقد النار. وقد أظلمت القاعة مرة واحدة فصرنا في عتمة، ثم لمع في جوف العتمة لسان من الضوء كلسان عصفور. وتبينت على ضوئه منقد النار، وشكل القنديل المنبعث منه لسان الضوء. كان يشبه الفانوس وليس بفانوس، ويشبه جسم القرد وليس بقرد، ووجه العفريت وليس بعفريت.

اعتدل الرجل فى قعدته، وقال فى تبجيل شديد كأنه فى حضرة الله شخصياً:

- «أهلاً وسهلاً. أنتم شرفتم!»

فإذا بأصوات ثلاثة من بينها صوت امرأة يقولون:

- ((أهلاً بك وبضيفك!))

اعتدلت أنا الآخر. صرت أنظر حوالى في العتمة باحثاً عن فروة رأسي التي خيل لي أنها ترتفع بالطاقية وتسبح طائرة في العتمة الحافلة بالأنفاس. خيل لي أن رأسي قد صار بلا سقف يحميه من صواعق الريح وجحافل الظلام. انتبهت إلى أن الرجل يتكلم. أصغيت

جيداً تبينت أنه يتكلم في حقي كلاماً لا بأس به، من قبيل أنني ابن حلال، وأنني ولد جدع ورجل والرجال قليل، غير أنها الدفعة والعصبية. وقال لهم إنه يستحلفهم بالله أن يصفحوا عني ويسامحوني. ثم أضاف أنني مستعد لدفع الحق الذي يطلبونه حتى يكونوا مرضيين.

قالت المرأة الجن:

- ((أطلب قرطاً ومشخلعة من الذهب وخاتمين وخلخالاً وعشر فساتين!))

وقال زوجها الرجل الجن:

- «أطلب جلباباً وعباءة من الصوف وساعة جيب ماركة الترماي وحذاء بأستك؟»..

وقال شقيقه:

- ((أطلب أردباً من القمح وحمارين وبقرة!))

وقال من يبدو أنه كبيرهم: إن هذه الهدايا ليست لهم، وإنما هم سيوزعونها بمعرفتهم على من يستحقونها من أبناء الإنس الغلابة.

ظهر على وجه من معي - الذين مالت ظهورهم وزحفت وجوههم نحو منقد النار - أنهم راضون بهذا الحكم؛ حيث عدلوا رؤوسهم في راحة كأنهم عثروا أخيراً على شفائي بأبخس الأثمان. قال أحدهم في فرح: يا بلاش. وقال آخر: عداكم العيب. وقال ثالث: ليس كثيراً والله على صحة ابننا. أما أنا فقد غلت الدماء في عروقي، وأما الرجل فقد مال نحوي بنظرة يسألني بها عن رأيي فيما سمعت. فنظرت في الاتجاه الذي تجيء منه الأصوات وقلت لهم:

- ((اسمعوا ما أقوله لكم! أنا رجل دغري!

إذا كان يعجبكم أن تصطلحوا معي من غير شروط فأهلاً وسهلاً! أنا خادمكم ومحسوبكم! إنما أن تشترطوا علي لكي نصطلح يفتح الله وأهلاً وسهلاً بكم أيضاً! ولكن يبقى كل واحد في حاله إلا تؤاخذوني يا أسيادي الجن! فأنا رجل مسالم مثلكم! أما صلحكم هذا المشروط فالله الغني عنها لست أرضى به! وعندي أن أظل مكتوف اليدين عثير اللسان خير من أن أقبل شرطكم! فماذا قلتم؟!».

فإذا بحركة كالزوبعة تحدث. القنديل ينتفض ثم يرتفع إلى أعلى في صريره الحاد، إلى أن يلتصق بالسقف ويختفي. وإذا الرجل قد صار في حالة هياج وذعر:

- ((خربت بيتي الله يجازيك! هل هذا ما اتفقنا عليه؟! البشرى لك ولي بالدمار التام! ها أنت ذا قطعت حبل الود معهم إلى الأبد!)).

قلت:

– ((براحتهم يا عم! صلح للصلح أهلاً به وسهلاً أنا خدام! صلح بشروط من أجل مصلحة يفتح الله! أنت نفسك لا ترضاها لي!))...

انفتح شباك. فأقبل ضوء الشارع. فرأيت الرجل ينظر نحوي في غباوة شديدة، والذين معي يرمقونني في غيظ أشد. إلا أنني هببت فيهم صائحاً: بنا يا رجال. وتقدمتهم خارجاً إلى الخلاء وقد خيل لي كما لو أن براميل من الدم الساخن الجديد قد أفرغت كلها في عروقي. وخيل لي أنني أريد أن أخرج من هدومي بل من جسدي كله. وكان يبدو أنني أتكلم مع مرافقي في غضب جنوني وأنني أشوح بيدي وذراعي كأنهما حران طليقان. وكانوا يحاولون تهدئتي ولكن لم أكن أفهم من كلامهم شيئاً. يقول صحتي؟! ليست صحتي هي ما كان يغضبني، إنما غضبي كان من ذلك الرجل صديق الجن: كيف يعترف بلسانه أنني رجل جدع وشجاع ثم يطلب مني أن أوافق على صلح مشروط.

شق الثعبان

البطرانة الفَسَخانية مجرد امرأة عجوز كحيانة، مصفوطة الوجه مجعدة الملامح بيضاء البشرة محمرة الخدود والجبهة، حمراء الشعر. استدارة القمر في وجهها، ترتدي على الدوام جلباباً من الشيت الأسود المبرقش بكرات بيضاء كحبات الحمص، وأحياناً بني اللون بنفس النقشة، تلف رأسها بشال من القطيفة يتماوج بكل الألوان. هذا هو لبسها في الدار. أما إن ذهبت للعزاء في ميت مهم، أو للمطالبة بحق لها عند أحد، فإنها ترتدي الجلباب الأسود القطيفة، من فوقه شال هابط من رأسها، منطرح على كتفيها؛ وفي قدميها ((الشكربين)) الأسود. لا يظهر منها سوى وجهها الذي يزداد تألقاً ونضارة وهو يطل من الحاشية السوداء؛ وكذلك يداها الدقيقتان الحمراوان. اللتان تغريان بالتقبيل. وجهها كذلك يغري بالتقبيل، خاصة أن خصلة متشردة على الدوام من شعرها تعجز هي دائماً عن إخفائها فتتهدل فوق الجبين، واشية بأن ذلك الوجه كان ذات يوم قريب جداً ثغراً عظيماً تستريح فوقه اللثمات.

وهكذا تمضي في البلدة كالرجال لا تلوي على شيء، واثقة من أن الجميع من حولها لا يزال يشتهيها رغم سني عمرها التي لا هي ولا نحن نعرف لها عدداً؛ لكنها تكون واثقة أيضاً من أن العيون ترمقها في حذر وخشية ولا تستطيع أن تستقيم فيها.. فخيرها على الجميع، واحترامها واجب على الجميع؛ ثم إن بطشها لشديد.

هي في الأصل فَسَخانية؛ تبيع الفسيخ من صفيحة كبيرة، تضع على فوهتها نصف غطاء من الخشب، لتفرز عليه الفسيخ عند البيع. وكلما فرغت الصفيحة تملأها من برميل في مخزن دارها الفسيحة الواسعة ذات الغرف العديدة المتداخلة في بعضها، والتي تطل على شارع داير الناحية في رأس كوعة يبدأ بها ممتداً لمسافة طويلة. و باب الدار على الشارع باب دكان. ما ان تدلف منه حتى ترى نفسك في حجرة عادية كنصف مندرة. تفاجئك رائحة الفسيخ، بجوارها قفص طماطم، ومشنة فيها باذنجان، وطشت فيه عنب فرط، وقفَّة فيها بلح أسمر، وصفيحة على رقعة من حصير بال. وفي موسم البطيخ والشمام تمتد أكوامهما بامتداد جدار دارها في الشارع صانعة مهرجاناً كبيراً من الناس ينتقون كبير البطيخ وينقرون عليه

بأصابعهم ويطلبون شقه بالسكين.

وعند خروج المصلين من صلاة الجمعة يكتمل المهرجان ويعلو الصخب؛ ترتفع عشرات الأيدي والأصوات صائحة في نفس الوقت: يا خالة بطرانة! يا خالة بطرانة!.. والكل يتصور أنها تفرغ له وحده؛ ولكنها تفرغ للجميع ولا أحد يستطيع مغالطتها في مليم. فإذا ما هبط الليل قامت فغطت بطيخها بالمشمع وحبشت عليه جيداً، لتغفو بجواره في الشارع أمام باب دكانها حتى الصباح.

نطلع على الحياة فنجدها كذلك. وناس كثيرون يقولون إنهم طلعوا على الدنيا فوجدوا البطرانة هذه كما هي الآن جزء لا يتجزأ من البلدة؛ لا تكبر ولا تصغر أبداً. وبعض رجال عجائز يتوكؤون على عصى يقولون إنهم طوهروا على حجرها في ليلة فرحها. وبعضهم رقص في فرحها. وقد لاحظت أن أبي ورجالاً في مثل عمره يعاملون البطرانة معاملة خاصة، وينادونها في ودٍّ عميق دون لقب يا خالة. وهي كذلك. وكم يبدو منظرهم جميلاً كأنهم أطفال صغار، حين يتجمعون صدفة، فيقذفون بعضهم بعضاً بطوب الذكريات المؤلمة، باعتبارها باتت شيئاً مضحكاً. ودائماً يزفرون في النهاية وهم ينصرفون قائلين لبعضهم البعض: ((إحنا شفنا البطرانة دي في عز مجدها! فين أيامك يا دنيا)).

مثلما احتار الجميع في تقدير سنها احتاروا في أصلها، خاصة وأنها ليس لها أقارب في البلدة أو في أي مكان قريب، وليس معروفاً أنها من العائلة الفلانية أو العائلة العلانية. ومن طريف الذكريات التي ينثرونها معها كثيراً، أتذكر أنهم كانوا أحياناً يقولون لها: يا حلبية؛ أي أنا كانت تلقب ذات يوم باسم الحلبية. وسمعت عمي عبد الرشيد ذات ليلة في مندرتنا يحكي عنها قائلاً إنها من أصل حلبي جاءت بلدتنا منذ زمن بعيد طفلة تحبو وراء أمها الغجرية ضاربة الودع، وأن أمها استحلت المرعى في بلدتنا فصارت تجيء كل بضعة أعوام لتمكث شهوراً ترجع بعدها محملة بخيرات كثيرة؛ وأنها مكثت نهائياً حتى وجدت بيتاً تسكنه بلا ثمن؛ وأن شابا اسمه موسى البطران جاء يسأل عنها ليردها إلى أهلها؛ فأغرته هي بالبقاء معها وزوجته من ابنتها هذه البطرانة، لتموت هي بعد قليل، فيتسبب موسى البطران للرزق ببيع الفسيخ؛ لتمضي بهما الحياة في بلدتنا سمناً على عسل.

تيقنت أن أحداً لا يعرف اسمها الحقيقي؛ وأن شباناً كثيرين لا يخطر على بالهم أنها يمكن أن تكون تزوجت أو أنجبت أو أن يكون لها أهل من الأساس، كأنما هي نفسها أهل لنفسها، كأنها شيء أكبر

وأعرق من أن تلده امرأة أو يضع بذرتها رجل. وهي دائماً أبداً وحدها ليل نهار. نمر على دكانها ونحن ذاهبون إلى المدرسة صباحاً أو عائدون منها عصراً، فيحلو لنا دائماً أن نعوج رؤوسنا لننظر في دكانها؛ لنراها متربعة في حلق الباب من الداخل؛ ووابور الجاز مشتعل أمامها وفوقه براد الشاي أو حالة الطبيخ. ودائماً وجهها للشارع؛ ومن وراء ظهرها باب صغير ضيق يفضي الى بقية أنحاء الدار، مما يؤكد أن هذه الدكانة اقتطعت من الدار بعد بنائها.

هذه الدار قد هاجمها اللصوص كثيراً في سابق الأيام، ونقبوها عدة مرات من عدة جهات؛ فلم يتمكنوا من النفاذ إلى القاعة التي تنام فيها و تضع نقودها وجواهرها. ومن طريف ما يحكى أن اللصوص الذين هاجموا دارها ذات يوم وقعوا كلهم في أيدي الناس وسيقوا إلى المركز مخفورين. ذلك أنهم كانوا ينسون أن رجال وشبان البلدة كلهم يتطوعون، فيجعلون من أنفسهم حراساً سريين عليها.. فالجميع يعرف أن فيها الطمعة؛ ولذا فالجميع يتربص بالجميع. وربما كانت حقيقة الأمر - فيما يقول أبي أحياناً - أنهم جميعاً فكروا في التهجم عليها؛ وقد حسبها الأذكياء فوجدوا أنهم مراقبون من بعضهم البعض؛ ففضلوا أن يكونوا حراساً بدلاً من أن يكونوا لصوصاً؛ على الأقل إلى أن يحين حين ملائم يبلغ أحدهم الخير بدون سرقة أو تهجم؛ ثم إنهم نسوا جميعاً هذا الأمل البعيد التحقيق وبقوا مجرد حراس متطوعين.

في الليل تسهر الدكاكين في ضوء الكلوبات التى تملأ الدنيا وشيشاً وناموساً وحصائر ضوء مفروشة على أرض الشوارع. لكن الوَنَس الحقيقي لا يبدأ إلا عند دكان البطرانة؛ حيث يرسم بابه على الأرض شباكاً من الضوء الخمري اللون لا صوت له، يخفف قليلاً من صبغة الليل؛ فيغري الشبان والصبيان بالإنطراح على الأرض في مجموعات على طول الشارع في الليل الصيفي بين أكوام الردم والسباخ وفوق أحمال القش المعدة لامتلاء السطوح. كل مجموعة يسرح بخيالها واحد، عن أمور الجماع وفنونه يحكي؛ عن العز وأصوله يخترع؛ عن وقف الحال يرسل النكت والمسخرة؛ والضحكات تترى هنا وهناك. ولا بد أن تكون البطرانة داخلة في كل هذه الحكايات بشكل أو بآخر. إنها هي المنقذ الوحيد الذي يميل عليه كل خرمان مفلس؛ وهي الأمل المدَّخَر لكل واقع في محنة أو مشروع زواج. وكل إنسان في البلدة يدخرها لوقت عوزة. وكل واحد يعتقد بينه وبين نفسه أنه سيحتاجها ذات يوم. ولهذا فإن صوتها والذي تخمد فيه رنة الأنوثة بنبرة رجولية مستعارة وزاعقة - لا يكف أبداً عن إرسال الردود عبر الباب: يسعد مساك يا خويه! يعافيكم بالعافية يا اختي! سا النور يا حاج أهلا وسهلاً!.. خيط من الردود والتحايا لا

ينقطع..

مندرتنا هي الأخرى كانت تسهر في سيرة البطرانة؛ شأن كل المنادر في بلدتنا؛ لكن دخولها دائرة اهتمامي الشديد بدأ ذات ليلة ليلاء..

فمرة خطر لأخي عيسوي أن يشرب السجائر مثل الرجال ظناً منه أن مرواحه لمدرسة البندر الثانوية يعطيه حرية التحلل من قيود أبي ولو في الخفاء. لكن أنَّى له أن ينعتق من رقابته؟ حظه التعيس قاده في صحبة من إخوانه الذين يتعلمون في البندر معه، إلى نزهة على ترعة السلمونية في ضوء القمر الشاحب، حيث يتحدثون عن همومهم الشخصية لبعضهم البعض في حرية، ويمارسون عادة التدخين مثل الأفندية بالسيجارة المكن، التى يمكن أن يفرطها أبي على أربع سجائر باليد كما نراه يفعل اذا ما عزم أحدهم عليه بواحدة مثلها. على أنه التباهي على غيرهم من شبان البلدة الذين لم يتعلموا؛ ومشاغبة عيون الفتيات المتسللات لملء البلاليص في ضوء القمر.

حظه التعس؛ أو لعلها نشوة السهر؛ أنسته أن أباه مغرم بنفس الغرام الليلي، ومن أهل الخطوة، يقطع الطرق ويعبر المصارف والترع والقناطر دون أن يبتل، في عز الليل دون وجل ودون اعتبار لوحش أو لجن أو عفريت أزرق. كان ليلتها ماضياً في طريق ترعة السلمونية قادماً من سهرة لدى شيخه العتريس في عزبة مجاورة، واضعاً ذراعيه بالمسبحة خلف ظهره؛ وفمه لا يكف عن البسبسة والهمهمة والسخط على ما لا يعجبه، من الزرع الذي تركه أصحابه يجف، والردم الذي كومه شيطان ليسد به طريق القوم. كان حديد البصر، يرى أشباح العيال قادمة نحوه من بعيد والسجائر تبرق بين شفاههم وتتباعد، لكنه لم يميِّز أحداً منهم. فجعل يقترب منهم وقد دفعه الشعور بالخرم إلى رغبة في تدخين سيجارة أخرج علبته الصفيح من جيب الصديري ولف سيجارة ثم بحث عن الكبريت فلم يجده؛ فأبقى السيجارة بين يديه لحين محاذاته القادمين فيشعل منهم..

وكانوا قد جلسوا على قنطرة مبنية بالأسمنت والحديد على ترعة السلمونية وراحوا يدخنون ويضحكون بصوت عال ماجن على نكت قبيحة الألفاظ. اقترب أبي من أحدهم وقال في رجاء:

- ((والنبي يا أفندي تولع لي!)).

فأعطاه الشاب سيجارته. وحتى هذه اللحظة لم يكن أحدهما قد عرف الآخر؛ لكن أبي حين لحم السيجارة المشتعلة بسيجارته وجذب النفس؛ توهجت السيجارتان معاً فانكشف وجه أبي تماماً لأخي عيسوي؛ فإذا به يترك سيجارته في يد أبي ويطلق ساقيه للريح. وإذا ببقية الشبان يتفرقون في خجل وهم يكتمون ضحكاتهم ويخبئون جثثهم خلف الأشجار والدور المتطرفة خارج البلدة. أما أبي فإنه أبقى السيجارة بين أصبعيه ومضى موسعاً الخطى صائحاً:

- ((تعال يا آفندي خذ سيجارتك! يا أفندي

عيب! تعال خذ سيجارتك!))

وهكذا بطريقته الهبطانة الساخرة التى تعرفها البلدة كلها وتقلدها في شغف... حتى اختفى أخي عيسوي في حواري البلدة..

لم يذهب بالطبع إلى دارنا، بل انحرف إلى وسط البلد؛ وكانت مندرة السنهوري هي الوحيدة التي يمكن أن يسهر فيها؛ تلك التي يفتحها صاحبها كمقهى يسهر فيه الناس لشرب الشاي والمعسل ومص القصب والتحدث في أمور ونوادر ومسخرة ضاحكة. ولم يكن أحد يتوقع مطلقاً أن أبي يمكن أن يجيء إلى هذه المندرة المقهى في هذه الساعة المتأخرة من الليل ولكن أخي عيسوي ما كاد يجلس على الدكة الخشبية متربعاً ويجيئه واحد القرفة على صينية في يد السنهوري، حتى دخل ممسكاً ببقية السيجارة متقدماً نحوه قائلاً في جدية واحترام مبالغ فيهما:

- ((يا أفندي خد سيجارتك!! مش عيب تسيب السيجارة وتجرى؟! أيجرى الأفندي؟!))

وقف الولد مبلولاً مذهولاً؛ وانزوى كل الموجودين في المندرة متوجسين. ولكن أبي صار يترك أخي عيسوي ويذهب إلى الباب؛ ثم يعود في حركة مسرحية ويقول:

- ((يا أفندي خد سيجارتك!))

في حين أن السيجارة انتهت وارتمت على الأرض وبقي أبي ضاماً أصبعيه على الفراغ. وأخي غارق في الخجل في العرق في نصف هدومه. وأبي يطلق بين الحين والحين زفرة حارة تترنم بالمرارة والخطورة ويمثل بين يدي أخي متصنعاً أنه العبد الفقير يقف بباب سيده:

- ((عدم المؤاخذة يا سيدنا لفندي! دفعت ثمن هذه السجائر المكن من جيبك أم تشربه سفلقة من غير مؤاخذة؟! هذه عادة الأفندية ولن يشتروها! أقصد العادة لا السجائر يا سيدنا لفندي!!)).

ويستدير ماضياً حواليه، ناظراً في كوب القرفة بجواره، مردداً فيما يشبه الفرح الذي يخفي الشعور بالمأساة.

- «ما شاء الله! ما شاء الله طبعاً! طبعاً! لماذا لا تدخن وتشرب القرفة في أوكار الليل طالما أن عضوك في مؤخرة غيرك؟! أتغرم شيئاً؟! مدرسة البلدة وعلمناك فيها مع احتياجنا لك في شغل الدار والغيط! مدارس البندر والحقناك بها مع شدة احتياجنا لمصروفاتك الحراقة! وقلنا لا بأس حتى يترقّى لنا ولد! يصبح أفندياً! محترماً! لم نبخل عليك بالبذلة التفصيل والطربوش الجديد والحذاء الجديد كل عاما! الدور والباقي على شرب الدخان! هذا آخر ما كنا نفكر فيه! فاعذرنا يا سيدنا لفندي! وإن كنت تطافست على بعض صحابك من أجل سيجارة فما الذي عساك تفعله لهم في مقابل ذلك ذات يوم؟! أم تراك تكون نصاباً يفرط في شرفه من أجل هذه المدعوقة؟! اللوم يقع عليك يا سيدنا لفندي! كان يجب عليك أن تنبهنا من الأول حتى نضيف لمصروفك ميزانية الدخان! أما إن كنت سرقت شيئاً من الدار وبعته! أو اختلست شيئاً من مصروف أمك فلا بأس! في بيتها على كل حال! المهم ألا تكون طولت يدك على مال الغير أو دنأت نفسك على أحد! هذا كل ما في الأمر يا هذا!!)).

ثم راح وجاء في المندرة المقهى عدة مرات وهو منكس الرأس في تفكير عميق؛ والهم باد عليه لدرجة مخيفة جداً. لكنه عند هذا الحد المخيف من التجهم يذهب إلى أخي عيسوي فيواجهه، يرمقه كأنه يراه لأول مرة:

- ((سعادة البيه أليس يعرف أنه هو الآخر مدين للبطرانة؟!))

ظنها القوم نكتة؛ حتى أخي عيسوي هو الآخر اضطر إلى الإبتسام رغماً عنه مشاركاً القوم في ضحكتهم الكبيرة التي انفلتت عنهم برغم تحفظهم. فآخر ما يتصوره أخي، وآخر ما يخطر على بال أحد من الحاضرين، أن يكون أخي عيسوي هو الآخر مدين للبطرانة الفَسَخانية. صحيح أن كل واحد من هؤلاء القوم مدين للبطرانة بشكل أو بآخر، وليس في بلدتنا أحد غير مدين لها ولو بأكلة فسيخ على الحساب. لكن أن يكون أخي عيسوي الطالب في الثانوية مدين هو الآخر لها فهذا هو المضحك في الأمر حقاً.. فديون البطرانة أكبر وأشد من أن يحتملها طالب كأخي عيسوي. ولهذا فقد ضحكوا

من خيال أبى الساخر في اختياره لأنواع السباب التي يوجهها لأخي في محاولة لتهزيئه ولسوعته بالعذاب القارص..

إلا أنه استدار نحوهم، معلقاً على ضحكتهم بنظرة اشتمئزاز، لاوياً معها شفتيه، قائلاً:

- ((أعجبتكم هذه الكلمة؟! أنتم جميعاً مدينون للبطرانة! كل طفل من أطفالكم! حتى الذي لم يولد بعد قد أصبح مديناً البطرانة!!)).

ولوح بذراعيه داخل كميه الواسعين وهو يمضي نحو الباب للخروج النهائى الغاضب. غير أنه توقف على عتبة الباب ناظراً فيهم نظرة ملآنة بالأسف؛ قائلاً في لهجة يشوبها نبرة اعتذار:

- ((كلنا والله يا إخوان! لم يعد أحد في البلدة كبيراً على دين البطرانة!!))

ثم دفع بقدمه عبر العتبة في تؤدة ورزانة.

منذ ذلك اليوم شغفت بالبطرانة وبدأت أندس وسط المجموعات المتسامرة أتشرب كل حديث تأتي فيه سيرة البطرانة؛ حتى عرفت الكثير والكثير مما يقف له شعر رأسي وترتعد فرائصي.

فلقد علمت - ويا للعجب - أن لها من زوجها البطران ست بنات يقلن للقمر: قم لنقعد مطرحك. كما علمت أن عمي عبد الرشيد - الذي يعمل خفيراً للري في الإصلاح الزراعي - كان أحد عشاق ابنتها الصغرى ((ملكة)) وأنه باع كل ما يملك واشترى بثمنه هدايا للبنت حتى تحن عليه وتقبل الزواج منه فلم تقبل. وكنت أظن أنه سيغضب لو نكأت جراحه القديمة وسألته عن عشقه؛ فإذا به ينتقض واقفاً كصاري العلم تهزه الضحكات المتفجرة، وإذا به يعرك أذني بكفيه الكبيرتين الخشنتين؛ ثم يغمض عينيه مترنماً بيا ليل يا عين، ثم يصدح بموال: أيام بنلبس حرير وأيام بنلبس فل!! وأيام ننام ع الحرير وأيام ننام في الطل!! وأيام بتيجي على ابن الأصول ينذل!! وفي تلك الليلة حكى لي عن عشرات الجدعان الذين ماتوا عشقاً في دباديب أظافر بنات البطرانة منهم من سرق ليدبر مهراً كبيراً لإحداهن؛ فدخل السجن ولم يخرج منه. ومنهم من دخل في عراك مع غرماء بسبب إحداهن؛ فحرم على نفسه الأكل والشرب والنوم حتى هزل و مات، ومنهم ومنهم حتى خيل لي أنه يحكي سيرة الهلالية. وكان شيء من الكآبة يعتري وجهه وهو يحكي، وأحياناً تلمع في عينيه البهجة؛ إلى أن جاءت استغاثة الفجر فنهض يطلب الصلاة قائلاً:

- ((ضاعت عليك الليلة يا ست أبوها يا امرأتي! فأنا لا يمكن أن أضاجع اثنتين في ليلة واحدة! أنت السبب أيها الولد العكروت! فكرتنا بالذي مضى!)).

وكنت كلما ارتفع منسوب الدهشة انطلقت من فوري إلى دكان البطرانة لأشتري أي شيء؛ ولأختلس النظر متمعناً في ملامح وجهها وحركاتها علّني أكتشف وراءها شيئاً يميزها عن البشر ويؤهلها للسيطرة على الجميع كبيراً وصغيراً، فلا أجد مدعاة للدهشة أكثر من بساطتها: مجرد بائعة فسيخ شقيانة تستأهل عطف من يراها.

ظلت هي مصدر الدهشة الوحيد في بلدتنا، ومحور كل حديث إلى أن ظهر الراديو في دكان ((مِهَيَّا)) البقال، الذي أخلى له مكاناً على رف بجوار ركنه الذي يجلس فيه إلى منصبة أنيقة؛ موضوع فوقها نوت الحساب الشكك ودفاتر التموين وطفاية سجائر ودواة حبر وقلم كوبيا مربوط في درجها بفتلة دوبارة. وبين تلال من علب السجائر المرصوصة المستفة بدقة كأنها الجواهر الغالية، وعلب السلمون والسردين والصلصة، وباكوات الدخان الفرط، وعلب السمن الهولندي.. بين كل هذا كان الراديو هو أبرز شيء، بصندوقه المستطيل الناعم اللامع ذي اللون الكريمي، لوحة المحطات مزدانة بالخطوط والأرقام المداخلة ومن خلفها مؤشر كعود الكبريت في وسطه ضوء براق؛ وفي أسفل الصندوق صف من الأزرار الأنيقة؛ ومن خلف الصندوق يمتد سلك تخين مكسو. ينتهي بكماشة تقبض على أصبع البطارية الثقيلة الموضوعة فوق رف سفلي. كانوا يسمونه الفيليبس. وقد ظل مبعث دهشة لنا لا ينتهي لها حديث ولا يفرغ منها العجب. جيء بالبنت أم السعد الملاية في دار «مِهَيَّا)) لكي تملأ البطارية من ماكينة الطحين بواسطة وابورها الذين تركب فيه بسلك ليشحنها. أم السعد رفعت البطارية بيديها وكانت تظنها خفيفة فإذا هي راسخة كالحديد؛ فصاحت البنت من هولها: «يا حو.. و.. ومتى.. هي تقيلة كدة ليه؟! إيشحال أما تتملى؟!)). وكانت هذه النكتة هي المنافس الوحيد لحديث الراديو.

صاحب الدكان هو دار «مِهَيَّا))، يعني عائلة «مِهَيَّا))، المكونة من أربعة رجال: محمود مهيا وطاهر مهيا وخليفة مهيا وعبد الوهاب مهيا. غير أن العارفين بحقائق الأمور في شرقي البلد يؤكدون أن صاحب الدكان هو عبد الوهاب مهيا وحده. و هو يعمل مدرساً إلزامياً في مدرسة البلدة، يرتدي الطربوش فقط كرمز للأفندية، والجلباب الصوف وفوقه البالطو أو العباءة في الشتاء. وهو أول من تجاسر ودخل علينا الفصل بالجلباب والطربوش دون البذلة الإفرنجي. وجهه

أحمر أشقر كالبرتقالة، وحنكه أعوج؛ لكنه لبق ذرب اللسان؛ يعرف كيف يفحمك بالآية البيّنة وبالحديث الشريف وأمثال العرب. إنه المتعلم الوحيد في دار مهيا، وبقيتهم لا يعرفون أكثر من فك الخط. كلهم يقفون في الدكان للبيع واحداً بعد الآخر، وربما مجتمعين عند تفريق التموين.

لم يكن غريباً أن يكون دكانهم أكبر دكان في البلدة، بل في العب كله؟ يبيع بالجملة والقطاعي فهم طول عمرهم في هذه المهنة؛ ولهم فوق ذلك أرض يفلحونها ويكترون الأنفار لمساعدتهم في الحرث والبذر والري والحصاد. لهم كذلك أبقار وماشية يعلفونها. يعيشون جميعاً في دار واحدة كبيرة في أعماق شارع ضيق يشق وسط البلد، ولها دوار يطل على الشارع، وزريبة كبيرة في الداخل، وقاعات بالطوب الأحمر ذات شرفات..

ولكن الغريب حقاً أنهم طلعوا فيها مرة واحدة؛ فجأة تركوا الدكان الملاصق للدار، وابتنوا واحداً جديداً بحجم أربعة دكاكين على واجهة شارع داير الناحية، مواجهاً للمدرسة ولبيت العمدة ولمجلس القرية وسوق اللحمة والخضار. من خلفه مخازن كبيرة عميقة ممتدة حوت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت: أطنان غريبة من ملبوسات ومفروشات وأدوات زينة وأدوات منزلية ولعب أطفال. عربات النقل الكميون والكارو لا يبطل لها وقوف أمام هذه المخازن للتعتيق أو للشحن. وخليفة مهيا بجلبابه البوبلين الشفاف يسوق كرشه أمامه، رائحاً جائياً كطاووس مهيض، حاملاً نوتة صغيرة كالكف، والقلم الكوبيا خلف أذنه. وجهه كجوزة الهند، بشعره المتلبد، وعينيه الزرقاوين، والطاقية الشبيكة البيضاء منحدرة على جبهته المنبعجة في نظاكة وعياقة لا مكان لهما في وجهه. الشبشب في قدميه الموردتي الكعبين، لا يكف عن الطرقعة، محدداً للفواصل الزمنية بين الفصال والمناكفة، والعراك والتراضي، حول أمور النقل والنولون وسلامة البضاعة فضلا عن جودتها.

هذا مهرجان وحده، جعل البلدة تحبه وتحب دار مِهيا، لأنه يجدد المناظر في البلدة بالناقلات والحافلات والبضائع التي تغري بالسرقة لاقتنائها.. لقد جعل بلدتنا قريبة الشبه بالمدينة. أما الدكان حيث يلعلع الراديو فمهرجان آخر وسامر لا ينفض، من صبيحة ربنا حتى قرب الفجر بقليل؛ حيث يتوافد الناس، يفترشون الأرض أمام الدكان وعلى رصيفه العالي. وابورات الجاز مشتعلة على الدوام وسط كل مجموعة وأخرى. براريد الشاي من فوقها تغلي فيها مياه الشاي ماركة أبو قفلين والجرس والبنت الفلاحة وشاي زوزو والشيخ الشريب. رائحته النفاذة تسكر القادمين من على بعد في

الحواري الجانبية؛ فيدركهم الخرم المفاجىء مهما كانوا شاربين في دورهم. وأنت ترى أن شمس الصباح الخضراء قد سبقتك إلى رصيف الدكان المرتفع عن الأرض عدة درجات، وأقامت سرادقها في الحارة الجانبية، حيث يطل باب آخر للدكان لا ينفتح؛ كما احتفظت للحائط المواجه بحدوده الآمنة من شريحة ظل رطيبة تتصاعد منها رائحة الردم وروث البهائم المارة. هي رائحة حميمة، ربما أكثر حميمية من رائحة الفطير الذرة، المتصاعدة من أبواب الدور محملة بدخان الأفران السكران بنكهة الزبد والقشدة المحمرة على وجه الفطير. أنت لا بد قد أفطرت فطيراً، أو عيشاً طرياً بالجبن القريش واللبن الرائب. وحتى إن لم تكن أفطرت فالرائحة من حولك تشبعك تماماً بل تجعلك تتجشأ بصوت عال كالآكل لتوه. أنت تبعاً لهذا ترى أن الهضم بالشاي قد وجب. ثم إن القعدة نفسها على الرصيف جميلة، والأجمل منها أن ينضم إليك آخر، والأجمل أن ينضم إليكما ثالث فرابع؛ فما أحلى منظر الرجال وهم مجتمعون ولو حول وابور الشاي على رصيف دكان ((مِهَيَّا)).

يعني أنك لا بد أن تجلس. فإن كان وراءك عمل سريع مستعجل فيكفيك كوبة من الدور الأول وربما أخرى من الدور الثاني ولا داعي لانتظار الدور الثالث؛ لكنك في الأغلب لن تتنازل عن كوبة الدور الثالث؛ ليس لحلاوتها أو لطفاستك؟ إنما لأن الراديو سوف يشجيك بصوت صباح وشادية وفريد الأطراش وكارم محمود وعبد العزيز محمود وعبد الوهاب والآنسة أم كلثوم، وبصوت الشيخ محمد رفعت والدكتور طه حسين والعقاد وفكري أباظة؛ كأنهم جميعاً يجلسون في هذا الصندوق السحري ينتظرون دورهم. أبو ستة الصياد جاء بغزله وخيوطه واتخذ لنفسه مجلساً ثابتاً على الرصيف الجانبي وبات أول من يجيء وآخر من ينصرف؛ يقضي النهار وشطراً من الليل منكباً على غزله يعقد الشبك ويشرب الشاي ويستمع إلى الراديو.

* * *

الناس في بلدتنا يحبون دائماً معرفة كل شيء عن أي شيء يصير واقعاً أمامهم؛ أصله وفصله. فقد تعودوا على أنه لا سر هناك البتة؛ فالأرض لا تخونهم أبداً؛ وكل شيء يجيء فى ميعاده المنضبط؛ ولا شيء يختشى من أوانه؛ لا القمر يكذب فى بريقه ولا الشمس تدعي الحرارة. كل شيء معروف ومحسوب لفصول وربما لسنوات قادمة والتى تحبل في مكة يجيء بأخبارها المجاورون. فأما إن طرأ عليهم ظاهر جديد فإنهم لا بد أن يسألوا ويطقسوا، ويظل دماغهم بالأمر الشاغل حتى يجيء بداغه، كاشفاً حقيقة

أمره. إن لم يكن للشيء ماض يستندون علية لمعرفة ظاهره الطارىء فما أسهل أن يؤلفوا له ماضيًا، والعجيب أنه يجيء دائماً مطابقاً للواقع.

إبتهج الناس قدر ما ابتهجوا؛ وتسامروا حول الراديو والشاي قدر ما تسامروا. ثم بدأت مسامراتهم تعرج في الهمس ظاهرة دكان ((مِهَيَّا))؛ حتى في أثناء قعدتهم في رحاب دكان ((مِهَيَّا)) نفسه. التساؤل الحتمي أطل برأسه وجعل يظهر شيئاً فشيئاً ليستغرق الحديث كله: عما يكون قد جرى فى الدنيا حتى تحط بثقلها الذهبي كله - هكذا فجأة - على دار ((مِهَيَّا)) خبط لزق؟! سؤال كان مدخراً غير أنه ليس يصلح للإدخار أبداً؛ إذ لا بد أن يغادر خزائن الصدور مهما تلهت عنه النفوس.

مع رشفات الشاي المنتشية، فوق الردم في الحارة الجانبية لدكان ((مِهَيَّا))، تسامر الهمس راصداً كل كبيرة وصغيرة في الأمر.. وأشرف الهمس علي قناعات: لو أن دار ((مِهَيَّا)) رهنوا كل أرضهم عند البنك أو حتى باعوها فإن ثمنها لا يساوي ربع هذه الثروة من البضائع والمباني والتجهيزات فضلاً عن عربة النقل الكميون الخاصة بهم؛ في حين أنهم لم يرهنوا شيئاً ولم يبيعوا شيئاً. فهل كان عندهم كنز مدفون كشفوا عنه فجأة؟!

في قعدة شاي كهذه بعد بضعة أيام سمعت أن البطرانة هي صاحبة كل هذه الأموال أعطتها لدار ((مِهيَّا)) كي يجددوا بها شغلهم ويقيموا هذه التجارة الكبيرة؛ وحقيقة الأمر أنها قد حولتهم - يقولون في غمز واجف - إلى عاملين عندها بعد أن كانوا أصحاب عمل. وقيل إنهم قدموا لها قطعة الأرض فقط وأنها تكفلت بالبناء وبالبضائع؛ أوهمتهم أنهم شركاء وهي في الحقيقة تستنفع بشطارتهم وخبرتهم في البيع والشراء وتعطيهم مقابل ذلك نسبة من الربح وفي قعدة أخرى سمعت أن البطرانة ليست هي صاحبة هذه الأموال الطائلة؛ إنما هي تعرف أصحاب رؤوس الأموال وتمت بصلة قرب أو نسب لبعضهم؛ وأنها قد توسطت لديهم لكي يقرضوا دار ((مِهَيَّا)) هذه الأموال فأقرضوهم وقيد وهم بالعهود والمواثيق والضمانات.

وفي قعدة ثالثة إنفردت بنفسي وس.رحت مفكراً: أتكون البطرانة هذه هي البنك الكبير الذي يقترض منه الناس على مختلف أوضاعهم؟!.. فهكذا تفعل البطرانة بالفعل. أنت مزنوق في قرشيين؟ إذهب إلى خالتك البطرانة. كل ما عليك أن تبيعها قمحاً أو فولاً أو برسيماً أو أرزاً من محصولك القادم، الذي ربما لم تزرعه بعد. هي

تعطيك ثمن نصف أردب مثلاً بسعره الحالي وقت ندرته؛ وتكت عليك كمبيالة بأردب كامل، تأخذه بالفعل عند الحصاد. هي تعطيك من جنيه لألف؛ شرطها الوحيد أن تكتب لها أوراق بيع وشراء، وإلا فلترهن عندها ذهباً أو نحاساً أو عقد ملكية. والثورة منذ جاءت ندرت الفلوس في أيدي الفلاحين؛ وكثرت في أيدي التجار والسماسرة والمرابين. والثورة فتحت المدارس لكل الحفاة، الذين نفعوا فيها بالفعل؛ وبات على آبائهم الفلاحين والعمال الغلابة والأنفار والتملية أن يصرفوا عليهم في مدارس البندر، وقد شعروا أن الدور أخيراً قد جاء عليهم ليصبح أبناؤهم أفندية وحكاماً بعد طول قحط وبهدلة. ومن كانوا أعياناً قبل الثورة أصبحوا بعدها على فيض الكريم؛ وهم أولى بالصرف على أولادهم في البندر. أصحاب الثروات الكبرى الذين هربوا كل ثروتهم إلى بنوك ومتاجر السعودية والخليج وعاشوا في صورة على الله بات عليهم أن يقترضوا للصرف على أولادهم حتى يصدق المخبرون أنهم فقراء بالفعل. الفلوس كلها - لكلهم - مع البطرانة؛ والبطرانة تطلب ورقة. وورقتها نافذة أينعم؛ ولكن بعد حين على كل حال؛ فلربما يكون قد حلها الحلال الذي لا يغفل ولا ينام..

أنت في حاجة إلى وظيفة في أي مكان؟ إذن فاذهب إلى خالتك البطرانة. إنها تعرف ناساً كباراً جداً من علية القوم في البنادر وفي كل مكان. لا مانع لديها - إن كنت رجلاً مهماً - أن تلبس ثيابها وتذهب معك إلى واحد منهم؛ بشرط أن تنقلها على حسابك بركوبة حتى القطار. لكنها في الأغلب الأعم سترسلك بأمارة إلى واحد معين في البلد الفلانية تقول له أنك من طرف البطرانة وأنها تسلم عليك وتقول لك بأمارة كذا وكذا أنا وضعي كذا وكذا وأرغب في عونك. ولقد حدث؛ فبواسطتها عين خفراء نظاميون، وتومرجية، وملاحظون في الإصلاح الزراعي؛ وتم نقل مدرسين من بلاد بعيدة إلى بلدهم؛ وقبلت المدارس تلاميذ أكبر من سنهم بشهور، وأطلق سراح بعض المحتجزين - ظلماً أو عدلاً - في تخشيبة نقطة البوليس، وأعفي شبان من الجندية لعيوب خلقية غير.!! ظاهرة فيهم!!

ورأيتني بعد سرحتي هذه أبتسم في مرارة قائلا لنفسي: وهكذا يمكن أن يكون أبي صادقاً في تأنيبه لأخي عيسوي وربما لم يكن يكذب حين زعم أنه مدين هو الآخر للبطرانة. وهكذا - أيضاً - يمكن أن يكون دين البطرانة ممتداً في الزمن القادم.

لكن الأمر الذي شغلني حقاً هو مصير هذه الديون كلها إذا ما نفقت البطرانة فجأة وعاجلها الموت وهي وحيدة؟! من يا ترى سيعرف كل ما لها في ذمم الآخرين؟ ومن سيتولى جمعه؟ وكيف؟! غير أنني لم أجد لذلك جوابا؛ مثلما لم أجد تصوراً للموضع الحقيقي

الذي تخفي فيه أموالها ورهوناتها.

*** * ***

وذات يوم كنت عائداً من المدرسة بعد الظهر بقليل فوجدت موكباً هائلاً من البشر قرب دكان البطرانة، يمتد حتى قرب حارتنا. فلما اقتربت منه ودخلت فيه، رأيت خيولاً تقف على مقربة من الباب؛ في حراسة عسكر بالبذلة الصفراء والطرابيش والقلشين الملفوف على الساقين. كانوا يزعُّون الناس المتفرجين ويهوشونهم بالكرابيج كي يبتعدوا. وكان ثمة أفندي معتبر يلبس البذلة الصفراء هو الآخر، لكنها من الجوخ الثمين؛ وعلى كتفيه وصدره نجوم وضبابير وشرائط كثيرة تربك العين. جيء له بكرسي في مدخل الدكان، فجلس يبتسم وينصت إلى البطرانة، المختفية كعادتها داخل الدكان، ويصيح في عسكره بلطف؛ ((ما تضربوش حد!)).

ظننت أن رجال المباحث التموين فاجؤوا البطرانة كما يحدث للبقالين الغلابة من حين لحين. تلكأت على مقربة من الأفندي ذي النجوم والضبابير أتفرج عليه مبهوراً بكل هذه الأعاجيب النحاسية والشرائط والتعاليق. كانت رائحة عطره تملأ الشارع كله وتكاد تطغى على رائحة الفسيح المعتقة. وكانت البطرانة متربعة في نفس مكانها المعتاد تبتسم في سعادة وود كبيرين؛ وتتكلم مع الأفندي في رقة؛ تسأله عن أسماء وعن أشياء. هو يتباطأ في الإجابة، يبتسم، يفكر قليلاً. هي تسبقه إلى الضحك في كمها جذلاً واغتباطاً. يشخط فيها على سبيل المزاح صائحاً:

- ((بتضحكي على إيه يا وليه انتي؟! خلي بالك إن دي آخر مرة حد منا يجيلك! شوفي لك صرفه فى نفسك بقي! اللي نوحشه بعد كده يبقى يزورنا!)).

يبدو على البطرانة كأنها فهمت الإشارة؛ تكتم ضحكتها تشوح في عشم قائلة:

- ((إياكم فاكريني فاضية لكم! أنا ورايا موسم البطيخ داخل! وورايا هم ما يتلم!)).

يتأملها الأفندي لبرهة طويلة كأنه ينظر في لغز مبهم؛ يضرب بكفيه على ركبتيه، يشرع في النهوض. ترفع البطرانة ذراعها في وجهه صائحة:

- عليَّ الطلاق بالثلاثة من دراعي ما حد يمشي غير بعد الغدا! خلاص! الغدا جهزناه! يلا يا بنت!»

كانت جادة غير مازحة؛ نهضت كشابة في العشرين؛ وضعت رأسها في الباب لصغير صائحة: ((يلا يا بنت))..

لم تكن هذه البنت سوى صفية بنت العريض، التي كان زوجها حفني يشتغل عند البطرانة قبل أن يموت بعد زوجها بسنوات قليلة، مخلّفاً ثلاثة أولاد؛ رأت البطرانة أن تضمهم إلى رعايتها، وأن تنقل أمهم صفية لخدمتها. وحين كبر الأولاد، لم تدعهم يشتغلون عندها؛ خافت أن ينهبوها أو يتآمروا عليها.. هكذا يقول بعض الخبثاء من بلدتنا. أما الحقيقة - كما يقول الآخرون - فهي أنها ليست تريد لنفسها مهرجاناً من العاملين الرجال، ربما لأنها لم تعد تطبيق عشرة الرجال؛ وإنها لهذا سفرت أولاد صفية للعمل في الكويت والسعودية وليبيا؛ لدى زوج ابنتها فهيمة المقاول الكبير الذي له شغل في كل البلاد. وهذا صحيح وقد شفته بعيني؛ إذ تكفلت البطرانة بتسفير عدد لا يحصى من الرجال والشبان والبنات من جميع البلدان المجاورة حتى لم يبق فيها من أهلها سوى العجائز والعجزة والغيلان المترسخين. وهم في كل عام يهلون من السفر محملين بالدولارات والدينارات والريالات والحقائب الضخمة المنبعجة بالهدايا؛ فيشترون قراريط الأرض الزراعية المتاخمة للبلدة؛ يبنون لأنفسهم فوقها الفيلات والعمارات كالمدينة العاصمة سواء بسواء.

نصف أولاد البلدة كرهوا التعليم وأحبوا السفر بتشجيع من البطرانة أو بتخويف من ديونها. وفي ظرف سنوات قليلة من سفرهم بات الفلاحون وقد باعوا لمقاولي البناء طمي أراضيهم؛ فتخربت الأرض وباتت بركاً ومستنقعات، فباعها أصحابها للبناء واستراحوا، واتجهوا إلى فتح الدكاكين والبازارات والمقاهي لعرض أفلام الفيديو؛ وباتوا جمعياً يجأرون بالشكوى في طلب الدجاج المجمد والبيض واللبن المجفف وبولوبيف الكلاب وأفخاذ الطيور الجارحة. ويتنطعون على أبواب الجمعية الاستهلاكية.

صفية بنت العريض أشطر من مدينة؛ فلقد راعني منظر العزومة حين نظرتها من بعيد؛ حيث افترشت فناء الدار بحصير ومساند؛ وامتدت الطبلية الكبيرة على الأرض، وطرحت فوقها صينية العشاء؛ وامتدت أطباق اللحوم والطيور وأناجر الفتة وأطباق الخضار والحلوى. وخرجت طبلية مماثلة لجدعان الحى الذين تكلفوا بحراسة الخيل حتى ينتهي الضيوف من طعامهم.

* * *

في الحق ما أكثر الحراس الذين يتطوعون بمساعدة البطرانة في كل لحظة، خاصة حين تصلي؛ إذ يطرق الزبون باب دكانها فلا يراها في مدخل الدكان كالعادة، فيطرق مرة أخرى؛ فيجيئه صوت البطرانة من الداخل مرتفعاً فجأة بسورة من القرآن الكريم تتبعها بصيحة: الله أكبر.. ربنا ولك الحمد!! فهنا يقف الزبون متطوعاً بحراسة البضاعة؛ رغم يقينه أن البضاعة في مأمن وحدها. ولكن سرعان ما يأتي زبون آخر، ليعرف أن البطرانة تصلي؛ فيقف؛ لا في انتظارها؛ بل في حراسة الواقف قبله. وبعد قليل يأتي زبون ثالث؛ فيلذ له أن يقف في حراسة الاثنين. وحين يتزايد عدد الزبائن تتطامن البطرانة في صلاتها ولكن صوتها يعلو إلى ذروته: ((كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيـ.. يـ.. دـ.. السلام عليكم... السلام عليكم)). لحظتها يبدأ الجميع في التزحزح نحو الداخل وكل يمد الفلوس والوعاء الذي سيأخذ فيه طلبه.

في الطريق إلى دارنا في ذلك اليوم كانت الأحاديث تتنقل من مجموعة لأخرى، حتى عرفت العجب في هذه الخطوات القليلة: هذا الضابط ليس من الشرطة إنما هو من الجيش؛ الأعجب من ذلك أنه ليس زوج ابنتها إنما هو ضابط عنده. ذلك أن ((ملكة)) أصغر بنات البطرانة كان تخرجت وكيلة نيابة، قبل أن يقع في غرامها ضابط كبير من رجال الثورة في الصف الثاني أو ما أشبه ما يقولون. أصله من نواحينا؛ وكان يعرفها وهي طالبة، ويقوم بينهما حب، إستخدم فيه عربات الجيش وحمير أهله في توصيلها والتحويط عليها من أي عدوان خارجي؛ إلى أن تخرجت فتزوجها في مهرجان كبير لم ولن تنساه بلدَتنا أبداً. وقد حاول العريس أن يثني البطرانة عن عزمها؛ يجعلها تترك هذه المهنة وتنتقل معه إلى البندر كي تستريح. غير أنها وضعت أمامه نفس الشرط الذي لا تحيد عنه مطلقاً والذي خضع له كل أزواج بناتها السابقات: أن يتركها في حالها ويضرب صفحاً عن مهنتها؛ لأن الراحة بالنسبة لها تعني الموت النهائي؛ وهي أعرف الناس بنفسها؛ وتعرف أنها لن تستريح في أي مكان في الدنيا سوى دارها هذه الكائنة في شارع داير الناحية.. كذلك لا راحة لها إلا في شغلتها هذه التي تربت عليها وعشقتها؛ وهي قد عاشت عمرها معلمة مسترجلة ولسوف تظل كذلك حتى يتوفاها الله.

وهكذا خضع كل أزواج البنات لشرطها. والعجيب أن هذا الشرط لم يعق أي خطوبة ولم يعطل أي فرح؛ فكأن جميع العرسان قد جاؤوا مستعدين لقبول الشرط، بل إن بعضهم لم يكلفها مشقة طرحه عند الخطوبة. وواقع الأمر أنهم جميعاً - يقول أهل بلدتنا -

أذكياء يؤمنون بالمثل القائل: بركه يا جامع؛ إذ هم في الواقع يتمنون إسقاطها من دماغهم نهائياً.

*** * ***

شكراً لها على كل حال..

هكذا قال أزواج البنات واحداً بعد الآخر. فقد صرفت على بناتها فى المدارس العليا..

و كانت قد نذرت ذلك علي الملأ فى جنازة زوجها موسى البطران، حيث ملست على نعشه قائلة قبل أن تشرع في أي بكاء أو صوات:

- ((الرب لم يرزقني ذكوراً يا موسى ليحموا بناتك! فلأكن أنا هذا الذكر بدلاً منك! ولتكن كل واحدة منهن ذكراً بمعنى الكلمة! تحمي نفسها بنفسها!!

لسوف أصرف عليهن يا موسى حتى لو كلفني تعليمهن جبالاً من الأموال! العلم عزوة من لا عزوة له! وغداً يكون لكل بنت من بناتك عزوتها التي تغنيها عني وعنك وعن كل أبناء آدم وحواء؛ هذا ما نذرته الآن لله! ولسوف يعيننى الرب لأني ما نذرت إلا خيراً وما طلبت إلا سترا! ومنذ متى خيب الله ظنون من رفع إلى السماء يديه؟!)).

وقد حدث.. تمخطرت ملكات الجمال في شوارع بلدتنا قدر ما تمخطرن؛ فكن مجلبة للاحترام أكثر من كثيرين من الرجال. أطرف ما تتناقله الحواديث البطرانية أن جميعهن قد حملن لقب البطرانة مضافاً إليه لقب الست. فإن أنت طلبت البطرانة الكبيرة فعليك أن تحدد ذلك قائلاً؛ خالتي بطرانة. أما إن طلبت إحداهن فعليك أن تقول: الست بطرانة الصغيرة. وأنت في النهاية لن تطلب إحداهن إلا إن كنت تريد مراجعة الحساب أو العدد في بيعة باعتها لك وحدث فيها خطأ. والبطران كانت بذلك راضية وسعيدة، لاعتقادها أن اسم الأنثى عورة لا ينبغي أن يردده الرجال؛ وإنه لمن حسن طالعها أن الرجال من تلقاء أنفسهم كانوا يستحون من ذكر أسماء بناتها..

على أن البنات أنفسهن كن يتحدين أنوثتهن، ولا يشغلن أنفسهن بها، كأن أنوثتهن شيء غير وارد عندهن. وإن تجرأ صفيق وذكرهن بجمالهن رددنه في خشونة لبقة وقارصة، تجعله يعرق خجلا ولا يكررها.

* * *

كان الحفناوي، ومن بعده أولاده، يقومون بتوصيل البنات إلى محطة القطار بالركوبة كل يوم، ليركبن القطار إلى مدرسة البندر الابتدائية والثانوية؛ وينتظرونهن بالركائب عصر كل يوم..

فلما التحقت كبراهن ((فهيمة) بالجامعة في مصر أم الدنيا، اكترت لها أمها سكناً في المدينة الداخلية مثلها مثل بنات علية القوم..

كانت ((فهيمة)) نصف شقراء. فيها شقرة أمها وخمرية أبيها. طويلة كانت كشجرة الجزورين. كل عضو في جسدها فرع نتوء بارز. عينها كانت نصف خضراء، نصف سوداء، لسانها ينطق الراء غيناً؛ فكأنها تتكلم الفرنساوي قبل أن تتعلمه؛ كانت طرية العود؛ رطبة على الدوام؛ طرية اللسان حتى وهي تدخله في أحاسيسك ليقرضها؛ حادة الملامح؛ قوية العينين؛ مفخمة النظرات..

في الإجازة الصيفية لم تكن تتورَّع عن الوقوف في الدكان بلبسها الأفرنجي المحتشم؛ لتساعد أمها في البيع؛ وتوزع وقتها بين المذاكرة والشغل في الدكان. وكانت تسافر في أول العام الدراسي فلا تعود إلا في بدء الإجازة؛ وتسافر لها أمها كل جمعتين مرة. ودائماً كانت أخبار تفوقها تسبقها مؤكدة رضاء الأساتذة عنها..

بفضل ((فهيمة)) أصبح للبطرانة ضيوف كثار من الأفندية الشبان المحترمين مع مندوبين من أسرهم الكبيرة.

لم يكد يمر على التحاقها بالجامعة عامان حتى لحقت بها أختها ((تفيدة)).

ولم تكن ((تفيدة)) بالطويلة ولا بالقصيرة كان سمراء، قمحية. ملامحها صورة طبق الأصل من ملامح أبيها، بما فيها من دقة وحدة. واسعة العينين كعيون البقر. كانت مرة رخيمة الصوت زاعقة النبرة؛ تتحدث مع كل الناس بلسان حلو يستجلب لها الدعاء من كل الناس.. وكان تصلي الفرض بفرضه؛ وتقرأ كل الكتب التي تشتريها أمها للبيع في أوراقها.

ثم لحقت بهما ((فوقية))، التي كانت رفيعة مربوبة، كعود البان. ليس لجسدها ملامح بارزة زاعقة؛ لكنها مع ذلك تثير جوع من يراها. فيها رقة وعطف، ومرح، وإن كان مفحماً لمن لا يفهمه. كانت أجرأ

قليلاً، وأطول لساناً، مما جنبها جرأة المتصافقين. كما كانت نشطة في شغل الدار وفي المذاكرة؛ لا تلجأ للبيع في الدكان إلا حين لا يكون هناك أحد غيرها. وقد فاجأت الجميع حين لبست لبس البندر الأفرنجي فإذا هي أجمل قواماً من الجميع؛ وإذا هي أخطرهن في توزيع الأرق على جميع شبان البلدة وكل من زاملوها في الدراسة. في نطقها للكلام لثغة أختها فهيمة ولكن بصوت أقل طراوة وتمدداً وأكثر رخامة ورنينا.

ثم لحقت بهن ((سوسن))، التي كانت ذات شكل رجولي صرف. صوتها غليظ كصوت الرجال؛ حتى لبسها فيه شبه كبير من لبس الرجال: الجلباب الواسع الكم ، المقفل علي الصدر بدون ياقة، الكاسي حتى الكعبين. كانت خمرية اللون، مستطيلة الوجه، مسمسمة الملامح؛ يكاد ينبت لها شارب، يزيدها إثارة. ليس من دليل أنوثة واضح فيها سوى عينين سوداوين واستعين برموش مشهرة طويلة، وحواجب ثقيلة متسقة. يداها كقطعتين من الحلوى..

لم تكن تتورع؛ بثوبها ذاك الرجولي الغريب؛ عن السير بين الحقول كالصبيان، ممسكة بالكتاب تذاكر فيه؛ دون أن يجرؤ صبي أو شاب على معاكستها. ليس لشراسة فيها؛ إنما لأنه لن يجد من يصغي إليه أو يحفل به، حتى إنه ليستسخف نفسه، فينصرف عنها صاغراً يرد الطرف وهو حسير..

كل من اختلس إليها النظر لهج لنفسه ولغيره بأنها ربما كانت أجمل إخوتها على الإطلاق. بات كل من يلتقي بها على طريق المذاكرة يظهر لها انشغاله الجدي الشديد في المذاكرة، بصورة مبالغ فيها. قد يوهمها أنه غير منتبه إليها؛ لكنه لا بد أن يتتبع أثرها حتى تختفي عن ناظريه، أما الأولاد الذين كانوا يريدون النجاح في المذاكرة حقاً فإنهم كانوا إذا رأوها على طريق حولوا وجهتهم عنه في الحال؛ إدراكاً لوقتهم قبل أن يضيع في الإنشغال بها دون طائل.

وقد لحقت بهن ((لوزة))؛ التي كان وجهها عبارة عن ظل لثلاث تفاحات ناضجات؛ واحدة مكان الجبين، واثنتان تحت العينين فيما يشبه الخدود؛ يمتد بينهما أنف كأنه ظل لهما؛ يشرف على ثغر أعد للابتسام؛ يتفرج دائماً على صفين من اللولي الأبيض. رقبتها طويلة، صدرها عريض ناهد بارز بقبتين صغيرتين؛ يمتد منهما جذع يترفع كلما هبط إلى هضبة العجيزة المختبئة داخل جلباب كالجوال..

كانت ذات كبرياء عجيب؛ يحتمله الجميع ويستلذه؛ لأنه مجرد

مظهر. تنقضه عيناها الواسعتان الباسمتان علي الدوام فى تألق ذكي صاف؛ فيه شيء شبيه بالإستسلام أو اللامبالاة..

الجميع كانوا يسمونها حضرة الضابط؛ لما في مشيتها من رشاقة وجدية، خاصة عندما تلبس ما يسمى بالتاييرات، وتحتضن حقيبة الكراريس، وتمشي عائدة من محطة القطار؛ إذ يفرض عليها كبرياؤها أن تنزل عند مدخل البلدة لتحرجها من أن يراها الرجال راكبة مفشوخة..

هي التي - يقولون - تفوقت على إخوتها في اللعب بعقول الشباب وأحلامهم. وهى التى تلقت أكبر قدر من الخطابات والأغنيات، فلم تحفل بها؛ ولم تعنف أصحابها عليها؛ مما شجع العقلاء على الإقلاع وشجع الحمقى على الاستمرار. كما أنها هي التي تحررت بعض الشيء، فتركت رأسها نصف عارية؛ على الدوام تلف شعرها بشريط عريض، وتتركه شلالات علي ظهرها يخلب لب القوم. كذلك كانت هي الوحيدة التي تبدو خدودها وشفتاها كأنها دهنتهما بالأحمر القاني؛ في حين أنها لم تعرف حتى أين تباع هذه الأشياء.

وأخيراً لحقت بهن ((ملكة)). كانت إسماً على مسمى. كانت شامية صرفة، بعيون مصرية صرفة. شعرها مثل الكهرمان اللامع. وجهها يشبه كأساً بللورياً في قلبه ورد. يحب رائيها أن يتفرج على وجهها كل قطعة على حدة؛ فلا يشبع من بريق العينين المتلهف الحذر؛ ولا من أنفها الدقيق كأصبع الطباشير، ولا من ورد الخدود، ولا من شفتيها الرفيعتين المضمومتين على شيء غامض هو أقرب إلى السخرية أو الخبث اللطيف أو النكتة المتحرجة من الرغبة في الإنطلاق..

الغمازات في صدغيها وذقنها تنقبض وتنفرج كلما شرعت تبتسم؛ إذ هي دائماً في مشروع ابتسام ساحر؛ كأنها تخشى إن هي أطلقت بسمتها ذبحت عقول الناس.

نصفها بياع صرف؛ وهذا ما يغري بها قلوب جدعان البلد. ونصفها الآخر بندري طلابي صرف؛ وهذا ما يغري بها قلوب أبناء المدينة ذوي الأصول الريفية؛ كأنما اجتمعت فيها القرية والمدينة معاً كأنصع ما يكون اتساقاً وامتزاجاً. جدعان القرية الحالمون يتعشمون في الإلتحاق عن طريقها بالمدينة. وشبان المدينة يحلمون عن طريقها بالحنين إلى الريف..

ولقد ضربت الرقم القياسي في اقتتال شبان البلدة بشأنها مع شبان المدينة الذين يزورونها من حين لحين.

فأما ((فهيمة)) - ويا للعجب - فقد عملت معيدة ثم أستاذاً بكلية الهندسة. وقيل إن جمالها كان أخطر من تفوقها الدراسي. فلقد أحبها أستاذها الجهبذ الكبير؛ وتزوجها؛ ثم ما لبث أن أصبح وزيراً للأشغال في حكومة الثورة المباركة.

ولم تكد هي تنشغل بأمور الزواج حتى كانت ((تفيدة)) قد تخرجت وعينت هي الاخرى معيدة فى كلية الطب! ليقع فى هواها أستاذ آخر؛ فيتزوجها.

كان زواجها سبب السعد على الجميع. قيل إن الزوج كان من بين القومسيون الطبي الذي يعالج سيادة الرئيس شخصياً. وقد ضم زوجه إلى عيادته الخارجية المهولة الشهيرة في مصر الجديدة باسم مستشفى الملكة.

وأما ((فوقية)) فقد تخرجت في كلية الآداب وعينت مدرسة للغة الإنجليزية في مدرسة دسوق الثانوية. وكان حكمدار المديرية يسكن في منزلهم المواجه للمدرسة؛ فإذا هي تلحس مخه بسرعة البرق. ظل يراقبها شهوراً طويلة حتى عرف كل شيء عنها وعن أهلها؛ حتى شرط أمها عرفه وابتسم له مرحباً..

وكانت هي وجه السعد عليه، إذ رقي إلى رتبة مدير الأمن في الأقصر؛ فانتقل إلى هناك ليعيش بين السياح.

وأما ((سوسن)) فقد تخرجت في مدرسة الحكيمات؛ وعينت حكيمة في القصر العيني. وكانت ساعد أختها في مستشفى الملكة الخصوصية؛ فكان المرضى يخلطون بينهما..

وقد حدث أن شيخاً سعودياً من شيوخ النفط والمال كان نزيلاً بالمستشفى. فما كاد يشفى من مرضه حتى وقع فريسة لمرض الحب. ولم يمهله الحب طويلاً؛ فتقدم لخطبتها بشروط مغرية جداً؛ أهداها قصراً في حي جاردن سيتي، وسيارة يسمونها البويك، وأرضاً للبناء في زمام بلدتنا، ورصيداً في البنك.

إعتزلت المهنة وانتقلت لتعيش معه في بلدان أوروبا، حيث مكاتب شركاته المتناثرة في أثينا وقبرص ولبنان وباريس ولندن ونيويورك؛ ولديه فوق ذلك شركة ملاحة بحرية؛ وجريدة خاصة به تصدر في السعودية ليدعو على صفحاتها لمنتجاته وأعماله،

ويتصالح بها مع الحكام وأمراء البلاد، ويستجلب لها المحررين من القاهرة.

((لوزة)) هي الوحيدة التي شذت عنهن في أمرين وإن كان حظها لم يقل عن حظهن. فهي لم تكمل تعليمها مثلهن؛ اكتفت بشهادة التوجيهية؛ أو لعلها أرغمت على ذلك بسبب الأمر الثاني الذي اختلفت فيه عن إخواتها. ذلك أنها - دون إخوتها - هي التي وقعت في الغرام، أحبت شاباً من بلدتنا كان يعمل محاميا تحت التمرين؛ وكانت لصالح أحدهم..

لكن الظروف خيبت ظنونهم؛ إذ أن ((خالد حرفوش)) دخل حزب الإتحاد الإشتراكي فنجح فيه بجدارة ثم إذا هو يرتقى ممثلاً للبلدة علي مستوى المركز ثم علي مستوى المحافظة؛ ثم يصبح بين عشية وضحاها عضواً باللجنة المركزية؛ ثم إذا هو يترشح لمجلس الأمة، فيكتسح كل المرشحين لمنافسته. وإن هي إلا سنوات قليلة أخرى حتى أصبح خالد حرفوش وزيراً للعدل..

ويقول بعض الخبثاء أن خالد حرفوش وثب على كرسي الوزارة لا لشيء إلا لكونه حفظ الميثاق وفلسفة الثورة ويحشرهما حشراً في كل خطبه ومقالاته وأشعاره ومرافعاته..

وعندما مات الزعيم عبد الناصر كان خالد حرفوش قد بات صاحب عزبة كبيرة في نواحينا، وصاحب شركات نقل ومكاتب استشارية؛ ثم أعلن انضمامه لحزب مصر مع الرئيس السادات. فلما ألغي الحزب واستبدل بالحزب الوطني صار من أقطابه. ثم إنه اختفى بعد ذلك نهائياً من البلاد. وقيل إنه أصبح يعيش نهائياً في أمريكا، إذ أن له فيها مزارع ومصانع أدوية. وقيل إنه يعمل سمسار أسلحة يوردها للفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين والإيرانيين والسودانيين والليبيين والتشاديين والباكستانيين. فكل هؤلاء في حاجة إلى أسلحة يضربون بها بعضهم بعضاً..

المهم أنه لم يعد يظهر مطلقاً بعد أن كان ملء السمع والبصر. ولقد مات أبوه حلفاوي حرفوش دون أن يحضر هو جنازه. وقيل إنه وكَّل البطرانة في تصفية أملاكه بالبلدة.

وبسببه أصبح يشاع في البلدة أن كل أزواج بنات البطرانة قد سافروا جميعاً إلى بلاد الفرنجة وأقاموا هناك.

*** * ***

البطرانة إذن شخصية خلاف ما كنت أتصور. مع ذلك ظلت مجرد فَسَخانية عجوز بسيطة بساطة كوم السباخ أمام دكانها. ومع كل ما أشيع حول هروب أزواج بناتها وانفضاض المساند من وراء ظهرها؛ ظلت كقطعة حديد معقوفة يفتحون بها أصعب الأقفال. ولطالما بهرت الناس بحل مسائل عجز عن حلها نائب البرلمان. إنها إذن الحقيقة بقدر ما هي خيال. وقد يقع الإنسان في محنة وتضيق به الدنيا فلا تنفرج عنه الأزمات إلا لكونه - فقط - تذكر البطرانة.

هذا ما حدث لعبد الخالق الصردي، التاجر الكبير في بلدة العجوزين، الذي فرضت عليه الحراسة مرتين. ويقال أنه تذكر البطرانة في لحظة ضيق فجاء إليها بسيارته المرسيدس، وتصاحب معها مدة شهر أو أكثر؛ بعدها علمنا أنه قد صار عضواً كبيراً بالحزب الوطني تنشر الجرائد صوره.

وكان لي عم إسمه عبد الله أفندي يكبر أبي بأعوام؛ كانت هذه الحكاية تستثيره ولا يكف عن ذكرها في كل مكان كدليل على اقتراب الساعة - أي يوم القيامة والعياذ بالله - حيث قد غضب الله على القوم فحكم عليهم امرأة.

ولا أحد يدري كيف حصل عمي عبد الله أفندي هذا على لقب الأفندي رغم أنه يعرف القراءة والكتابة فقط وليس يرتدي من زي الأفندي سوى الطربوش مع الجلباب الصوف والعباءة فوقها مكومة على كتفيه. وكان دائما على سفر إلى البلاد والأسواق متاجراً في زبل الحمام. له من هذه التجارة ثروة لا بأس بها، وشهرة تفوق الوصف؛ حتى لقد اشتهر في بلدتنا وكل البلاد باسم الحاج عبد الله أفندي رسمال الحمام. يعمل تحت سيطرته رهط من الرجال السريحة معظمهم من البرلس؛ ينطلقون في شوارع البلاد حاملين الأجولة الفارغة ينادون بلهجة غنائية فيها شجن: رسمال حمام للبيع رسمال حمام للب.. ي.. ي.. ي.. يعْ.. فأنت وغيرك تستوقفه وتعرض عليه ملء قفة من زبل حمامك. يدب الرجل يده فيها يقلب جيداً ويقول: أدي نص افرنك بالصلاة ع النبي! ويدلق الكمية في جواله دون أن يفاصل معك. وأنت تقول لنفسك: النصف افرنك لا بأس به فوق أنك تتخلص من زبل الحمام..

كل ذلك يعود إلى عمي عبد الله أفندي رسمال الحمام في النهاية، ليعبأ في زكائب كبيرة تملأ مندرتنا ويتنقل إليها كبار تجار الأسمدة للمعاينة ودفع الأموال، ليوردوه بدورهم إلى مزارع البطيخ لتسميد الأرض به في سبيل بطيخ كبير مضمون الأحمرار والحلاوة والخشونة. وحينذاك تنتفخ أوداج عمي عبد الله أفندي رسمال

الحمام ويصبح كالديك الشركسي يروح ويجيء في الدار يشخط ويبرطم ويهلفط ويتشدق، بوجهه الذي يشبه صرة النقود الكبيرة؛ فإذا احمر عند الفرح أو الغضب صار كالفرخة المكتفة المحمرة، وتختفي عينه تماماً تحت التجاعيد الكثيرة. وهو معلوف دائماً من نسوانه الكثيرات، إذ أنه مزواج مطلاق يبحث في بطون النساء عن ولد ذكر يخلفه فلا تعطيه البطون سوى المزيد من الإناث؛ فيكتم الحسرة في قعر بطنه لكنه ما يكاد يشم رائحة النكتة أو التهريج حتى يتحول إلى مهزار لا نظير له في الضحك والمسخرة.

لكنه كان دائم السخرية من ذلك المشهد الليلي الذي لا بد أن يحدث كل يوم بين أبي وبين صدقي النشرتاوي أقرب جار لنا..

صدقي النشرتاوي كان جندياً في الجيش أيام هوجة عرابي كما يسميها. وقبل تجنيده كان غناماً، مهنة أبيه الأصلية. فلما أنهى الخدمة في الجهادية وجد نفسه قد ترفه ونسي أمور الأغنام فتركها لأبيه ثم لأولاده؛ وذهب فتعلم الزيانة في البندر؛ ليصبح أقدم حلاق فى بلدتنا؛ ويفتح دكاناً فى شارع داير الناحية؛ مجرد بناء من الطين بباب خشبي يغلق بدرفيل، فيه طاقة يضع فيها حقيبة العدة، وهي جلدية جرباء من نوع المنفاخ؛ فيها مجموعة أمواس ملفوفة في فوطة بيضاء حائلة على الدوام، وصبانة بروة صابون، وفرشاة، وحجر يسن عليه الأمواس، وإبريق معدني صغير به ماء.

غير أن صدقي النشرتاوي نادراً ما يفتح هذا الدكان إلا في فترات محدودة؛ إذ أنه يلف بالحقيبة على زبائنه في دورهم ليأخذ لهم ذقونهم كل بضعة أيام ويسوي لهم شعرهم كل شهر، ويتقاضى الأجر بنظام الميسانية حيث يأخذه محصولا عند كل حصاد. وكان يحلق لعائلتنا كلها مقابل ثلاث كيلات من القمح ومثلها من الذرة والفول كل عام..

بينه وبين أبي صداقة عجيبة وود غريب؛ ولهما الدلال على بعضهما بشكل ليس له مثيل. كان لهما طقس يومي تعرفه البلدة كلها؟ يبدأ بعد منتصف الليل..

فالصدقي النشرتاوي مصطبة أمام داره كما أن لنا مصطبة أمام دارنا تحت شباك مندرتنا. وفي العادة يسهر أبي في المندرة. وفي لحظة معينة يمضي ليقف بباب المندرة؛ يرمى بصره عبر الساحة الكبيرة الخالية؛ حيث تربع النشرتاوي على مصطبته وراح يدخن السيجارة، وبجواره قلة ماء..

يقف أبي مرتدياً الفانلة ذات الأكمام، والسروال الكاسي حتى ركبتيه والحابك على الحزام بدكة ذات شراريب؛ وفوق الفانلة الصديري. ينجعص أبي سانداً ظهره لباب المندرة صائحاً في لهجة بندرية ممطوطة.

- ((وله يا خروووووف!)).

فيرد عليه النشرتاوي من فوق مصطبته من خلال حنك أهتم:

- ((مرحب كبش!))

ثم يجلس أبي على مصطبته في مواجهة النشرتاوي حتى مطلع الفجر؛ يتحاوران على طريقتهما المعتادة: فأبي من حين لحين يفتعل كحة تسقط من تحتها ضرطة مضغمة. حينئذ يجيء صوت النشرتاوي:

- ((أهلا! إنت لسة عايش؟!))

ثم يبعث إليه بقنبلة في شكل ضرطة، كأن الضراط في مخزن لديه يتحكم فيه كيف يشاء ويطلقه وقتماً شاء. وتمر لحظات طويلة من الصمت العميق لا يقطعه سوى نقيق الضفادع وصفير الصراصير. فإذا اشتعلت السيجارة في يد أحدهما انتبه الآخر وأشعل واحدة. وقد يظن أحدهما أن الآخر قد استغرق في النوم؛ فإذا بضراط عال يبعثه النشرتاوي بفصيح العبارة. فينتفض أبي صائحاً على الفور من مقعده البعيد:

- ((إنزل يا خرووف!))

فيرد النشرتاوي:

- ((إقعد يا كبش!))

وهنا يخرج صوت عمي عبد الله أفندي رسمال الحمام، من قاعته المطلة على الساحة، مترنماً بصوت أجش غليظ لا يمت إلى الغناء بصلة:

- ((الكبش قال للخروف راحت عليك يا خروف!))

((تعاكس النجة ليه؟ بالزمة مش مكسوف!))

((قال الخروف للكبش ما فيكشف غير القرون!))

((عامل لي فيها دكر.. وأنت راجل دون!)).

ويكون هذا إيذاناً بانطلاق الضراط من هنا وهناك فيما يشبه أن يكون صيحات الإعجاب والإستحسان..

وكنت أظن أن هذه الأغنية لا هدف منها سوى السخرية من هذه العلاقة الغريبة القائمة بين هذين العجوزين؛ ولكن سرعان ما اتضح لي أن أخي عيسوي لديه معلومات عجيبة وراء تأليف عمي عبد الله أفندي رسمال الحمام لهذا الموال الهازل. وقد حكاها لي ذات ليلة بصريح العبارة، على إيقاع كحة أبي وضراطه فوق المصطبة الخارجية..

قال أخي عيسوي أن أبي وصدقي النشرتاوي يتنافسان في حب البطرانة شخصياً، على الفوز بقلبها واهتمامها؛ وأن النشرتاوي يبعث بضراطه العالي كرسالة الي البطرانة فى عمق الليل، كى تفهم أنه صاحب هذا الضراط القوي فصحته تبعاً لذلك قوية جبارة.

وقد أكد أخي عيسوي أنه ضبط أبي والنشرتاوي أكثر من مرة أثناء الحلاقة يتحدثان بشهية فائقة عن المفاتن المكنونة في جسد البطرانة العبقري؛ كان كلامهما يوحي للآخر أنه رأى جسدها عارياً وتذوقه جيداً حتى يتكلم عنه هكذا.. وهذا هو السر في أن أبي يستمتع بوقت حلاقة ذقنه؛ كما يستمتع النشرتاوي؛ لأنهما متى انفردا ببعضهما برح بهما الشوق للحديث عن أحضان البطرانة الدافئة. والحديث بينهما حميم كأنهما يمارسان الجنس في بعضهما البعض، لدرجة أنهما يغلقان الباب ويندمجان فلا يشعرا بأي شيء حولهما. ولقد بات كل منهما يراقب الآخر ويطمئن على وجوده كل ليلة، توقعاً منه لأن يكون قد سبقه وتزوج من البطرانة.

* * *

ما كدت أنتبه لهذه العلاقة العجيبة الغريبة بين هذين العجوزين، حتى بدأت المفاجآت تترى.

بعد أيام قليلة إكتشف أخي عيسوي شقا نافذاً في أسفل الجدار الخلفي للمندرة فى ركن ركين، لا يكاد يظهر منه سوى ثقب صغير قابل للإتساع بمجرد اللمس، ومختف تحت أرجل كنبة عتيقة. وكان من المعروف لنا جميعاً أن هناك شرخاً متعرجاً على هذا الجدار

صاعداً من أسفل إلى أعلى نحو السقف؛ فسره أبي وأعمامي بأنه شرخ في الغفق بعيد عن صلب الجدار..

ولكن أخي عيسوي حين دخل بكل جسمه تحت الكنبة باحثاً عن البراية التي وقعت منه، ارتد صارخاً وهو ينتفض؛ ثم أزاح الكنبة قائلا إن البراية كانت وصلت إلى أطراف أصابعه لكنها انزلقت وطارت واختفت إثر حركة انتفاضة قوية صدرت عن هذا الثقب في هذا الركن، تبعها فحيح أنفاس ساخنة لامست أنامله. وأخذ يشير لنا نحو الثقب في أسفل الركن. جعلنا ننظر فيه ونحن ننتفض؛ فوجدنا أن الأرض تحته رخوة مبرككة.

قال أخي عيسوي إن هذا الشق هو بيت الثعبان المعتق الذي يعيش علي أفراخ الحمام في أبراجها فوق سطح هذه المندرة، إذ أن البرج فوق هذا الركن مباشرة؛ ولا بد أن الثعبان العجوز القوي من أكل الحمام قد ثقب لنفسه طريقاً داخل الجدار والسقف ينفذ منه الي بناني البرج...

وجاءت عمتي تجري حاملة قصعة مليئة بالطين؛ صارت تأخذ منها بالحفان وترمي في فتحة الثقب تسدها؛ فكان الطين يرتد بعد برهة متناثراً؛ ورأينا ذيل الثعبان بالفعل، أسود تخيناً على طبقة من الشعر، ما لبث حتى اختفي. عمتي راحت تحشر خرقاً بالية في الثقب وتليس فوقها بالطين المخلوط بالتراب حتى سدته تماماً سداً محكماً، وقالت كأنها تداري خوفها: ((إنه لا يؤذي أحداً ليكن في علمكم! لا يؤذي إلا من يحاول إيذاءه!!))؛ ثم أعادت الكنبة إلى وضعها. واضحاً أنها لم تفاجأ بهذا الثقب ولا بوجود الثعبان؛ لكنها أوصتنا بعدم فتح هذه السيرة حتى لا يرتعب الرجال وهم جلوس في المندرة. فسخر منها أخي عيسوي قائلاً إنه سوف يسكت حتى يهجم الثعبان على أحدهم فيقتله ثم بعد ذلك يتكلم. ونهرته عمتي وقالت إن الطريق الوحيد للخلاص من هذا الثعبان المعتق هو أن نهدم فوقه الدار كلها ونبنيها من جديد. فقال لها أخي عيسوي: بل الأفضل أن نهدم أمخاخنا ونستبدلها بأمخاخ أخرى.. ثم جمع كراريسه ومضى ليذاكر في مكان آخر؛ فتبعته مشياً على أطراف أصابعي، وقد داخلني شعور غامض بأن الأمن لن يعود لي في هذه الدار بعد الأن مطلقاً..

وكان هذا الأمر كفيلاً بأن يشغلني لولا أن أشياء أكثر غرابة كانت قد بدأت تحدث في دارنا..

لاحظت أن زيارة النشرتاوي لأبي قد تزايدت، وبدون حقيبة

الحلاقة. فكنت أراني مدفوعاً للتلصص عليهما بشغف كبير. فلم أكن أسمع شيئاً مفهوماً؛ ولكنني كنت أرى ملامحهما تتوتر وتنقبض؛ وأحياناً يندمجا في ضحكة ماجنة تتقاطر منها المرارة؛ وأحياناً يحتدان على بعضهما حتى ليوشك كل منهما أن يطبق في خناق الآخر؛ إلا أن الحدة تنتهي بتشويحة هنا أو تلويحة هناك؛ يصمتان بعدها في توتر واضح. وأبي يقطع الصمت من حين لآخر ممصمصاً بشفتيه في استعجاب، مصفقاً كفاً على كف مردداً. أما دى عجيبة والله!

اقترنت هذه الظاهرة باختفاء عمي عبد الله أفندي رسمال الحمام منذ بضعة أيام حتى ظننت أنه مسافر كالعادة. غير أن أبي قد بدأ هو الآخر يكثر من الغياب خارج الدار. أما نسوان الدار فكن يتجمعن في الحوش ويبدو بينهن الود على غير العادة، فيكثرن من الودودة والتشويح والتلويح والولولة الصامتة؛ ما أشعرني أن شيئاً غريباً، بل غريباً جداً يحدث فى دارنا.

* * *

و ذات مغربية شاحبه مختنقة الأصيل كثيرة السحب عظيمة الكآبة؛ فوجئنا بصخب وصياح في الساحة الكبيرة أمام دارنا.. فاندفعنا كلنا نجري تجاهها..

فإذا بعمي عبد الله أفندي رسمال الحمام مرتدياً ثيابه الفخيمة، حليق الذقن مجلو الأطراف؛ يحيط به رهط من صبيان الحارة وشبانها الصغار؛ يقودهم أبي بنفسه، وهو يصفق بيديه مردداً كالأطفال:

- ((العريس أهه.. أهه! العريس أهه.. أههه!))

والأطفال يردون عليه في بهجة وحماس شديدين ومن خلفهم وقف النشرتاوي يرقب ذلك المهرجان ويطبق شفتيه على ابتسامة مريرة حادقة تخشى أن تعلن تشفيها..

أما عمي عبد الله أفندي رسمال الحمام فإنه ينكس رأسه في خجل حقيقي، يعتقل ابتسامة شاحبة بين شفتيه، فيما هو يخطو نحو مندرتنا، كمن ضاعت كل ثروته في السوق الخوان. لحظتئذ، فهمت على الفور أن عمي عبد الله أفندي رسمال الحمام قد تزوج من البطرانة. ونظرته يدخل مندرتنا وينحط جالساً كالفتاة التي فقدت عذريتها واستسلمت للفضيحة. كان على وشك البكاء يردد عبارة واحدة؛ عندكم حق! عندكم حق! أنا أستاهل كل اللي يجري لي!..

أسرع أبي فأغلق الباب الذي يوصل المندرة بالدار، وكذلك أغلق باب المندرة المطل على الشارع؛ وعند اقترابه من عمي كان النشرتاوي يقترب هو الآخر نحو عمي من الجهة الثانية؛ فبدأ كأنهما سيحاصرانه بعنف، بل خيل لى أنهما سيقتلانه في الحال خنقاً. لكنهما اكتفيا بالوقوف الصامت المنذهل المتوجس، الساخر مع ذلك. ورأيت عمي عبد الله أفندي رسمال الحمام يولول كالنساء قائلاً فيما يشبه الهذيان:

- ((كتبت لها نصف الدار مهراً!))

شخر أبي قائلاً في سوقية مذهلة.

- ((إن.. زل!!))

وقال النشرتاوي في معجبانية:

- ((ظننتك أخذت مهراً يا رطل!))

وكان من الواضح أن عمي يكلم نفسه:

- ((لم آخذ غير البعبوص المشفى! إنه إبليس عليه اللعنة! أضاعني! أضا.. ع.. ني!))

ولكزه النشرتاوي في كتفه صائحاً:

- ((لكن ما رأيك في البضاعة! البضاعة أهم شيء! هل ذقت اللحم؟!))

نظر له عمي كأنه يسترحمه، ثم زفر، وبدا كأنه يريد أن يشق الهدوم من شدة الضيق؛ والعرق يتصبب على جبينه بغزارة شديدة. ثم شوح بذراعيه مستعيداً شيئاً ضئيلاً من سطوته طالباً أن يوسعوا له؛ وتمدد فوق الكنبة على ظهره وقد راح صدره يعلو ويهبط. وقال أبي وقد بدا أنه استشعر شيئاً من الخوف الغامض علي عمي:

- ((عيب عليك يا رجل أن تتزوج دون علمنا! على الأقل كنا نصبح عليكما!))

وكانت الغربة قد بدأت تظهر في عيني عمي عبد الله أفندي رسمال الحمام، فكأن العين لا تتعرف على شيء مما حولها، لكنها كانت ترواح وتجيء مع لسانه كبندول الساعة:

- ((صبـ.. ا.. حيـ.. سو.. د.. ا.. ء!! فتـ.. شـ.. ت كل شيء! فتشت دارها كلها! لم أجد أي شيء! أي شيء! لا شيء في دارها! لم.. تكن!! فلوسها!.. كانت.. فلوس الناس.. و.. أخذوها!!))

ثم صمت يلتقط أنفاسه. وقال النشرتاوي:

- ((المهم ما رأيك في البضاعة؟!))

وجلس أبي على حرف الكنبة وقد ظهر عليه القلق على حالة عمي، فبدأ يمد يده ويتحسس بها صدره، لكنه قال بيأس:

- (روما العمل الآن يا ترى؟!))

فتح عمي عينيه، وهز أصبعه في وهن، مردداً:

- ((لن.. أعود.. إليها.. رميت عليها يمين الطلاق!)).

- ((وهل يصح منك هذا يا رجل؟ تتزوج القرد من أجل ماله! فلما تجده مجرد قرد بلا مال.. تطلقه؟!)).

هكذا قال النشرتاوي؛ وأمّن أبي على قوله بهزة من رأسه فإذا بعمي يهز أصبعه ثانية ويتأتيء:

- ((أبداً. أبداً.. طلقتها لأنني. عثرت على شهادة ميلادها. لقد. لقد.. إ.. إ.. إتضح لي أ. أنها.. يـ. يـ. يهـ.. يهو)).

فانحط على الجميع صمت رهيب، كأن سقف المندرة قد وقع فوقنا.. حتى أن النشرتاوي لم يحتمل الوقوف فهبط جالساً على قرافيصه، سانداً رأسه بيديه. أما أبي فإنه جمد على وضعه شارد النظرات كأنه انسخط. وأما عمي عبد الله أفندي رسمال الحمام فإنه قد أغلق عينيه ورمى برأسه علي جنبها وبدا كأنه استراح الي الأبد..

ورغم أنني كنت أشعر أن أمراً جللاً قد حدث الآن لتوه سوف تنقلب له الحال في دارنا رأساً على عقب؛ فإن عيني كانت قد تعلقت بالشرخ الماثل في الحائط، واللياسة التي حبشتها عمتي قد تشققت، وظهر الشق من جديد.

ديك الجن

من يوم ما جاء بي المقاول من بلدتنا في آخر الصعيد الجواني لكي أحرس له عدة شغله التي يتركها هاهنا، لم أنزل إلى هذه المدينة التي كانت فرحتي بالشغل من أجل رؤيتها. لم أر من هذه المسماة بمصر سوى هذا الشارع الطويل المسمى بصلاح سالم، حيث تصطف المقابر والجيشان على جانبه الملاصق لجبل المقطم، وفي الجانب المقابل شريط ما يسمى بالمترو، وإدارة قيل لي إنها تسمى بالأمن المركزي، ولا شيء غير ذلك سوى الوحشة والليل الغويط. من حسن حظي – فيما يقول لي الفواعلية من بلدياتى المقيمين هنا من سنين طويلة - أننى جئت بعد مدة طويلة من شق هذا الشارع الطويل الذي أطلقوا عليه اسم صلاح سالم، الذي قيل لي إنه من رجال الثورة، ولكن لم يقولوا لي ما هذه الثورة وما عملها وفي أي مكان تكون؛ وقالوا أنني لو جئت قبل ذلك لما قدر لي أن أستمر في العمل ليلة ثانية بل ما قدر لي مواصلة الحياة أصلاً؛ إذ أن هذه المساحة الخالية التي يبني فيها المقاول صفاً من العمائر والدكاكين فوق أرض انتزعها من جسد المدفونين فيها، كانت مقابلة لبقعة اسمها ((قطع المرة!)). هو عبارة عن سرداب ضيق متعرج تحفه المقابر من كل ناحية ويغرق في ظلام دائم ويبعث على الخوف والرعب المشبع برائحة الرطوبة ورائحة الجثث المتعفنة ليل نهار؛ مليء بالحفر العميقة الخادعة والأرض الرخوة التي إن داسها غريب هبطت به إلى ((فساقي)) وجحور مليئة بالثعابين وأطفال الذئاب والثعالب وقطاع الطرق. سُمَّيَ ((قطع المرة!))، لأن أي شخص يجرؤ على المشي فيه بعد آذان المغرب مباشرة لا بد أن يتحول إلى امرأة، من فرط ما سيلقاه ويتعرض له من مفاجآت واعتداءات ومخاز. مع ذلك فإنه الممر الوحيد الذي يسلكه أهل منطقة قايتباي وهم عدد كبير جداً من الناس شغلتهم طربية وحريرية ومطبعجية وقهوجية وغرزجية وبلطجية ومخزنجية للمخدرات. منهم من يعمل في قلب مصر ولا بد أن ينزل إلى شغله كل يوم ويعود إلى بيته كل مساء؛ والنزول إلى المدينة قائم على الأقل من أجل تموين المؤن؛ ولهذا تعوَّد القادمون إلى هذه المنطقة من أهلها أن يتجمعوا في نهاية شارع الأزهر على جبل الدراسة لكي يعودوا معاً في جماعة تونِّس بعضها بعضاً. أحياناً – يقول الولد

بلدياتي – كانوا يلتقون في نهاية السهرة بعائد منفرد يتملكه الرعب على مقربة من مدخل الدرب لا يجرؤ على الدخول؛ فيقاولونه على أجر مقابل توصيله حتى باب منزله فيعطيهم الأجر بدون لكاعة وفوقه بوسة من رش السجائر، حامداً الله أنهم ليسوا قطاع طرق ولم يتعرضوا له بالأذى في الطريق..

بلدياتي هؤلاء لم يشعروا أنهم حسروني على ضياع هذا الممر السحري، الذي كان كفيلاً بإسعادي، وكنت قميناً بأن أحوله إلى مملكة خاصة بي؛ أما مسألة ((قطع المرة!)) هذه فقد أثارت خيالي وأصبحت تهيجني وتشد أعصابي كلما سمعتها. وهذا هو السبب في أنني أصبحت مغرماً بالسير ليلاً في المنطقة التي تبقت من ذلك الممر..

ورغم أن الطريق المرصوف قد أضاء بعواميد نوره كل أنحاء المقابر، ونشر ضوءه بين الحنايا والمنعطفات؛ فإنه لم يمنع الوحشة ولم يجيء بشيء من الأنس. وإنني لأقضي الليالي كلها ساهراً، والسكين مربوط على ساقي، والشومة في يدي؛ فلا أرى غير سيارات تمرق منطلقة بسرعة، وأشباح ناس يدخلون ويخرجون من حي المقابر الذي يتجاور فيه الأحياء مع الأموات في حجرة نوم واحدة وربما على سرير واحد، وكنت في قرارة نفسي أعرف أن هذا المقاول وضعني هاهنا كرمز لوجود حارس لا أزيد ولا أقل، معتمداً على شهرته بأنه قوي الشكيمة نافذ على رجال الحكومة من كبيرهم لصغيرهم ويكاد لولا ذوقه يأمرهم وينهيهم؛ كما أن معداته ثقيلة ومعظمها راسخ في الأرض ليس من السهولة نقلها إلا بقوة عصابة كبيرة مزودة بشيء من الأسلحة والسيارات. أما مواد البناء من طوب وأسمنت فموضوعة في مخازن مغلقة بالضبة والمفتاح..

كان الليل يكاد يقتلني مع أن وجودي لا لزوم له. لكن الله بعث لي بتسلية بديعة. كان أحد الفواعلية يقضي حاجته في حنية من حنايا المقابر فعثر بين القمامة على كيس من القماش ممتليء بقطع الحشيش والأفيون الملفوفة في ورق السوليفان؛ فجاءني بها يرتجف طالباً مني إخفاءها حتر آخر النهار مقابل الحق في جزء منها. فزعمت له أنها تخص تاجراً أعرفه، وعينت له إسماً وهمياً ادعيت بأنه جاء يسألني عنها، وأنه تعوَّد أن يرميها بين القمامة ويجلس على المقهى للتمويه فلا يعود إليها إلا ليأخذ قطعة منها لمشتر. واستبحت لنفسي أن أفتحها وأعطيه ثلاث قطع على سبيل الحلوان الذي سأقنع به صاحبها؛ فقبل الفواعلي على ذلك عن طيب خاطر. ومن يومها وأنا أنعم بالإنسطال العميق وروقان الأفيون كل ليلة.. تسخن دمائي؛ أروح أتمعن صور الراقصات والممثلات العاريات التي

نزعتها من مجلات يتركها المهندسون، وعلقتها على حائط هذا الكوخ الذي بني لي خصيصاً على مقربة من الشغل ظهره للصحراء ووجهه في اتجاه المقابر. كثيراً ما تمددت دافناً نفسي في الرمل مطلقاً خيالي يحوم ويتلكأ في سرداب قطع المرة؛ ليعيده من جديد فيضع فيه امرأة ضالة تقع في يدي لأدخل بها بكل جسارة – أي حفرة من حفره أو فسقية من فساقيه؛ لأنفض فوق نهودها كل هذا العذاب الذي يأكلني، ويتجدد أكلانه صباح كل يوم، حين تدلق السيارات علينا طوائف من فتيات كاعبات ونساء يشبهن كوز العسل، جئن بصحبة شبان خرعين أو عجائز مكحكحين أو بمفردهن لكي يتفرجن على الشقق المحجوزة بأسمائهن في هذه العمائر؛ فأسارع أنا باقتيادهن إلى الطوابق، أريهن الشقق. هن يتعاملن معي بود كبير، يغمزنني بالبقشيش الدسم، يخطرن أمامي كالأوز من حجرة إلى حجرة، ليطلن الوقوف في المطبخ والحمام يتخيلن أوضاعها بعد تشطيبها، يتحركن بكل حرية فتتكشف لي أفخاذ وأرداف وأثداء ومؤخرات مبرومة مقلوظة يطير لها مخي. أما حين ينظرن لي بعيونهن الواسعة المتقدة فحينئذ يخيل لي أنهن بنات الجن والشياطين يطلعن لي في هذه الأوقات من الضحى إلى العصر ثم يختفين مخلفات في نفسي لواعج وخواطر توسوس في رأسي بأنهن لا يمكن أن يكن من بنات الإنس وإلا فإنهن من طينة غير طينة أهلي وعشيرتي في بلدتي.. تضمحل صورهن في أوائل الليل، ويستقر اليقين بأنهن محض جنيات طيبات جئن يعابثنني ويتسللن بي وقتاً ينصرفن بعده؛ لكنهن في عمق الليل يستيقظن بمجرد ما يسري روقان الأفيونة في عروقي وتشعشع في دماغي أنفاس الحشيش؛ فأروح أضاجع من تعجبني فيهن فلا يسعفني الخيال إلا لدقائق قليلة أستريح بعدها قليلاً ليتأكد لي أنني لم أضاجع في الخيال سوى بنات الجن، فيغلبني النعاس فلا أصبحو إلا قرب الضحى؛ لأراهن أمامي في ملابس جديدة وأشكال جديدة يسألنني عن المقاول، عن مواعيد التشطيب، عن أشياء كثيرة لا أعرف لها جواباً، لكن الأمر ينتهي دائماً بالصعود إلى الطوابق والتجوال بين الشقق وبين جحيم المؤخرات المفلوقة علناً تحت ثياب خفيفة سائبة، والأثداء النافرة مع كل انحناءة معاينة، والأرداف المنسابة والبطون التي تتماوج في المشي بين الطوب والحصى.

إلى أن جاءت تلك الليلة الموعودة التي لا تريد أن تنمحي أبداً. كنت مندمجاً في التحشيش مستحضراً إحدى بنات الجن في ضوء اللمبة الصاروخ ذات الشعلة بغير زجاجة، شربت وحدي ربع قرش محترم، وأفينت بقطعة كالحمصة؛ ثم خرجت أشم هواء الدراسة في ضوء القمر الفضي؛ فإذا بي أرى مبنى إدارة الأمن المركزي

ملفوفاً بعناقيد من اللمبات الكهربائية الملونة، وضجيج من موسيقى وغناء يتصاعد من فناء المبنى في مكبرات صوت. قلت لعله فرح واحد من الضباط مثلاً، وأن الفرجة عليه لا شك مباحة وممتعة فلربما رأيت راقصة حية بدلاً من تلك التي تتسمَّر على الجدار في تصويرة باهتة. إقتنعت بضرورة الفرجة حينما لاح لي أن كثيراً من الولاد والشبان المماثلين لي في السن يتسلقون سور المبنى كأبراج المراقبة ليتفرجوا. وهكذا مضيت نحو السور في اتجاه حي الدراسة، حيث كان دكاكينه ومقاهيه ساهرة على بعد قريب، ومحطة الأتوبيسات المتاخمة للمبنى تملأ الساحة بعشرات الأتوبيسات ومئات من الركاب والمنتظرين. فلما اقتربت منهم تنبهت إلى أننا لا نزال في أول الليل؛ ثم اخترت زاوية من السور بعيدة عن أضواء الشارع وقريبة من الطبلية العالية التي تدور فوقها نمر الحفل؛ فما رأيت سوى رجال يخطبون ويوزعون الجوائز ومن حولهم جمع كبير ومهرجان. يقيت أنتظر استئناف الغناء حتى يئست؛ وكنت أهم بالنزول والعودة إلى الكوخ حينما لفت نظري وجود فتاة جميلة جداً، من نفس فصيلة بنات الجن اللائي يزرنني ضحى كل يوم وفي أعينهن لهفة شديدة غامضة. كانت ترتدي ثوباً محزقاً يظهر من خلاله صدرها وكتفاها بالذراعين وساقاها حتى ما فوق الركبة بكثير، شعرها منطرح على ظهرها بمقدمة عالية فوق الجبين، وتلوك في فمها قطعة من اللادن لا تني تفرقع، يتصاعد منها عطر شهي..

إستدرت فوق السور، جعلت أتفرج على جسدها الناعم الطري المتألق، جعلتها شغلي الشاغل. كانت واقفة تحت السور مباشرة حيث لا محطة، مما أكد لي أنها تنتظر شخصاً ما. تستدير من حين لآخر نحو السور ناظرة إلى؛ فأرى على وجهها شيئاً من الغلب والشقاء متخفياً تحت البوية الحمراء والبيضاء التى دهنت بها وجهها، إنها إذن من بنات الإنس مثلنا لأن بنات الجن لا يضعن على وجوههن شيئاً من هذا إذ أنه موجود لوحده فيها. وجهها كان مألوفاً لي كأنني أعرفها شخصياً وتعرفني شخصياً. شفت أنني يمكن أن أكلمها بسهولة. ومثلما لم أعرف لماذا كنت أهرب خجلاً من نظرات بنات الجن؛ لم أعرف لماذا صرت أبحلق في هذه الفتاة بقوة وإلحاح. شيء فيها يقنعني أنها ستكون رهن إشارتي؛ حينئذ تراءى لي الكوخ بأرضيته الرملية وفوقها الحصيرة والمخدة والبطانية..

رأيت ألا أضيع الوقت؛ قلت لها:

- (مساء الخير يا مزمزيل!))

نظرت هي إلى أعلى باسمة في بساطة قائلة:

- ((مساء النور!))

- ((يلزمش أي خدمة؟!))

هكذا قلت وأنا أهبط عن السور في قفزة واحدة، واقفاً أمامها. قالت دون أن تتراجع أو تختلج:

- ((كتر خيرك! ألف شكر!))

- ((وقفتك طالت! ظننت أنك بحاجة لشيء!))

اتسعت ابتسامتها؛ أشرق وجهها ولم يبد عليها أي ضجر أو استرابة. قالت:

- ((عدم المؤخذة! أنتظر ولد عمي! سنشتري بعض الطلبات!))

بان لي من صوتها وطريقة كلامها أنها من أصل صعيدي مثلي؛ لكن عقلي المفتح قال لي: هي تدعي أنها صعيدية مثلك لكي تختشي على دمك وتتركها في حالها. إنسحبت؛ وقفت من خلفها بعيداً، أرقبها في شغف وفي نيتي أن لا أدعها تفلت مني. وكانت أم كلثوم تردح في راديو المقهى في ساحة المحطة قائلة: خدني لحنانك خدني بعيد بعيد وحدينا؛ فصرت أتمنى لو أنها هي التي أخذتني بعيداً وحدنا. لم أكد أذهب مع أم كلثوم إلى نهاية السور حتى رأيت شاباً متأنقاً، طويل القامة أشقر الوجه مستطيله بشعر ملون قصير مفروق من المنتصف وعين ملونة كذلك؛ يرتدي القميص مع السروال، وسترة من الكتان البني أنيقة جداً، يتأبط كتاباً مجلداً ضخماً، ويمضي في حماسة شديدة ماراً من أمامي. لما وقعت عينه على الفتاة أشرق وجهه وابتسم في سعادة كبيرة ثم انعطف عليها فتحركت نحوه سلمت عليه قائلة:

- (كلمتك في المكتب منذ دقائق من تليفون كشك السجائر هذا!))

قال وهو يعطيها ذراعه:

- ((نزلت من حوالي ساعة! لم يوخرني سوى الكتاب؛ رأيته على سور الأزبكية وأنا وفي الأتوبيس! فنزلت مسرعاً وأخذت أفاصل مع البائع نصف ساعة! إشتريته بآخر نقود معي! إنه كتاب مهم كنت أحلم بقراءته منذ سنوات طويلة فالحمد لله أن جاءني!)).

لكزته في احتجاج غاضب:

- ((كلما قابلتك رأيتك تحمل كتاباً! ألا تزهق من الكتب؟! تضيع نقودك وبصرك! كان الأولى بك أن تدخر المبلغ لنصرفه!))

- ((تتكلمين مثل أمى! والله كان في نيتي أن ندخل السينما لكن المبلغ لم يكن يكفي تذكرتين فقلت خسارة بخسارة يا ولد هات الكتاب أحسن! ولو تركته كنت سأندم طول حياتي!))

- ((أهو قصة حب؟!))

- ((إنه كتاب ألف ليلة وليلة الذي منعته الحكومة من التداول!)).

- ((إذن فأعره إلى بعد أن تقرأه!))

- ((أنت لا تجيدين القراءة!)).

- ((سأفهم على قدي!))

ومضيا معاً. فمضيت خلفهما وقد تأكدت أنهما ليسا يمتان لبعضهما بصلة قربى، هي ليست صعيدية ولا هو، مصراويان صرف، مضيت خلفهما دون أن يشعرا بي. مضى بها إلى شارع صلاح سالم في اتجاه القلعة. رأيته ينعطف بها نحو مقابر المجاورين؛ ثم اختفيا لحقت بهما لاهثاً. كانا قد استترا بالظلام الخفيف المتراكم بين الأحواش. فداريت نفسي وصرت أختلس النظر. رأيتهما يهبطان في حفرة عميقة في الأرض ابتلعتهما حتى لم يعد يظهر منهما سوء ظل من شعر الرأسين، قفزت مندفعاً نحو الحفرة دون أن يصدر عني صوت؛ جعلت أتلفت حوالي قبل أهجم عليهما فلعل وراءهما حراساً مجهولين لحماية ظهريهما. أيقنت أنه ليس كل من أمسك بالكتاب مفتحاً ومتودكاً؛ فمن غشومية صاحبنا واندفاعه لقضاء وطره بسرعة، أنه لم ينتبه إلى أن الحفرة في دروة حقاً لكنها مكشوفة تماماً لأي ماش على طريق صلاح سالم المرتفع جداً فوق سطح المقابر، بل اتضح لي أنني لو كان هدفي الفرجة فحسب فإنني أقف على رصيف الطريق المحاذي لأتمكن من رؤية كل ما يدور في الحفرة بل أرى عمق الحفرة من الداخل خاصة إذا كان القمر ساطعاً كهذه الليلة؛ لكن ما إلى هذا قصدت بالطبع..

في البداية ظلا واقفين لبرهة طويلة يضحكان في غبطة ونزق وخوف؛ ثم ما لبثا حتى اندمجا في قبلات وأحضان ترنحت بهما فمالا على الأرض في هبوط متقن؛ فيما تتقدم خطواتي بأنفاس

محبوسة. إذا به يعتدل قاعداً فيخلع سترته الكتانية فيفرشها على الأرض ويجعل من الكتاب على هيئة مخدة، ثم يخلع سرواله الخارجي فيضعه فوق الكتاب؛ ثم سرواله الداخلي؛ ثم ضجع الفتاة، ومد يديه فخلع سروالها الداخلي الذي بدا في يديه كمنديل حريري صغير؛ ثم رفع ساقيها فانحسر الثوب عنهما فرسم القمر خيالهما على الأرض ضخما مثيرا للجنون. هنا قفزت داخل الحفرة كالفهد فصرت فوق رأسيهما وكان هو يتأهب للإنقضاض عليها. انتفض الولد تحت رجة الأرض، إرتد جالساً على حقويه، وأطلقت هي صرخة مكتومة فزعة وهي تعتدل ضامة ساقيها مدارية إياهما بيديها. ألهمني الشيطان فاختطفت السراويل بسرعة وجريت فرميت بها في مكان خفي ثم عدت إليهما لأجدهما في حال من الذهول والخذلان. صارت هي تنظر في وجهي قائلة؛

- ((أنت؟!))

إلتقط هو أنفاسه بصعوبة؛ همس في تشكك واستراب:

- ((تعرفينه؟!)

- ((كان يعاكسني وأنا واقفة في انتظارك!))

تدلى مثل خرقة بالية؛ قال:

– ((اسمع يا جدع أنت! هذه زوجتي! والمشكلة أننا لا نجد مكاناً! فخل عندك بعض الذوق وهات الهدوم فنمضي لحالنا!)).

قلت:

- ((حلو! أنا عندي المكان! أنت والهانم ضيفان عندي هذه الليلة! مكان آمن نظيف! فيه شاي وسكر وحشيش!))

الولد كاد يوافق؛ نظر إليها كأنه يطلب موافقتها، فازورت عنه منكمشة ترتجف،فقال:

- ((هات الهدوم! ونذهب معك!))

قلت:

- ((سأعطيك السروال الخارجي فحسب! ويبقى معي الباقي طوال الطريق حتى هذه السترة وهذا الكتاب وفي البيت...))

استدار بغضب واتجه خارجاً للبحث عن الهدوم؛ فمنعته بيدي؛ نطر يدي بشدة فارتدت بعنف فصفعتني في عيني؛ طار منهما الشرر، فشيعت له بونية في وجه أودعتها كل غيظي. ترنح، صار يتباعد مناوراً كالمصارع. إنقضضت عليه، تملص ثم طوقني بذراعيه، وكان صلباً قوياً على عكس ما توقعت، لكن على من؟ صرت أنفض نفسي فأرفعه كله وأنزل به، حتى تمكنت من طرحه أرضاً فبركت فوقه فصار يزحف نحو عمق الحفرة فيما يشيع لي الضربات بقبضتيه وبرأسه فأشيع له مثلها؛ فلما كدنا نختنق في قاع الحفرة قمت من فوقه وجررته من شعره وصار يضربني بالركبة والرأس في قوة، وقد تغيرت ملامحنا وانغمرت هيئتنا بالتراب الناعم الرطيب..

وفيما كنت أتلقى ضرباته رأيت خيال كاب مستدير مضلع يزحف على الأرض برقبة سوداء سرحة، فخيل لي أنه شاهد مقبرة فزلزلني الرعب من زحفه المستمر، الذي ما لبث حتى اكتمل في هيكل جسد أسود كالوطواط مجسد في ضوء القمر، متقمطاً بالسترة المحزقة تحت حزام عريض، وعصا التأديب تتدلى من الجزام. لبره وجيزة غامت عيني؛ فلما فتحتهما وجدت الشرطي يقف أمامي بلحمه ودمه. صار ينقل البصر بيننا وبين هذه التي لا تزال متكورة على نفسها تولول بأسى فاجع مرددة؛ استر يا رب! استر يا رب!..

شعرت بقليل من الراحة؛ لكن جوعاً أبدياً كافراً كانت تفح به عينا الشرطي، الذي راح يردد في زراية واستهجان لا يخلوان من هزل مبتهج (الله الله! ما شاء الله! ما شاء الله)). ثم كتفها في حنو، ثم سألها بلهجة حاول أن يجعلها تبدو قانونية؛

- (اسمك إيه يا شاطرة؟! إيه حكاية الولدين الصايعين دول معاكي؟!))

فباعدت وجهها عنه مدارية عينيها بيديها مندمجة في البكاء؛ فأخذها في حضنه؟ فإذا بها تستكن فيه؛ فإذا هو يقبلها في شعرها، ثم في جبينها، ثم في شفتيها، ثم لا يدري بنفسه إلا وقد انطرح فوقها كالديك الشركسي الحامي، كالثور الهائج؛ وصارت يده اليسرى تفك أزرار سرواله في الهاث فيما يده اليمنى تحيط بجسدها.

أكلني الغيظ، وصار الولد يفلفص مني ليجري إليه لكنني صرت من شدة الغيظ أضرب فيه صار من شدة الغيظ يضرب في، صرنا نمزق في لحم بعضنا بقسوة مريعة وصوت الفتاة يزلزلنا متأوهاً

متألماً محتجاً ثم نشواناً يتنكر في الاحتجاج. وكان الولد يشير من تحتي بذراعه قائلاً للشرطي في لهجة باكية:

- (حاسب الجاكتة يا ابن ديك الكلب!))

تمت

مدينة السلام - مساء الجمعة 27 أكتوبر سنة 1989

سَارقُ الفَرَحْ

الواد ((عوض)) ابن خالتي ما صدقني، لما قلت له إن ثمن الحذاء الذي اشتراه أخوه ((مطر)) أول أمس، يصلح أن يكون مَهْراً يدفعه لعروسه معشوقة قلبه ((وهيبة)) ابنة ((عم بيومي)) منادي السيارات الساكن وراءنا في نفس العشش.

عوض ابن خالتي يحب وهيبة منذ كنا أطفالاً صغاراً، فعم بيومي طول عمره يسكن حجرة مجاورة لحجرتنا أيام كنا نسكن في بيوت، في حي داخل البلد. ولما قالت لنا الحكومة ذات يوم أن هذه البيوت التي نسكنها آيلة للسقوط. لم نصدقها. ولما أخرجونا بعدها بالقوة ظللنا نبيت فى العراء بجوارها شهوراً طويلة. فلما انهارت، أزالتها الكومة، لكنها وسعت بمكانها الميدان. فجئنا إلى هذه الهضبة العالية من تلال زينهم المواجهة لجبل المقطم، وأقمنا فوقها هذه العش، وسكناها. حمدنا الله أن الحكومة تركتنا في حالنا، ولكن بعض الشبان من ذلك الذي يسمي بالإتحاد الإشتراكي، والذي لم نعد نسمع له اليوم حساً ولا خبراً، قالوا لنا إن الحكومة اشتكتنا لجمال عبد الناصر فقال لهم: دعوهم وشأنهم. فالقادر منا بنى بالطوب، والفقير بنى بالبوص والحصير.

عم بيومي رجل غالبان، إنما جدع. وكلنا غلابة مثله وجدعان أيضاً، لكن الزمن ابن قحباء لا يفرق بين الجدع والغلباوي. وعم بيومي عرف كيف يقلب عيشه، من صبيحة ربنا يمضي نحو الشمس نازلاً الدحديرة العالية في سرعة، ينكفىء على وجهه مرات ويعتدل بعد دقائق يصير في قلب المدينة، في الوسعاية التي يفرض عليها خفارته ويسمو بها الموقف، حيث تركن عشرات السيارات ثم ترحل، لتحل غيرها محلها. فلا يفعل عم بيومي أكثر من أن يصيح كلما رأى صاحب سيارة يشرع في فتحها: آيوا.. ا.. ه. ثم يهرول نحوه فيمسح له زجاج السيارة. وينزل زجاج النافذة ويمضي قائلاً: هات ورا.. إكسر العجل كله.. بسلامة الله. وصاحب السيارة يجده أحسن من غيره من ((الشضلية)) الصياع الذين يفرضون إتاوة على كل سيارة بدلاً من سرقتها وتشويهها فيعطيه البريزة أو الربع الجنيه كله.

يعود عم بيومي آخر النار متعشياً. الله يكرمه، لديه زربة عيال لا

شغلة لهم ولا مشغلة، فكلهم بنات ما عدا ولدين اثنين صغيرين. وله الشكر على كل حال، فقد رضي أن يزوج ابنته وهيبة أجمل بنت في العشش كلها لعوض ابن خالتي أفقر خلق الله تِماً.

عوض ابن خالتي هو الآخر لا شغلة له ولا مشغلة، إنما هو طيب والله، قلبه أبيض، غير أنه شرانى، مخه طاقق لا يصبر على التفاهم بالراحة. المصيبة أن طيبة قلبه لا تظهر إلا بعد أن تقع المصيبة. وكم قلنا له كلنا: ما ينفع الناس من طيبة قلبك إذا كانت لا تظهر إلا بعد أن تضرهم وتسبب لهم الأذية؟! ولكن هكذا طبعه، من يومه، وكل أهل العشش يعرفونه ويعاملونه بالراحة وطول البال. وبعد انصرافه يستعيذون بالله ويقولون: لو كان هادىء الطبع قليلاً لفتح الله عليه بشغلة تدر ذهباً مثلما لأخيه ((مطر))، وربما أكثر، إذ أن الولد شكله جميل وله سوالف طويلة منسقة، حتى أن كل من يراه ينخدع فيه ويظنه ابن ناس.

كل واحد من الناس له صنعة واحدة. أما عوض ابن خالتي ففي يديه ستين صنعة لكنه لا يفلح في أي صنعة منها. فمرة أقابله مبقع الثياب بالبوية، ما الحكاية يا عوض؟ يقول: ((باشتغل مع العسال في الدوكو)). مرة أخرى أقابله مزيَّت الثياب بالشحومات، يقول: ((اشتغلت مع حسن المكانيكي). ويوماً أراه مع عربة أنابيب البوتاجاز في حواري البلد؛ ويوماً آخر سارحاً بين السيارات بفوط صفراء وقطع كاوتشوك ومناديل كلينكس.

عمري ما رأيت معه مائة جنيه كاملة. دائماً يشكي لي. ولو كان الود ودي لساعدته. العين بصيرة واليد قصيرة. كل ما أحتكم عليه هو ترابيزة البخت هذه، أفردها وأطويها كما يحلو لي. أملأها كل يوم بالبخوت، عين فيها عسلية، عين فيها طوفاية، عين فيها قرش، عين فيها ملبسة وحبة فول سوداني. أسرح بين حواري العشش وقرب البيوت الخارجة عن المدينة.

أنا يا صاحب ترابيزة البخت جمعت ذات يوم مائة جنيه كاملة، ولكن عيالاً ملقطين أولاد وسخة ضحكوا علي وأخذوها مني في لعبة قمار. نهايته، اللهم أخزيك يا شيطان. قال لى وقال العيال: إلعب ثانية فربما كسبتها لكنني أخزيت الشيطان. ومن يومها لم أذهب إلى الدحديرة الخلفية عند جذوع الأشجار الجرباء العجوزة. ومن يومها أيضاً لم أفلح في تجميد مائة جنيه كاملة في جيبي. مستورة والحمد لله، فحين تنفقىء كل عيون البخت فوق ترابيزتي أطويها وأعود إلى العشة، فألقي بالألواح الفارغة لأمي العجوز، كي تتسلى بملئها من جديد، وتلصق فوق اللوح فرخ ورق. أعطي لأمي

الغلة محتجزاً لنفسي الفرق مع المصروف. فأمي تظن أنني أبيع العين للطفل بقرشين ولذا فهي تحاسبني بعدد العيون قروشاً مضاعفة. وأنا قد فتح الله مخي في الأيام الماضية، فدخلت منطقة فيها ثلاث مدارس. تلكأت حولها، فهجم الأطفال علي، فصرت أبيع لهم العين بخمسة قروش فلا يعترضون. ومن يومها يكرمني الله في ساعة زمن. ومع ذلك، لم تتجمع المائة الجنيه مرة ثانية. العملية أصلها يا دوبك.. أنزل المدينة نزلة واحدة، أرى خيرات الله على الأرصفة، وفي محلات يلذ لي أن أدخلها ولو للفرجة. وأراني عائداً من المدينة أصعد الهضبة مهدود الحيل من ضياع قروشي في الفرجة فقط من غير ما أحصل على شيء مما تمنيت لو أذوقه.

يعز علي أن يكون عوض ابن خالتي معذوراً في قرشين. ودمي يأكلني لما يكون المبلغ أكثر من مائة جنيه بخمسين. فإذا أنا حدثت أمي ورضيت هي أن تسلف ابن أختها، فسيكون ذلك من رسمال ترابيزة البخت. مع أن هذا شيء أصعب من أن نجد المبلغ كله ملقى على قارعة الطريق.. فمن أين يجيء عوض ابن خالتي بالمبلغ المطلوب؟

ربك والحق، عوض ابن خالتي لا بد له من تدبير المبلغ بأي شكل إن كان يحب وهيبة حقاً ويريدها زوجة. فالولد ((شطة)) ابن ((عدولة)) الملاية كان قد هاجر إلى العراق فمكث هناك أعواماً يعمل بائعاً سريحاً. جمع مبلغ كبيراً، وجاء ينطح في مستقبل عوض ابن خالتي: بعث يخطب وهيبة، ويعشّمها ببناء حجرة بمنافعها بالطوب الأحمر مكان عشتهم البوص. وهيبة لم تغرها الفساتين التي لوحت بها أمه لها، ولا الملابس المستوردة التي تظهر كل ساعة على كتفيه، ولا السجائر الأجنبية التي يشعلها على الدوام بولاعة مذهبة. ووهيبة تلوي شفتيها باشمئزاز وهي واقفة أمام الفرن الطيني الرابض جوار عشتهم بين شجرتي كافور كبيرتين، ثم تهز كتفيها وتدخل العشة بين قوافل البط والدجاج والأوز ومعزتين وثلاثة خرفان وأربعة كلاب وقطتين.

في هذه العشة المليئة بكل هذا ينام إثنا عشر فرداً هم عم بيومي وأولاده، مع العرس والفئران والقطط والثعابين المعروف أماكنها. كل يتجنب الآخر ولا يعتدي على الآخر. إنه الستر ودعاء الوالدين. والكل في النهاية يبيت متعشياً بالصلاة على النبي.

عدولة الملاية التى كانت البارحة تمشى خافضة الرأس ذليلة، تلقي صباح الخير ومساه على كل دابة في الطريق، وتلف تستلف جنيهاً أو اثنين، تسأل عن قطعة خميرة، عن المنخل، عن فرخة

ضالة، عن ذكر بط وفي يدها بطة تريد لها لقاحاً. عدولة هذه ارتفعت قامتها فجأة ولفت نفسها في ثوب متسق كأنها من الستات المحترمات، وطرحة سوداء من الحرير اللامع حول وجهها المليء بقشف الهموم كقشر السمك، وبات من حقها أن تكثر من المرواح والمجيء أمام عشة عم بيومي، يأكلها قلق الإنتظار. فقد أخبرها عم بيومي أنه موافق ولكنه سيرد عليها بعد أن يتكلم مع ابنته كلمتين صغيرتين في السر. وهي تعلم أن وهيبة غير موافقة على الزواج من ابنها، وواثقة أن عم بيومي يخشى غضبة عوض ابن خالتي غير أنه رجل ضرس، بارم، ولافف. وتعلم أيضاً أنه غير موافق ولا يستطيع أن يوافق حتى لو دفعت عدولة مال قارون مهراً لابنته.

عم بيومي نفسه يعرف أن رأيه لن يكون مجرد رأي في زواج ابنته من أي شخص كان، بل إنها مسألة ينتظرها أهل العشش كلهم ويتشوقون لمعرفة نهايتها: كيف يتأتى لعوض الخائب أن يأخذ وهيبة النتاية؟ وهل المسألة حب حقيقي أم لعب عيال وأونطة؟ وعم بيومي متأكد من أن الولد يحب البنت، والبنت تحب الولد، وسوف يثبت لأهل العشش أن الحب لم يكن لعب عيال وإلا كان هو نفسه رجلاً بقرنين عديم المفهومية.

الذي فات على عدولة أم شطة أن تفهمه، هو أن عم بيومي أعطاها كلمة الموافقة المهزارة في لحظة عرف الخبيث كيف يستغلها؛ إذ أن ذهاب عدولة إلى عشة عم بيومى لتخطب ابنته وهيبة لابنها شطة العائد لتوه من العراق، لم يكن ليمر هكذا، الخبر انتشر بين العشش كالشرارة بين الحطب، تناقلته أفرع الكافور العجوزة الجرباء في الدحديرة الخلفية، حيث يمتلىء قاع الدحديرة بكتل من الظلام لو دققت فيه لرأيتها رجلاً متقرفصاً يقضي حاجة أو قعدة قمار أو مجموعة شبان اصطادوا مومساً ضالة أو أفندياً غشيما وراحوا يجردونهما من كل شيء.

أقطعه ذراعي إن ما كان عم بيومي هو الذي شجع عدولة على الفكرة وجرأها على التقدم علانية للخطوبة. كان يسمع الخبر وهو عائد يركض مترنحاً لاهثاً بعد ما بذله من جهد فى صعود الهضبة، فيكمل لهاثه باسماً عن سنّة يتيمة باقية تتدلى من سقف فمه الواسع كالخطاف. كالخديعة اللطيفة، ويكون قد دخل الشارع العمومي للعشش وجود أول تحويدة على اليمين متخطياً فناء القرداتي وعشة الشحاذ العجوز وحظيرة خنازير المعلم عطا الله الصعيدي المتوطن قبل الجميع هاهنا.. فما يكاد عم بيومي يجلس على التعريشة المصنوعة من الحجارة المعدة لمواسير المجاري حتى يمسح على ساقيه السوداوين المعروقتين، ويقول بصوت

عال وفي جدية متعمداً أن يسمعه الجميع:

- ((وما له! هو عيب؟ راجل ملو هدومه!

الراجل عيبه جيبه! واحنا في ديك الساعة؟ ما هي كدة تبقى قد بعضها! الملاية تبقى حماة بنت المنادي!))..

وهكذا تجرأت عدولة وجاءت تجر خلفها ابنها ورجلين أحدهما قرداتي سابق، ومهنته الحالية شراء الأشياء من بور سعيد وبيعها للناس فى العشش. أما الثانى فهو خفير فى شركة الملح والصودا. لبسوا جميعاً أهم ما عندهم من ثياب، ونثروا كثيراً من السجائر الأجنبية التي وزعها عليهم شطة، وتكلف عم بيومي شايات وقهاوي وحاجات ساقعة وسجائر - أجنبية أيضاً - لم يكن لها أي مبرر. وشكروا جميعاً في الولد: باسم الله ما شاء الله كسيب وفالح وابن يومه. ولم ترتفع من داخل العشة همسة واحدة تدل على الترحيب، بل كان عم بيومي هو الذي يقوم بنفسه فيحضر الشايات، ويعيد الكوبات والصوانى، التي ما إن رآها القرداتي السابق حتى تأكد أنها من بين ما باعه لزوجة عم بيومي من مجلوبات بور سعيد، فشعر بزهو لبرهة ثم قال:

- ((سمعونا الفاتحة أمال بقى!))

لكن عم بيومي شوشر عليه بصنعة لطافة، قائلاً إنه قبل الفاتحة هناك شيء يجب أن يقوله، ثم لا يقول شيئاً. وفى كل برهة يذكرك بأن هناك شيئاً يجب أن يقوله، ثم لا يقول شيئاً وإن كان مع ذلك لا يكف عن الكلام، لكن كلامه ما يلبث حتى يذهب في واد آخر ولكن بطريقة مشوقة توهمك أنه بعد كل هذا الكلام الممنق المتسق الطويل سوف يقول في النهاية شيئاً شديد الأهمية، لكنه لا يقول شيئاً فإن قاطعته لتستفسر عن شيء فإنه يقاطعك صائحاً بأن هناك شيئاً يجب أن يقوله.. خل بالك معي.

إلا أنه أخيراً قال شيئاً، فى اللحظة المناسبة، حين كان الخاطبون قد نهضوا للانصراف. وكنت وجواسيس عوض ابن خالتي قد تابعنا كل شيء وسمعنا كل شيء. وإذ هو يودعهم حتى الفرن الرابض بين شجرتي الكافور قال بصوت عالي وهو يعلم أن أشباحنا ذائبة في الجدران:

- ((أهلا بيكي يا ست عدولة!! معنديش أي مانع! بس حارد عليكى بعد يوم ولا اثنين! ما تقلقيش!))..

ثم ارتد نحو العشة في ركض هادىء يشمله رضاء وزهو، حيث أيقن أن قنبلته قد أصابت قلب الهدف، وأن لغاه قد وصلت إلى من يفهم الكلام من الجارات الموجه لها الكلام.

وهكذا بات على عوض ابن خالتي أن يضرب الأرض لتطلع بمائة وخمسين جنيه من تحت طقاطيقها.

الولد ابن حلال، متربي، لا يسرق ولا يفكر في الحرام. عمره ما سرق، لكنه قال لي إنه مستعد هذه المرة لأن يسرق، المشكلة ماذا سيسرقه؟!.. وهذا كلام يدل على أنه طيب وغشيم، فاللص يجد دائماً ما يسرقه، وعوض ابن خالتي لا يجد مائة وخمسين جنيهاً يحل بها مشكلته الأزلية. نعم هي الآن مشكلته الكبرى. ومن يدري؟ ربما لو تزوج من وهيبة استكن قلبه فيستكن سره ويهدأ باله ويستقر فى شغلة واحدة تدر عليهما رزقاً حلالاً. قلنا هذا كلنا، ولكن القول وحده كالعادة لا يفيد.

ساعتها كنا جالسين على مقربة من عششنا، بين شلة من أشجار الكافور، والأرض من حولنا متميزة بالتربة الخشنة السوداء الرطبة المشبعة برائحة روث الخرفان. وكان عوض ابن خالتي لابساً بنطلوناً من الجينز وفانلة نصف كم بدون ياقة، مرسوم على صدرها أنور السادات، وعلى ظهرها حيوان أشبه بالفهد الأحمق يندفع في الفراغ اندفاعة مجنونة ليس أمامها ولا من خلفها أو تحتها سوى الفراغ الماحق الساخر؛ قد اشتراها من القرداتي السابق بالتقسيط المريح. وكان القمر يتساقط من بين أوراق الكافور ويسقط معها على الأرض، وأضواء السيارات تبرق في القاع البعيد متلاحقة خاطفة في سبيل متدفق على طريق صلاح سالم، الذي يحزم الهضبة ويطوقها من ثلاث جهات، رائحة جائية لا توقف أو نهاية. والفضاء يئز بزلزال خفي، تتلقاه فروع الأشجار كهوائيات التلفزيون، وتبثه فوقنا رعداً مخيفاً يمزق القلوب. وكانت العشش كلها تبدو أمامنا فوق الهضبة كورم خبيث مليء بالجحور والسراديب، ينام فيها عشرات الفتيات المحتجزات بشبكة أو عقد قران أو قراءة فاتحة، ينتظرن فك عقدة السروال في الحلال المباح لكل دابة؛ وعشرات الشباب مثلهن في قلب الليل يحلمون براقصات الأفلام ومذيعات التلفزيون، ويضاجعون إناث الدواب وراحات الأيدي. وعشرات غيرهم من الأزواج يتحينون فرصة للمضاجعة بعد خمود الذين يشاركونهم نفس الفراش والرغبات المحمومة تتلوى كالثعابين زاحفة بعضها فوق بعض في نعومة وزفلطة.. فما الذي تريد أن تفعله الآن يا عوض يا ابن خالتي؟! ستضيف إلى عشتكم كائناً آخر! تقول أنك ستستقل وحدك بحجرة وهم جميعاً مرحبون بذلك حتى تتيسر لك

الأحوال بسفرة إلى أي بلد، ولكن ها هي الأحوال تريد أن تبدأ معك بالعسر لا باليسر..

ملت على عوض ابن خالتي وقلت له.

- ((تعرف أن أخاك مطر اشترى حذاء أول أمس؟!))

قال:

- ((نعم.. أوراه لي)).

قلت:

- ((ما رأيك فيه؟))

قال بضيق:

- ((إحنا في إيه ولا في إيه؟!)).

قلت وأنا أعزم عليه بسيجارة سوبر:

- ((تعرف كم ثمنه يا عوض؟))

شوح قائلاً:

- ((يقول إنه حذاء يلبسه لا أدري مَن ومَن! باختصار هو حذاء غال! ولكن ما لنا به الآن؟!)).

قلت رغماً عني:

– ((ألم يقل لك أن ثمنه مائة وخمسون جنيهاً؟)).

هب عوض ابن خالتي واقفاً يلتمع الذهول والشر في عينيه. ورأيت في عينيه بصيصاً ما، يتصل بعيني القمر الساجيتين من خلل الكافور؛ ثم حول ذهوله إلى تشويحة هزار، وقال:

- ((يا شيخ بلاش معر! لقد ضحك عليك! الحذاء لا يزيد عن ثلاثين جنيهاً لو ضربه الدم! حتى لو كان من الذهب الخالص؛ أمي لو سمعتك الآن لماتت بالسكتة القلبية فى الحال! إياك أن تقول هذا الكلام أمامها))..

ضحكت لأني أعرف هذا، وقلت له:

- ((لكن ثمن الحذاء مائة وخمسون جنيهاً بالكامل يا عوض)).

جلس كالذي وقع من طوله:

- ((وكيف عرفت؟!))

فجعلت أقول له كيف عرفت..

مطر ابن خالتي ولد مفتح من يومه، وشاطر، فهلوي وابن بلد وعلى كيفك. كنا ننظر إليه على أنه الولد البايظ الفاقد، إلا أبوه زوج خالتي، كان يقول إن مطراً هو الوحيد الذي سينفع فينا كلنا، إذ هو ولد نزيه ابن دنيا، والدنيا دنيَّة والزمن خدَّاع، وابن الدنيا هو الوحيد الذي يستطيع قهر الزمن وخداعه.

وقد بات واضحاً أن مطر ابن خالتي سيركب ظهر الدنيا من خلال الدربكة. سفروت خفيف الدم مطر ابن خالتي؛ عشق النقر على الدربكة بسبب القرداتى السابق وزملائه القرداتية الذين كانوا يستوسطونه في بيع أو شراء قرد صغير السن، يعهدون إليه بتدريبه لهم، فكان يقضي النهار يدق فوق الرق الصغير نغمات يتراقص عليها القرد. الرق والعصا هما الأداتان اللتان بهما يسير القرد على عجين الفلاحة فلا يلخبطه. من حسن حظ مطر ابن خالتي أنه لم يعشق مهنة القرداتي واكتفى بعشق النقر على الرق. وكان القرداتي يستعين به في النقر على الرق فيما هو ممسك بالعصا بيمناه وسلسلة القرد بيسراه. مطر ابن خالتي كلما رأى فرحاً انحشر بين الفرقة وربض بجوار الطبلة حتى عرفوه. اشترى لنفسه طبلة ثمينة. طلع مع فرق العوالم. كان لهلوبة، يهز بالنقر السريع المتقن أثداء الراقصات العواجيز وخصورهن المتخشبة، يبعث فيها شباباً يجنن مساطيل وسكارى المتفرجين..

الحكاية بدأت في لعبة في فرح، والسبب عم بيومي. كنا في الفرح في هذه المدينة المتكرمة على نفسها في سفح الهضبة؛ وهو الابن أحد تجار الغلال. عند النقوط يظهر دائماً عم بيومي، وحين يظهر يفرح الجميع، فهو أحسن واحد يقدم النقطة نيابة عن الآخرين، إذ يعطيه المعلم عشرة جنيهات أو عشرين أو ثلاثين قائلاً له أسماء الذين سينقط عليهم من الحاضرين وأصحاب الفرح. عم بيومي يأخذ حق صاحب النقوط جيداً، كل ورقة بعشرة لها وقفات طويلة يردد فيها اسم المعلم عشرات المرات، وأسماء المعنيين بالتماسي

عشرات المرات، ويطلب سلاماً جمهورياً لكل اسم، وموالاً لكل معلم. كل فرق العوالم يستبشرون به، حتى النبطشي الذي يجمع النقوط للرقة يفرح به ويردد خلفه كل كلمة يقولها كالببغاء. والفرقة تجامل عم بيومي وتعطيه آخر السهرة ثمن الدخان. طلع عم بيومي ليلتها على خشبة المسرح رافعاً يده برزمة من عشرات الجنيهات كورق الكوتشينة في يد لاعب حريف. توقفت كل الأصوات فى انتظار أن ينطق. هتف بأساء المعلمين واحداً وراء الآخر، ثم توقف قائلاً أنه سيهدي المعازيم هدية خاصة:

- ((إليكم فاصلاً منفصلاً من العزف على الدربكة للطبلجي المعجزة مطر!)).

فلما ظهر مطر من خلفه صبياً صغيراً سفروتاً هاج الناس بالصياح والتشجيع. وقف مسنداً قدمه على الكرسي ليطول قامة الميكرفون. راح ينقر على الطبلة نقراً جميلاً، يهتز جسده كله وينتفض، حتى لقد نهضت الراقصة واندمجت في الرقص ما يزيد عن نصف ساعة، والناس في عجب ودهشة. في نهاية الفرح أخذته معها، فإذا هي راقصة تؤدي نمراً في كازينوهات شارع الهرم. وإذا بها تضمه إلى فرقتها، ليصبح بعد شهور قليلة طبالها الخاص الذي تعشقه. تحول مطر ابن خالتي من ولد سفروت صدىء الوجه والثياب إلى شاب أنيق، أحلى وأشيك من الممثلين. صار كل يوم يطلع علينا بمطلوع جديد. كل يوم نرى على جسده قميصاً جديداً غريب الشكل، أو بنطلوناً محزقاً. ودائماً هناك موضة جديدة في اللبس نراها على جسده ويحكي لنا عنها ومنه وحده عرف شباب العشش أسماء الأقمشة والماركات الشهيرة في القمصان والفانلات. يتفرج عليه أهل العشش كلما رأوه يستعد للنزول وقد نتف ذقنه وسرح شعره الأكرت الهائش ورفل في رقيق الثياب والكعوب العالية - قعر كباية حتى أننا في الأول كنا نخجل منه ومن منظره الذي لا هو شاب ولا فتاة، لكننا رأينا البلدة كلها تلبس هكذا، فصرنا نفرح بمنظره والوقوف بجواره أمام العشة لحظات..

في عششنا ناس كثيرون متعلمون، حصلوا على شهادات عالية، يعملون في الحكومة، تراهم يهرولون في الصباح راكضين فى الدحدرية النازلة إلى المدينة، يلهثون فى اللحاق بالأتوبيس ويعودون آخر النهار مفسخين كل ذراع في ناحية. أما مطر ابن خالتي، الطبلجي، فإنه الوحيد الذي تجيء سيارة الراقصة لتأخذه، وتعود به في مطلع الفجر.

على كثرة عشق مطر ابن خالتي للملبوسات المستوردة بالذات

فإنه لم يعشق شيئاً مثل عشقه للأحذية بنوع خاص لديه منها ما يملأ صندوقاً. وكلنا نلبس من ورائه أحذية بالمجان ليس فيها سوى خدش بسيط أو بعض فَسْكَلة. ودائماً يقول أنه مضطر لهذا بحكم العمل، فالطبال عنوان الراقصة، وهو الذي يجلس في الطرف في مكان بارز من الفرقة، ولا يجلس إلا واضعاً ساقاً على ساق ليسند الطبلة في متناول يديه، ولذا فإن الحذاء هو أبرز شيء فيه، إذ هو ممدود على الدوام في وجوه المتفرجين عرضة لأن يتفرجوا عليه برغمهم.. فلا بد إذن أن يكون الحذاء ثميناً غالياً متيناً جميلاً؛ فالناس في بلادنا كما يقول تعرف الناس من أحذيتهم وتحترمهم تبعاً للحذاء الذي في أقدامهم.

لكن آخر ما كنت أتصوره أن يشتري مطر ابن خالتي حذاء بمائة وخمسين جنيهاً. ولو كان هو الذي قال لي الخبر ما صدقته. لكن الصدفة هي التي جعلتنى أعرف.. فقد هبط على ذات ليلة بسيارة مرسيدس فاخرة لم تأنف من دخول العشش والركنة بجوار عششنا. صحاني من النوم، فرأيت مجموعة كبيرة من الشبان والبنات اللائى لا فرق بينهن وبين الصبيان. ظننت أنها الحكومة. فلما رأيت المرسيدس عرفت أن ضيوفي أغنى من الحكومة بكثير. قلت لعلهم تجار المخدرات الذين يدفنون بضاعتهم في أماكن سرية هاهنا، وخفت، لولا أن مطر ابن خالتي صاح بي هاتفاً من نافذة الكرسي المجاور للسائق. فذهبت إليه مرحباً. فقال لي إنهم يريدون التحشيش الآن بأي شكل. أهلاً وسهلاً إن كان الصنف معكم. قالوا إن كل شيء معهم وليس ينقصهم سوى المكان والعدة..

فتحت لهم العشة، وفرشت في وسطها حصيراً، تربعوا عليه جميعاً في حبور، وصنعوا ضجيجاً كبيراً مزعجاً أحضرت الجوزة والمنقد والحجارة والماشة والقوالح. شاركني بعضهم في توليع النار وتكريس المعسل الذي جاؤوا به معهم في أكياس نايلون..

وسط سحب الدخان الأزرق ضحكوا كثيراً وتكلموا كثيراً، وفتح مطر ابن خالتي كيسا من البلاستيك، نزع منه علبة سميكة أنيقة تعتبر تحفة للفرجة. فتحها فإذا هي مبطنة بالقطيفة كعلبة المصحف عدم المؤاخذة، أخرج منها كيساً من النايلون تبينت بداخله حذاء ذا منظر أسود خلاب، يشد البصر من أول نظرة. أول شيء جاء في دماغي من منظر الحذاء هو أنني لو لبسته فسوف أستخسر المشي به على الأرض في عششنا. وعجبت كيف يهون مثل هذا على أقدام تخوض به في وحل، إن مثل هذا الحذاء لا بد أن يكون معمولاً للفرجة فحسب. لم أقل هذا الكلام طبعاً حتى لا يضحكوا على ويتهموا مطر ابن خالتي بأن أهله لا يفهمون في الأحذية. غير

أن الضربة القاضية جاءتني حين أخرج مطر ابن خالتي فردتي الحذاء من كيسهما النايلون، وأخذ يعرضهما على الجالسين؛ الذين راحوا يتأملون الحذاء بشغف وإعجاب وحسد، ويباركون للأرض التي ستمشي هي عليها. قالوا جميعاً.

- ((بكم يا مطر؟))

قال مطر:

- ((يساوي كم؟))..

قال أحدهم في تحفظ:

- ((سبعون؟!))..

رد آخر مستنكراً بشدة.

– ((سبعون ماذا يا رجل؟! قل خمسة وثمانين مثلاً)).

قال ثالث كعارف ببواطن الأمور:

- ((هذا النوع بالذات لا يقل ثمنه عن مائة!!))..

فصاحت إحداهن:

- (هذا الحذاء لم ينزل منه فى مصر سوى اثنين!! واحد لصاحب الكازينو! وهذا!).

فبدا على وجه مطر ابن خالتي أن هذا الكلام شبه صحيح واعتدل واحد رابع نحيف الجسد يبدو كحكيم معلول، لكنه كان أكثرهم أناقة، ويبدو مطر ابن خالتي أمامه خادماً، ويقولون له المايسترو، قال هذا المايسترو وهو يشد نفساً من الجوزة التي أمسكتها له متقرفصاً أمامه كالقرد حتى يأخذ راحته في الشرب:

- ((هذا النوع من الأحذية عالمي ومشهور جداً؟ وثمن الجوز منه لا يقل عن مائة وخمسين جنيهاً. إلا مليم لأ!!)).

فانتشى مطر ابن خالتي فجأة، وجعل يعيد الحذاء إلى الكيس الرقيق، والكيس إلى الصندوق، والصندوق إلى الكيس الكبير، صائحاً:

- ((فعلاً! إنت جبت الفايدة! هو بهذا السعر فعلاً!))

فأخذت أنقل البصر بينهم، أبحث في وجوههم عن الفشر والهزار فلم أجد إلا جداً في جد، بل إنهم انطلقوا جميعا يباركون للأرض، ويوصون بالمحافظة على الحذاء من البهدلة في أرض هذه المخروبة – أي مصر كما يسمونها - المليئة بالخراء والنيلة. وقال من يدعونه بالمايسترو إن لها لورنيشا خاصاً وأنه يعد بأن يحضر له علبتين منه في سفرته القادمة إلى الخارج. فشكره مطر ابن خالتي وقال وهو يربت على كيس الحذاء في حنان عظيم أنه سوف لن يلبسه إلا في السفرة التي تنوي الفرقة أن تسافرها قريباً مع الراقصة إلى الدول العربية. لحظتها أحسست لأول مرة في حياتي أنني انسطلت ولم أعد قادراً على الخدمة، فتكوّرت منزوياً في ركن بعيد أتابعهم وهم يقولون عجباً.. فهذا القميص بسبعين جنيهاً، وهذا البنطلون بمائة، وهذه البلوزة بمائتين!!.. وكان شجر الكافور المحيط بالعشش يبث فوقنا رعدة الزلزال الخفي الذي يضطرم بعنف من تحتنا. وكنت أرتعش، فرفعت رأسي عن ركبتي ونظرت تجاههم لبرهة فلم أجد أحداً منهم يرتعش أو يشعر بأي شيء.

قلت هذا كله لعوض ابن خالتي، وأنا أسند ظهري إلى شجرة الكافور. فرأيت عوضاً يشرد ويبدو عليه الهم الشديد لأول مرة في حياته. الولد الشقي المهزار الذي يتعارك وهو يبتسم ظهر لي لحظتها تعيساً كاليتيم المنكسر لا سند له في الدنيا.

عوض ابن خالتي، ومطر ابن خالتي أيضاً، أحبهما معاً، لكنني فى تلك الليلة بدأت أشعر نحو مطر بمشاعر غريبة لست أفهمها، ونحو عوض بمزيد من الصداقة والحب، رغم أنني لا أنتفع منه مثلماً أنتفع من مطر بحذاء قديم أو بنطلون أو ولاعة بوتاجاز أو تحشيشة. وكنت أتمنى لو كان الخير الذي يرتع فيه مطر ابن خالتي قد تحول نصفه إلى عوض ابن خالتي. فهو على الأقل ينفعني في الزنقة، وما يكاد يسمعني أتخانق مع أحد حتى يخف إلي بمطواة أو سنجة، وإن لم يجد فالبونية والدماغ أقوى عنده من أي سلاح.

فجأة وقف عوض قائلاً:

- ((تستطيع أن تثبت لي صدق هذا الكلام؟))..

وسكت برهة ثم قال:

- ((أنت الوحيد الذي يقدر على ذلك! أريد أن أتأكد من صحة هذا

المبلغ! أتاكد فحسب! فإن كان صحيحاً فإنه يصير أعجوبة نفتخر بها أمام العيال فى العشش!))..

قلت:

- ((وكيف أثبت لك ذلك يا عوض؟ إنما قلتلك ما سمعته أثناء التحشيش في عششنا)).

قال عوض وهو يضغط على كتفي:

- ((أعرف أين يخبىء الحذاء! الليلة سأخفيه بعيداً! وفى الصباح ننزل أنا وأنت لنفصله في محلات شارع الشواربي التي يقولون إنها متخصصة في المستورد!))..

ظننته يمزح، فوافقته. لكنه قبل طلعة الشمس طرق باب العشة وأطلق صفيره المعروف بيننا. خرجت إليه، فإذا هو ممسك بالحذاء ملفوفاً في جرنان. قال: بنا. صحت دون أن أدري: بنا. في نفس الوقت صحت في أمي أن تجهز لي ألواح البخت حتى أعود. ومضيت معه دون تفكير وقد سحرتني المغامرة، شبطنا في ثلاثة أوتوبيسات واحداً بعد الآخر، صرنا في قلب المدينة في شارع الشواربي.

دخلنا محلات الأحذية الكبيرة. زعمنا أننا قادمون من العراق حيث نعمل هناك باعة ملابس، وأن أحد أقاربنا يريد ابتياع هذا الحذاء منا، فكم يكون سعره الحالي في مصر حتى لا نظلمه ولا يظلمنا؟.

كل المحلات نظيفة وفيها أفندية وفتيات نظيفات، تفوح منهم جميعاً روائح الفل والياسمين لكنهم جميعاً تنط اللصوصية من أعينهم ووجوههم الناعمة. بعضهم ردنا بغلظة ورفض التكلم. بعضهم نظر فينا بطيبة وفي الحذاء بحسد، ثم لوى شفتيه في أسف دون أن ينطق. بعضهم قلب الحذاء في استهانة وفصله بتسعين جنيهاً. بعضهم قال أن الحذاء تقليد للصنف الأصلي. آخرون قالوا إن الصنف الأصلي نفسه مضروب في السوق. وهناك من لوَّح لنا بالبوليس دون سبب. لكنهم جميعاً قد ظهر في عيونهم أن الحذاء ثمين، وأنهم جميعاً يودون لو حصلوا عليه بشكل أو بآخر ولو باتهامنا بسرقته منهم. فملت على عوض ابن خالتي وهمست له أن الحذاء بالفعل ليس لعبة، وأنه يساوي المبلغ.

مشينا في الشواربي وقصر النيل صامتين، بين أمواج من البشر، كلهم يلبسون فاخر الثياب، حتى تأكد لنا أننا وحدنا الفقراء، وكان

الغضب واليأس يبصمان وجه عوض ابن خالتي بتقطيبة مكلبظة تشبه تقطيبة العيال المجرمين من أولاد الناس الذين نراهم في الأفلام ومسلسلات التلفزيون. وإذا هو يشدني ليوقفني، ثم يشدني ثانية وهو يستدير عائداً نحو شارع الشواربي. إنصعت له مستفهما، قال:

- ((أظن أننا نستطيع أن نبيع هذا الحذاء! ما دام هنا من يفهم قيمته!! فلماذا لا نبيعه له؟!)..

ثم أحس منى ترددا، فصاح بي في بساطة:

– ((صدقني أنني جننت الآن! وسوف أبيع هذا الحذاء لأتأكد بنفسي أن الحذاء يمكن أن يساوي مبلغاً كهذا! وأن هناك من يدفع!!))..

قلت:

- ((وبعد أن تتأكد؟!))..

قال:

- ((ليس يهم بعد ذلك شيء! المهم أن أرى بعيني وأقبض بيديي هاتين لكي أصدق!)).

قلت:

- ((أما يكفيك ما سمعنا ورأينا؟))..

قال:

- ((سأظل أظن أنهم جميعاً يضحكون علينا! من أدراني أنهم جادون في كلامهم؟ إننا لم نطلب من أحد أن يشتريه! لم نر من يضع يده في جيبه ويخرج النقود ويعدها ورقة ورقة في مقابل حذاء سيمشي به في الأوحال!!)).

صحت فيه مشوحاً:

- ((ومن أدراك أن من سيشتريه سيمشي به في الأوحال؟!)).

صاح مشوحاً هو الآخر:

- ((ومن أين تجيء النظافة إذا كانت الأرض طافحة بها! ومن أين جاءت هذه الوساخة قل لي؟! إن عششنا أنظف من هنا)).

تم شدني و مضى في تصميم. قلت:

- ((تبيع حذاء أخيك مطر؟))

قالى بخفة دم أدهشتني:

- ((جزمة تفوت ولا حد يموت!))

قلت:

- ((سيعرف حتماً وستكون الفضيحة في العشش وأمام وهيبة!!)).

قال وفي عينيه بريق جنون لا يعبأ بشيء:

- ((لا شأن لك! أنا السارق أم أنت؟!)).

قلت لكي أرضي ضميري:

- ((قد تخسر أخاً لك يا عوض)).

قال:

- ((على الجزمة!!)).

عجزت عن الرد، فهززت كتفي ومخصيت بجواره صامتاً قال بعد برهة:

- ((تستطيع أن تبيعه لي؟)).

ثم صمت واقفاً في انتظار الرد، ثم عاجلنى:

- ((لك خمسة جنيهات عرقك إذا بعته لي!)) صراحة فرحت، مع ذلك صحت فيه:

- ((عيب يا عوض! نحن إخوة!)).

ثم سحبت الحذاء من يده. قال:

- ((في أي محل سنبيعه؟)).

قلت:

-((محل إيه يا مجنون!! إحنا بتوع محلات؟!)).

ثم صرنا في قلب الشواربي..

وجدت صندوقاً من صناديق الكهرباء المعدنية مثبتاً في الأرض يشبه الدولاب بدرفتين. فرشت على سطحه الجرنان، أخرجت العلبة الكرتونية من الكيس الكبير، فتحتها، أخرجت الحذاء وأوقفته في فتحة العلبة الكرتونية بشكل يلفت الأنظار ووقفت أنتظر. وعلى مقربة مني وقف عوض.

بعد دقائق بدأ بعض المارة يتوقفون أمام الحذاء يتفرجون ثم ينصرفون بعد إبداء الإعجاب. ثم أخذ كل من يمر يتوقف وينظر، وبعضهم أخذ يقلب فيه ويبدي علامات الدهشة والغباوة تمهيداً للفصال من تحت درجات السلم. يتملعنون على بائع البخوت ولاعب الثلاث ورقات في عشش تلال زينهم، أعرف أن ابن السوق الشاطر الناجح هو من إذا سئل عن سعر الشيء رمى بالرقم في سرعة وبساطة مهما كان عالياً. فكنت أقول لمن يسألني عن السعر كلمة واحدة سريعة كورقة البوستة: مائتين أنطقها بكل ثبات وثقة دون أن أعنى بالنظر في وجه السائل. العجيب أن أحداً لم يندهش، فقويت ثقتي. كل ما هنالك أن من يستمع إلى السعر كان يعيد الفحص في جدية وتدقيق ثم يعيد وضع الحذاء في حرص شديد كأنه يضع تحفة البللور، ثم يبالغ في شكرنا وهو ينصرف.

شيئاً فشيئاً بدأ يظهر لنا من يفاصل فى السعر. والفصال يشجع ناساً آخرين على التوقف للفرجة ثم الدخول في الفصال. إلى أن توقف أمامنا شاب رفيع القوام أبيض الوجه رقيق الملامح أزرق العينين، يتكلم بصوت خافت ممرور. قلت فى الحذاء قليلاً ثم قال:

- ((ليس معكما غيره؟)).

قلنا:

- ((لا!)).

قال مبتسماً في سماحة:

- ((طبعاً! إنه وحده رأسمال!)).

ثم أوصل السعر إلى مائة وستين، ووقفنا به – آخر كلام - عند مائة وثمانين. فحلف ألا يزيد. وحلفنا ما جاءت بثمنها. فتركنا ومضى، ثم عاد بعد برهة، وأخرج من فوق مؤخرته الممسوحة داخل البنطلون محفظة جلدية ثمينة، فارتعش قلبى لمرآها. أخرج منها سبع عشرة ورقة من الأحمر العريض، مدها نحوي قائلا:

- ((هي آخر ما عندي!))

إندفع الجنون من عيني عوض ابن خالتي، وقرصني في وجهي قائلاً:

- ((حذار أن تعود النقود إلى محفظته!))

فتناولت النقود وحشرتها في جيبي وقد اقشعر بدني وكدت أطير من الفرح لإمساكي بمبلغ كهذا لأول مرة في حياتي رغم أنها ليست لي وضعت الحذاء في علبته ثم في الكيس ثم لففتها في الجرنان لفة حاولت أن تكون لفة بائع حريف.

لا أستطيع وصف الفرحة التي شملتنا حين أخذنا نهرول عائدين، نكاد نخفي أنفسنا عن الأنصار مخترقين ميدان العتبة بحثاً عن الأتوبيس؛ لكننا خفنا من أي احتكاك فأكملنا المشوار سيراً على أقدامنا عند الدحديرة الخلفية للعشش جلسنا نعد النقود من جديد ونتأملها فرحين. هو يسلمها لي بالعد مرة، وأنا أسلمها له بالعد أخرى، في استمتاع: عشرة.. عشرين. ثلاثين.. مائة. ورغم ذلك ظل وجه عوض ابن خالتي جامداً غير مصدق لما حدث.

بني آدم منا طماع، وصدق من قال إن النقود تعمي العيون عن الواجب. ظهر على وجه عوض ابن خالتي أنه يفكر في لحس اتفاقه، إذ راح يحسب المبلغ على النفقات المطلوبة منه دون أن يقتطع منه عمولتي التي وعد بها إذا نجحت في بيع الحذاء. صراحة اغتظت منته. وبصنعة لطافة أمسكت برزمة النقود ورحت أعيد تسليمها له ورقة ورقة. فلما وصلت إلى المائة والخمسين طويت الورقتين الباقيتين ودسستهما في جيبي قائلاً:

- ((هذا حقي يا عوض! كان المفروض أن تعطيني خمسة جنيهات من المائة والخمسين؛ لكننى تنازلت عنها لك! معك الآن ثمن حذاء أخيك كاملاً بالمليم! الباقي هو عرقي يا عوض! الله الله على الجد)).

اسود وجهه لبرهة سريعة، ثم ابتسم رغماً عنه، وقال:

- ((وما له يا خويه! المصلحة واحد وأنت تشكر!)).

وكان النهار قد انتهى، حين تركت عوض ابن خالتي عند عشتهم ومضيت إلى عشتنا، لأجد ألواح البخت مركونة في الدهليز، والترابيزة مطوية بجوارها في انتظاري، وأمي لم تكف بعد عن استنزال اللعنات علي. خيل لي أنني فوجئت بترابيزة البخت، وكأنني كنت تحررت منها. نظرت إليها مبتسما أجاملها كما أجامل شخصاً كنت أعرفه، وقلت لها في سري: والله لن أشيلك على كتفي مرة ثانية. وقد نورت الفكرة في دماغي: السوف أعمل في الغد بائعا في شارع الشواربي، ولسوف أشد عوض ابن خالتي معي إلى هذه اليغمة الكبيرة. فشوارع مصر تزدحم بالخير والمجانين المستعدين لشراء أي شيء بأي ثمن.

بعدما تعشيت صعب علي منظر عوض، فخفت أن يزعل مني، فلحقت به. رافقته إلى عشة عم بيومي. استقبلنا بالصياح المرحب، إقتادنا إلى الخن الذي يهجع فيه وحده وقد حرص هذه المرة على أن يغلق الباب بيننا وبين أهله، كأننا من الضيوف الأغراب، كأننا مجرد خطاب لابنته. ابتسمنا لبعضنا من فوق كتفيه، وأفهماه أننا استطعنا بالعافية تدبير هذا المبلغ. فظهرت الشهامة والبشاشة على عم بيومي، وفتح باب الخن عن آخره، وصاح طالباً الشاي، ثم تركه مفتوحا بقية الليل.

في الصباح توجهنا إلى صائغ في حي الجمالية. انتقينا غويشة ودبلتين قطعوا حوالي مائتين وخمسين جنيهاً. دفع عوض بالمبلغ على بنك الصائغ قائلا:

– (إكتب كمبيالات بالباقي!)).

لوى الصائغ بوزه ووقف متردداً. أخرج عم بيومي منديلاً معقوداً، فكه عن ثمانين جنيهاً رماها فوق مبلغنا قائلاً:

- ((لا كمبيالات ولا دياولو! شوف الباقي كم وتصرف فيها)).

قال الصائغ:

- ((ناقص عشرين جنيه!))

قال عوض في مسكنة مزقت قلبي:

- ((والله ما معي!))

أكلني دمي، أخرجت عشرة جنيهات من العشرين التي كسبتها، قدمتها للصائغ قائلاً:

- ((سايق عليل النبي!))

وقال عم بيومي بلهجة مؤثرة:

- ((إلهي ربنا يكفيك شر المرض! إنه رجل على باب الله! لو ساعدته في فرحه تكسب!)).

قال الصائغ وهو يغيب النقود في درجه:

- ((مبروك!))

قابلتنا الزغاريد التي بدأ ترن منذ نزولها للصائغ. فما كاد الليل يدخل حتى كان أولاد عم بيومي قد نصبوا الكهارب على طول الشارع، ونصبوا خشبة عالية، ملأها شبان من أصدقائنا تصرف أحدهم في طبلة، والآخر في رق، والثالث في ناي. وجاء مدرس موسيقى يسكن جوارنا بعوده.

ارتفعت الأنغام وصهللت. احتشد الشارع كله بالساهرين من أهل العشش. وحزمنا الليل بالمزيكة العالية حتى رقص الكافور.

ولقد أفقت فوجدت أنني متحزم، وممسك بعصا، وعوض ابن خالتي كذلك، وقد اندمجنا في رقص مجنون، وحين نظرت في وجوه المصفقين لنا، لمحت مطر ابن خالتي يقف إلى بعيد، وعلى وجهه غم وكدر شديدين، عاقداً ذراعيه على صدره المتحفز للقتال؛ وبجواره يقف أمين شرطة، واثنان من المخبرين. وكان عم بيومي قد اندمج معهم في كلام ودي، وكنت موقناً أن عم بيومي خبير في التعامل مع الشرطة بارع في استرضائها. حولت بصري عنهم وقد دب في عروقي حماس فصرت أقفز في الهواء كالبهلوان، وأنط الخشبة رائحاً جائياً، وكل عضلة في جسدي تهتز في نشوة مع التصفيق ولأنغم. وكانت الدنيا تدور بي، فلا أعبأ بها. وكنت أزداد اندماجاً في الرقص، ولا شيء في رأسي أو عيني سوى رقبة مطر ابن خالتي ورقاب أمين الشرطة والمخبرين ومآذن القلعة وقبابها والأهرامات وبرج القاهرة وبرج التلفزيون، كل ذلك يتلوى تحت قدمي في دوامة عنيفة تبلغني وتلفظني لتبلعني. ثم تلفظني، لكنني كنت أشعر كأنني الفراشة التي ارتفعت بعيداً بعيداً، عن أكوام

القمامة.

أمسيات الفحم الرديء

كنت المنوط بعملية إشعال النار في الوجاق الكبير في مقهى المعلم عتريس الكائن بناصية على شارع الحي العتيق. ولهذا فقد عرفت الفحم عجنته وخبرته، عرفته كما أعرف الناس وأغتاظ منه اغتياظي منهم وأحبه حبهم، وهناك فحم أعاتبه وفحم أعتذر عنه وفحم أسب ديك الذين خلفوه، وفحم أصفق له بل ويصفق جمهور المقهى مصهللين قائلين: ((نارك والعة يا معلم).. وهم بالطبع يقصدون بالمعلم أنا رغم أنني منوط - كما يقولون - بأتفه عمل في المقهى نظراً لصغر شأني من صغر سني.

وفي البداية كان المعلم عتريس يجلس خلف نصبة الماركات بوجهه المستطيل الأبيض المحمر وشاربه الصغير الناطق وجلبابه البلدي ذي القطان والكم الضيق، ويرسل لي اللعن في كل موضع من جسد أمي المسكينة النائمة في مخيمنا داخل مسجد أصلان الكائن في نفس الحي تنتظرني بما أعود به في نهاية المساء من قروش، لكي تعتبر نفسها قد استيقظت من النوم حقاً، حيث تنهض فترفع شريط اللمبة وتغسل الطبق الذي سنشتري فيه الفول، وتغسل عدة الشاي، وحيث يكون أبي قد عاد من الخلاء منجذباً برائحة الفول أو رائحة الشاي، ليحكي لنا آخر أنباء الخطاب الذي يقال إنه سوف يتسلمه من المحافظة لنحصل بموجبه على شقة في المساكن الشعبية التي تبنيها، ويخفت صوته حينئذ لكي لا يسمعه جيراننا في المخيم الملاصق - إذ بيننا وبينهم جدار عبارة عن ستارة من الخيش – فيحسدوننا ويقولون للمحافظة: اشمعنى فلان. وأنا أحب هذه القعدة في المساء وأحب أبي وهو يسر بهذا الحديث بنفس اللهجة التي يتحدث بها واعظ المسجد حين يلقي درس العصر أو العشاء على المصلين أو اللاجئين عن الجنة التي وعد بها المتقون، وأمي تنصت إليه مصدقة كل حرف ينطق به - رغم أنني أسمع عن هذا الخطاب المزعوم منذ وعيت - إذ تقول أمي دائماً أنني كنت قطعة لحم مثل ورك المعزة ملفوف في بطانية على صدرها حين جئنا إلى هذا المسجد لاجئين نفترش بلاطه ونقيم هذا المخيم بعد أن أزيل البيت الذي كنا نستأجر غرفة فيه، ذلك البيت الذي أمر عليه كل يوم في طريقي إلى المقهى فأجده قد تحول إلى عمارة فاخرة عليها آلاف اللافتات وتحتها عشرات البوتيكات التي

تبيع ملابس العري وأحمر الشفاه. وكان أبي قد وجد لقمة عيش بجوارها إذ عمل حمالاً للبالات والصناديق فهدت حيله في ظرف شهور قليلة وجاءه ما يسمونه بعرق النسا وإن كنت أظن أن ظهره - ببساطة - قد انقطع تماماً حتى أنه بات يمشي خمس خطوات في يوم. لهذا أوصتني أمي بأن أنسى شتائم المعلم عتريس وأن أجعلها تدخل من أذن لتخرج من الأخرى إلى الهواء، فالشتائم لا تلتصق بالإنسان، وأكل العيش مر، ومعلهش يا ابني استحمل..

شيء واحد كان يجعلني أستحمل بالفعل، ذلك هو الفحم الأصيل، القابل للاشتعال بأقل مجهود ممكن وأحياناً بدون مجهود يذكر، الأمر الذي كان يوقف سيل الشتائم إلا حين تفرغ المقهى من الزبائن بغير سبب واضح. وفراغ المقهى من الزبائن ليس معناه كراسي خالية أو سكون مطبق، بل قد تكون المقهى عاجة بالخلق وكل الكراسي مشغولة والضجيج في ذروة قائمة ومع ذلك نعتبر المقهى خالية من الزبائن، بل تعتبر ساعة نحس فظيعة نحسب لها جميعاً ألف حساب، نداري بعضنا البعض السكات حتى لا نثير ثائرة المعلم ونعطيه فرصة لإفراغ غضبته المدمرة فينا، مع يقيننا من أنه لا بد وأن يفرغها بأي شكل ولأي سبب مفتعل مختلق، آنئذ نحاول إرضاءه من طريق خفي، فنشيع في المقهى حركة غلاسة وغلظة مفاجئة في معاملة الجالسين، فمعظمهم طلب الواحد شاي أو كرسي المعسل وجلس هو ومن معه ساعات طويلة لا يكفون مع ذلك عن إثارة الضجيج وطلب الطلبات الفارغة المجانية: هات كباية ميه... شوية نار... أمسح الترابيزة... هات كرسى غير ده. وحاجات تطقق المخ.

مثل هؤلاء الزبائن نفشل في عجم عودهم قبل أن نشرع في خدمتهم على الوجه الأمثل، إذ هم يخفون حقيقتهم جيداً تحت ثياب فاخرة وحقائق لافتة وانجعاصات متقنة فنمعن في خدمتهم باخلاص فتكون النتيجة أننا نتحمل الألاطة والنفخة الكدابة والبكوية المزيفة نظير قرشين بقشيش، ولربما تكالح الزبون فانتظر الباقي على ضآلته إمعاناً في الكيد للجرسون لأي سبب، وحتى لو طلع الزبون ابن ناس ودفع بقشيشاً شبعاناً فإن ذلك لن يرضي المعلم بل ربما عجل بثورته، ذلك أن المعلم عتريس لا يطيق رؤية النقود إلا وهي تزحف نحو درجه بلا انقطاع.. كل ترابيزة من هذه الترابيزات يجب أن تؤتي بثمنها الحقيقي وإلا أغلقها بالضبة والمفتاح، ما لم يكن هناك لعب كوتشينة أو دمينو أو طاولة فليس لها لزوم، فاللعب يستدر المشاريب بلا انقطاع، وشارب النارجيلة - البوري - يجب أن يلاحقه الجرسون بالحجر الثاني والثالث والرابع وإلى ما لا نهاية طالما الزبون جالس والشيشة أمامه، المعلم عتريس لا يطيق منظر

زبون يقوم بعد ساعة أو أكثر ليحاسب على واحد شاي وواحد مصري، يا فرحتي، شغل مكاناً وشيشة واستخدم أسياده لمدة ساعتين بلا شيء، ويل للجرسون إذا طلع الزبائن ((سكة)) أي ليس من ورائهم خير، وويل له إذا لم يمعن في إكرام الزبون بتفريغ جيوبه من كل ما فيها عند الحساب..

في تلك الأيام الخالية كنا لا نحتاج إلى فعل الحركات النص كم هذه كثيراً مع الزبائن، لأن المقهى أيامها لم تكن أبداً محلاً للانتظار، كل زبائنها جاؤوا للعب شيء أو لشرب المعسل، ليكن وراء ذلك انتظار خفي ما ولكن هذا ليس يعنينا في شىء طالما أنك تجلس عندنا وقطعة الطباشير تتراقص فوق الحائط مسجلة عليك ما يصير في ذمتك على التوالي، إن الانتظار عندنا معناه أن تصير عبئاً على المقهى وحينئذ يكون نهارك أبيض ومع السلامة بقى. زبائن زمان كانت مرتباتهم قليلة، بضعة جنيهات، والولد منا يعرق طول النهار بخمسة قروش بركة ورثة، كانت الفلوس قليلة جداً في يدي الخلق ومع ذلك قليل منها يصلح كل شيء وليس المعدة وحدها، بعكس زبائن اليوم الذين جرت في أيديهم النقود أنهاراً دافقة ومع ذلك حوَّلوا المقهى إلى مكان للانتظار يزدحم بالضجيج والصخب دون عائد يذكر. العجيب أن هؤلاء وأولئك ارتبطوا في دماغي وقلبي وحياتي كلها بالفحم الذي أتعامل معه. وإذا كانوا يقولون وهم على حق أن الغش قد ساد وعم الفساد وأصبح كل شيء مغشوشاً حتى الرجال، فإن الفحم قد أصبح هو الآخر مغشوشاً بدون جدال وغير مؤهل للاشتعال مطلقاً..

عشرات الشيش المتناثرة أمام الزبائن تبقى طويلاً في انتظار كرسي الدخان المؤجل بسبب انطفاء النار. أمروح على الفحم في الوجاق بالمروحة الريشية المتآكلة حتى ينخلع ذراعى اليمنى فأنقلها إلى اليسرى فتنخلع قبل أن تنتظم في الرواح والمجيء فأعيدها إلى اليمنى ثانية. تطقطق القطع وترسل شظايا ملتهبة ما تلبث أن تنطفىء في الهواء. ثم ما يلبث اللون الأحمر الداكن أن ينتشر بين النتوءات السوداء موسعاً مساحته شيئاً فشيئاً ببطء. تزداد سرعة يدي بالمروحة حتى يبدأ اللون الأحمر يخلع بعض رقائقه الدكناء كالغازية العاهرة تخلع أجزاء متوالية من بدلة الرقص ليبقى في النهاية جسدها المشتعل عرياً ووضوحاً وصفاقة. أخيراً يرتفع لسان اللهب فأمعن في الترويح بسرعة كأني أبغي تثبيته في أحشاء الفحم فإذا هو يستجيب ويتسع فيملأ الوجاق ويفيض حواليه. (قشطه عليه) يقولها عام (سنكر) النصبجي من وسط الرمال الساخنة والأكواب. تثقب أذني صيحة المعلم ((كفاية بقي يا.. ويذكر عضو أمي - حتخلص النار كده)). اكف عن الترويح، أشير للواد

((زعبله)) أن يأتى ليرص ما يشاء من حجارة المعسل. أرسل نظرة متوجسة إلى داخل الوجاق، أفاجأ بأن اللون الأحمر قد اختفى تماماً وتحولت الجمرات التي كانت منذ برهة كحبات الأوطه إلى كومة من الثلج الأبيض. لحظتئذ يدب الفرح في نفسي بقدر ما يدب الفزع. فهذا التاج الأبيض، هذه الغلالة المشغولة من فقاقيع دقيقة بيضاء، هذه الملاءة التي كأنها من قطن مندوف، تنبت دائماً على جسد الوهج المشتعل بعد برهة من كف الهواء المباشر عنه، لتظل تتراكم ويزداد سمكها غوراً في جسد النار. وهي دليل قاطع على واحد من اثنين لا ثالث لهما، إما أن الفحم أصيل تماماً، أو أنه خسيس إلى أدنى حد. وضع الواد ((زعبله)) عشرة حجارة أمامي وقال لي: رص. فأمسكت بالماشة الكبيرة ثم غرستها في الكومة البيضاء وأخرجت منها قطعة كبيرة وضعتها على الرخامة وصرت أضرب بثقل فوقها بالماشة بغية تكسيرها إلى قطع صغيرة أرصها فوق الحجارة، فإذا هي من الصلابة إلى حد أن الضرب فوقها يكاد لا يصدر صوتاً. قربتها من فمي ونفخت فيها فتطايرت بقايا النسيج الأبيض الهش كما تطايرت أوراق الشجر عن جسد أبينا آدم وأمنا حواء لتظهر الفحمة سوداء عاطلة من أي وهج بل من الاستعداد للاشتعال. رميتها في الوجاق بغيظ وبصقت فوقها ثم اختطفت قطعة أخرى خفيفة، ضربت فوقها فتكسرت فظهر سواد قلبها لامعاً. حانت مني التفاتة خائفة نحو نصبة الماركات فرأيت المعلم عتريس ينظر نحوي معتقلاً في صدره عفاريت الأرض. لكن الخواتم الذهبية في أصابعه حجبت عني وجهه حين رفع يده ليحيى جماعة دخلت يتوقع من ورائها خيراً ولا يبغي مقابلتهم بالعكننة. كانوا في هيئة بكوات وباشوات ولكنني أعرف أنهم صياع كبار من الحواري المتاخمة لحارتنا. يتاجرون في الحشيش والأفيون والبرشام والعملة وتهريب السيارات وكل شيء، ويركبون المرسيدس أم مائة باكو، ولم يذهبوا إلى مدارس ولم يذاكروا، ولا يفكون الخط، يقتلون القتيل ويمشون في جنازته، ومع ذلك يبدون كالمؤدبين أولاد الكرام ينتظرون مثول الخدم - أي نحن يعني - وسواء طلبوها أو لم يطلبوها فإنه سيحاسبهم عليها بالتأكيد، إذ أنه يجيد بيعها لهم وتقاضي ثمنها وإن لم يحضرها أو يعرف ما هي على وجه التحديد.

بحثت بالماشة عن فصوص صغيرة مشتعلة الأطراف، كومتها فوق بعضها ورصصت القطع الكبير حولها رصاً يشبه البناء. ثم أخذت أمروح. وكنت أرتعش خوفاً من شلوت المعلم عتريس الذي قد يدهم مؤخرتي فجأة. تطايرت المساحات البيضاء كلها من الوجاق وامتلأ وجهي وحلقي بموجات التراب. شعرت بالغيظ والتعب، وتذكرت أن سفرة للسعودية أو العراق أو الكويت قد أعود بعدها لأفتتح مقهى

كهذه لأجلس هكذا مثل المعلم عتريس استأجر ولداً أشتمه وولداً أضربه وولداً يناولني الماء وولداً يسقيني الحشيش وولداً يسقيني الغرام وامرأة تكيد لي وامرأة أكيد بها من تكيد لي. وكانت كومة الفحم لا تزال منكفئة على سواد القلب وبصيص النار يبحث لنفسه عن منفذ، عن صدر دافىء يحتضنه فلا يجد، ثم تذكرت أن أمي لا بد أن تطب ساكتة إذا أنا لم أرجع لها في نهاية الليل، بل أنها لا تصحو إلا إذا دخلت أنا وأيقظتها، وكثيراً ما أظن أنها ربما كانت ميتة ومدفونة في فراغ هذه البقعة المبلطة من أرض جامع أصلان، وأن روحي أنا هي التي تحل فيها مدة اللحظات التي أكون موجوداً فيها فحسب. المصيبة أنني في الأيام الأخيرة بدأت أشعر بالتعب كلما دخلت عليها المخيم، وأحياناً أتمدد بجوارها برهة قبل إيقاظها فإذا بالنوم يجذبني إلى قرار سحيق لا أصبحو منه إلا على الدوشة المنبعثة من الميضأة والمراحيض عند مطلع النهار، لأطس وجهي بحفنة ماء ثم أجري إلى المقهى.

مر المعلم عتريس بجواري متجهاً إلى رف الشيش لينتقي واحدة سالكة ذات ضرب موسيقي عال، فعرفت أنه سوف يصطبح مع هؤلاء في استقبال العصاري، ولا بد من أن نجهز له مصفاة ملآنة عن آخرها بحفنة من قطع النار كحب الرمان، ليتسنى للمعلم أن يغترف منها بملعقة صغيرة ويدلق فوق الحجر. منذ سنوات مضت كان الزبائن ينظرون إلي في اشفاق إذا تباطأ اشتعال الفحم، بل كان منهم من يتطوّع بالنهوض ومساعدتي في علاج النار بالمروحة أو بأي شيء، مع أنه يكون رجلاً ذا مركز ووجاهة وعلم، أما اليوم فإن أي ابن قحباء يتخفى في حلل ثمينة يتصور أن بكويته لن تكتمل إلا إذا شتمني كثيراً. اتسعت المساحة الحمراء من جديد، ولكن كلما خفتت حركة يدي بالمروحة يشرع اللون الأسود في الزحف من جديد نحو المساحة الحمراء ليطفئها ويشقق سطحها بخدوش كأنما هى معركة يريد اللون الأسود أن ينتصر فيها على لون الوهج عدو الخسة اللدود. وقلت لنفسي بكل ضيق: ماذا أفعل في فحم خسيس يستعير صفة الفحم الأصيل ليحارب بها الاشتعال عدوه اللدود، إذ هو يوهمك عند لحظة معينة أنه قد اشتعل بالفعل بل أنه ينسج حوله نفس العباءة البيضاء القطيفية التي يحمي بها الفحم الأصيل شعلته من عوامل الريح ويحمي بها الخسيس خسته من عوامل الاشتعال.. ولقد تعلمت كشف الخسة من النذالة في الفحم بمجرد النظر في هذه العباءة، وللتأكد فإنني لو ضربت الماشة في عباءة الفحم الأصيل فإنها تغوص حتى موضع الجمرة التي تكون أحياناً قد أفنت جسدها اشتعالاً حتى صارت الشعلة في حجم رأس الدبوس، ومع ذلك تظل مشتعلة حتى النهاية التامة، أما عباءة

الفحم الخسيس فإن الماشة سرعان ما تصطدم بكتلة السواد الصلبة.

نزع الواد ((زعبله)) قطعة حمراء صحنها في المصفاة ووالاها بالنفخ والتطويح بها في الهواء مدة طويلة حتى صهللت فوضعها أمام المعلم عتريس وتلقى نظرة امتنان وكأساً من الويسكي صبه له أحدهم من زجاجة كبيرة انتبهت إلى وجودها تحت الكرسي وأحسست كأنهم يكيدونني فأدرت وجهي ورحت أمروح بكل قوة. انتبهت أيضاً إلى أنني أبكي بعمق ولا أحد ينتبه، ذلك أن منظر الدموع على وجه من يقف أمام نار مثل هذا الفحم الخسيس أمر طبيعي لا علاقة له بالبكاء وإن كانت دموعه أغزر. وكنت أفكر في علاج لهذا الفحم فخيل إلى أن هؤلاء القوم جميعاً قد باتوا في حاجة لأن نخرجهم من هذه الأجولة البراقة الفاخرة وننشرهم على الأرض حتى تتكفل الشمس بتبخير كل ما في جوفهم من رطوبة فلربما اكتسبوا بعدها أصالة الفحم الأصيل، ولربما استطاع الواحد منهم أن يحس بالآخر على البعد، وأن تنتقل شرارة الدفء بينهم بسرعة ودون حاجة إلى مروحة من أي نوع. غير أن ضحكاتهم المخمورة كانت قد بدأت تثقب أذني وتزيدني تأكيداً أنني وأمي العجوز وأبي مقطوع الحيل لن يكتب لنا مغادرة المخيم في جامع أصلان طالما أنا واقف أمام هذا الفحم الرديء أخدم مزاج هؤلاء الكلاب باردي القلوب. دهمتني غمغمة حادة تخللها سبٌّ لكل شيء. نظرت فرأيت مصفاة النار في يد المعلم قد صارت تحوي حفنة من هشيم ليل كالح ثقيل الظل سخيف، لم يفلح وهجها الذي كان منذ برهة في إشعال أكثر من حجر واحد مكتوم سرت عدوى الخسة إلى ما فيه من تبغ معسل وحشيش فتفحم بدوره. صاح المعلم عتريس صيحة مخمورة مبسوطة: (ما تعمل لك همة يا ابن الـ..) فوجدتني أتوقف عن الترويح ناظراً إليه في تحد مرتعش، فارت رعشته فجأة في يافوخي فشخطت فيه شخطة مسرسعة خائفة إلى حد الشجاعة، عاقلة إلى حد الإنذار بالجنون: ((باقول لك إيه.. ما تشتمش)). فبهت الذي كان قد شتم، وبهت القوم حوله. وكنت أتوقع أن يندفع نحوي ويشوطني بالشلوت فلا يتركني إلا جثة هامدة، ولذلك تهيأت ممسكاً بالماشة الكبيرة في يدي مستعداً لغرزها في رقبته والطيران إلى حيث لا رجعة. لكنهم جميعاً ضحكوا فجأة ضحكاً صاعقاً أنهاه المعلم عتريس قائلاً في تهديد واضح: ((طيب. طيب يابن الوسخة)). وكان المزاح واضحاً في صوته هذه المرة رغم نبرة التهديد، فاستدرت مستأنفاً الترويح بكل قوتي وسرعتي حتى طقطق الفحم واتسعت الدائرة الحمراء صانعة فجوة كبيرة من فتات وهج مشتعل كان من المفروض أن يفرحني ولكنه أثار حنقي

وغيظي، وصرت أحس باحتقار لا أستطيع وصفه تجاهه، إذا أنني موقن من أنه يمعن في خداعي كلما أمعن في اصطناع الوهج، وأبداً لا تنطلي الحيلة علي فقد بت لا أميز لون الوهج من لون الخسة في اللون الأحمر، قد بت أبحث عن ذلك الأوار المرتفع يتفرع من لسانه القرمزي لون البرتقال ويزداد وهجاً وقسوة فيبزغ الأخضر مجاوراً للبرتقالي..

قلت ليكن الفحم خسيساً أدنأ خسة فهو حر وهذه طبيعته، لكن المصيبة أنني أدفع وحدي ثمن خسته. لا طبق الفول في المساء الداكن مع أمي، ولا كوب الشاي بالحليب الذي يمنحه لي المعلم في الصباح بكافيين لمقاومة هذه الخسة، أنني أصرف على هذا الفحم من جسدي وأكاد أطعمه لحمي حتى يشتعل فلا يشتعل، لقد أصبحت أوقن أنني لو وضعت جسدي كله في هذه الجورة التي تبدو ملتهبة فإن جسدي لن يشتعل وإن احترق. صرف بصرف من الجسد فليكن صرفاً على شيء ارتجيه وإن طال الزمن. أحسست أن ذراعي انفصلت عن كتفي وصارت جناحاً كسيراً يتطوح في الهواء رائحاً غادياً غير عابىء بأن الوجاق كله قد صار لساناً هائلاً من اللهب ورهط المخمورين يتابعونه ضاحكين في نشوة واستبشار، وكان الولد ((زعبله)) قد تكفل بأمر المصفاة جالساً جالساً بها أمامهم يواصل النفخ على الدوام من حجر إلى حجر ومن نفس إلى نفس. ثم اصطبغت وجوههم بألوان جديدة من الملامح السمحة المسترخية الضاحكة بغير حساب، البلهاء بغير نظير، المنكسرة مهما تنكرت في لمع قوي وهاج، بدوا لي لحظتها كأنهم جميعاً يتغافلون بإرادتهم عن شيء مجهول لكنه فظيع وخطير، وأن شعورهم بالذنب البائد لا يزال يكمن وراء هذه الملامح التي تندلق ضاحكة لأتفه الأسباب. وإلا فما سر هذا العنف الشديد الذي سرعان ما ينقلبون إليه راغمين، إذ فجأة يبدو كأنهم يتحاربون في بشاعة، ويصبح من العسير على الرائي أن يعرف من يتحارب مع من، فالكل يتكلم في آن واحد، يسب يلعن يمدح يقدح يهتف يصرخ في آن واحد، وأنك لتحار في التمييز بين الهزل والجد، إذ هم في ذروة كل ذلك يصيحون كأنما في بهجة عظيمة طالبين المزيد من الكؤوس والحجارة الممضاة بجيد التعميرة..

ولم أكن بعد قد استطعت إيقاف يدي عن الترويح، ((وعم سنكر، ينبهني قائلاً: ((كفاية بقي يا شكوكو))، فانتوى جذب ذراعي إلى داخلي وإيقافه عن الحركة ولكنه لا يركن لإرادتي أبداً، وكنت أحس كأنني أثأر من شيء أو أسعى إلى هدف نبيل عظيم أو ربما كليهما معاً فأولهما ربما أدنى إلى الثاني. فلما نظرت في لسان اللهب أدركت السر في إصرار ذراعي على المضي في حركته.. ذلك أن

لسان اللهب الذي كان دامغاً ملعلعاً مصهلالاً كان هو الآخر أسود القلب.. نعم كقطعة الفحم التي تبثه تماماً. هذه القطعة الحمراء القانية بلون الاشتعال أن ضربتها وكسرتها بعد لأي تجد السواد يتصاعد لامعاً من خلل الانشطار كحقيقة لا حقيقة سواها حتى النار نفسها بالقياس إليها تعتبر وهما خادعاً، أما سواد قلب الفحم الرديء فحقيقة لا مراء فيها. هذا السواد الكامن في جسم الفحم الصلب هو نفسه - ويا للعجب - يتصاعد في قلب لسان اللهب المتوهج، كشريط من الظل الأسود يشع من حواليه لهباً، ظل كأنه شفرة الفحم الخسيس تخرج من جوفه ممتدة في قلب اللهب لتحارب اللهب الحقيقى بلهب مثله لتقضي على الاشتعال الحقيقى باشتعال زائف، أنه لينطوي على قلب من الخسة والدناءة إلى حد يمنعه من أن يفني نفسه في أي سبيل.. ولقد أدركت أن مهمة ذراعي المنفصلة كانت هي محاولة تنقية لسان اللهب من السواد الذي يشوبه، وكومة النار لا تني ترسل الغبار والهباب مما يغريني بالاستمرار بوهم أن الغبار سيكف بعد برهة ويصفو لسان اللهب تماماً. ثم أدركت أيضاً كم كنت واهماً، لأن جهودي المضنية كلها لم تستطع إذابة الفحم ولم تفلح في فصل الشريط الأسود الذي يسري خلال اللهب الأحمر. حينئذ رميت المروحة على طول ذراعي بكل غيظ وقرف فجاءت حركة مسرحية ضحك لها الجميع قائلين: ((قشطة عليه))، لكنني لم أبتهج، وقال أحدهم في إعجاب: ((لا والله تستاهل السلامة ياد))، فلم أصدقه. وقال المعلم عتريس نفسه: ((بس ابن ميتين كلب مخه صلب زي اليتامى))، وكان ينظر إليَّ باسماً يقصد أن يصالحني، لكنني لم أصطلح بل عبست في وجهه. دفع أحدهم بورقة مالية في جيبي بحركة مسرحية وغمزني بضغطة عنيفة يهددني بها إن حاولت ردها، فلم أردها ولكنني لم أبتسم ولم أجد أي رغبة في الابتسام. قلّده شخص آخر بنفس الحركة فكادت الفرحة تغزو فؤادي لكنني نبذتها في الحال وبقيت صامتاً أقضم بين أسناني غضباً مجهولاً كظيماً وزغدني المعلم عتريس قائلاً في جعيره الجهوري المعهود: ((ما تضحك بقى بديك أمك))، لكنني لم أجد قدرة على الضحك. وكان أحدهم قد بدأ ينفخ في المصفاة بقوة وعرق بعد انصراف ((زعبله)) لشؤون أخرى ونظرت إلى لسان اللهب في الوجاق من بعيد فرأيته قد ارتخى ببطء لئيم حقير قذر، وزحفت على الفجوة الملتهبة شطآن من السواد الداكن. وكان الألم في ذراعي يوخزني بعنف، فوجدتني أنسل خارجاً إلى الشارع ثم أنطلق كعصفور ودع القفص إلى غير عودة، وكنت سعيداً لأنني سأرى أمي لأول مرة في النهار بعد سنوات طويلة لا أراها إلا في آخر الليل. فإن هي إلا خطوات حتى صرت أمام عتبة جامع أصلان في أعماق حي النبوية. قفزت داخلاً إلى

مخيمنا الصغير الكائن بين الميضأة والمراحيض وجدت أمي مستغرقة في نوم عميق مطمئن فلم أشأ إيقاظها خوف أن تصدمها عودتي. فجلست جوارها أشعر بحزن عميق دفين وكان الجامع يشغي بالحركة والأصوات والروائح الكريهة. وشرع المؤذن يؤذن لصلاة العصر، وكنت أود الخروج إلى الخلاء، وهتف بي هاتف: ((صل العصر معهم)، فأسرعت بالانضمام إلى صفوف المصلين وحينما وجدتني في الطريق من جديد بعد الهدوء الذي أشاعته في الصلاة تحسست يدي في جيبي وريقات النقد فهتف بي هاتف: ((عد إلى المقهى وكن عاقلاً كي لا تحرم على الأقل من هذه الوريقات، ولكن هاتفاً أقوى من كل ذلك قال لي: ((خل بالك يا شكوكو فإنه الوهج الكاذب تنتشر عدواه في كل مكان)). ثم دوى في أعماقي صوت داهم يشبه صوت المعلم عتريس قائلاً: ((طب وحتروح فين بقى بديك أمك ؟،، ولم أجد رداً عليه، لكننى تجاوزت المقهى ببطء متعمد فخرج المعلم بنفسه منادياً علي، ولكنني بكل استمتاع شرحت له بذراعي في عدم اهتمام، ومضيت.

عدل الطاسة

كنا جلوساً على المقهى في منتصف الدحديرة والمزاج فل. المقهى ملقف هواء وبشر من كل نوع تتخيله أو لا تخيله. فالدحديرة العجيبة يصب فيها أربع فتحات في جهات ما بجوار الدحديرة أو حواليها. وفي الدحديرة سوق الحي، بعربات خضرواته وحشوده من النساء اللاتي يشكلن مظاهرة غوغائية قائمة لا تنفض لحظة من نهار، ثم أن الدحديرة تقود إلى الشارع العمومي حيث محطة الأتوبيس. والمقهى حافلة بالترابيزات تطرح موائدها وكراسيها في قلب الشارع منافسة ومزاحمة العربات الخضر، ووفود المارة سيل متكثف لا يكف عن التدافع في جماعات متنافرة متآلفة مع ذلك، والسيارات المرسيدس والبيجو والفورد التى يقودها الواد بليه السمكري والواد سيد خرابه الحرامي والمعلم حنطور تاجر المخدرات والأفندية العائدون مثلنا من الإعارات والعقود طويلة الأجل والمهربون وتجار العملة والتكسجية.. تشق لنفسها - بكل هدوء خرافي – طريقاً بين جدران البشر والأرائك والأشباه – وولدان المقهى يتقافزون كالنسور الجارحة بأيديهم صواني حافلة بأدوات ملآنة وناركيلات وجوز ومصافي نار متوهجة وأطباق أو خشبات مليئة باحجار الجوزة المرصوصة بالدخان المعسل، فلا تتعطل سيارة عن الزحف ولا تكف امرأة عن مناحرة بائع ولا يهبط ميزان عن قدره ولا تقع من الجرسون قطعة نار.

حتى نحن وقد انتقلنا من ((السطل)) إلى عوالم أخرى خاصة بنا، اعتلينا شرفات وهمية ورحنا نتفرج على دفق الحياة والتناقضات الخارقة، حتى ليوسع الواحد منا طريقاً للسيارة بأن يتزحزح بالكرسي أو يقف موسعاً فيما هو ممسك ببوصة الجوزة يشفط النفس، فالعجيب أن كل شيء عند الكيف قد يقبل التأجيل لبرهة وجيزة إلا توليع الحجر، ربما لشدة إحساسه بأنه قد دفع فيه دم قلبه وبعضاً من رفاهية أبنائه المساكين، أو ربما قد دفع فيه قيمة برشوة تقاضاها أو هدية ثمينة قبلها عن طيب خاطر..

ولدان المقهى، يعرفون أننا إخوة أصدقائهم سكان الحارة المجاورة الذين هم زبائن أصلاء ووجوه لوامع في ليالي المقهى، ويتعشمون في بقشيش سخي في نهاية المساء ولذا فهم

يخدموننا بإخلاص حقيقي، لا يتركوننا لحظة، صواني حجارة المعسل ترفع من أمامنا متحرقة لتستبدل في الحال بغيرها جديدة، والجوزة تتغير كل عشرة حجارة على الأكثر، ويضعون فيها بدلاً من الماء قطع ثلج، فنحن عيال عتاولة في الشرب، نجوم قدامى قبل أن تستغرقنا فكرة السفر إلى حيث توجد الأموال: يشرب الواحد منا خمسين حجراً وحده، صد رد، حتى يكح جيداً، ويطرد عن صدره أطنان البالغ المتراكم من الأمس والأماسي السابقة، بعدها يسلك ويستطيع الشد كما ينبغي، وتنفتح شهيته للشرب، فيطبق في خمسين حجراً آخرين. أيامها كان قرش الحشيش الهبو لا يزيد ثمنه عن ثلاثة جنيهات ومرتب الواحد منا في وظيفته الحكومية - إذ كل الوظائف كانت حكومية – يساوي ستة قروش في الشهر على الأكثر، وثمن حريقها إذا كان متخرجاً في الجامعة أو أحد المعاهد الفنية العليا. كان يزاملنا في الشرب رجال من كبار الموظفين والأساتذة وكنا نحن أصحاب الربع قرش والتمناية نحسدهم لأن مرتب الواحد منهم يساوي أوقية أو اثنتين ومع ذلك كانوا أحياناً كثيرة يطمعون في أن نجاملهم بحجرين معتبرين مما معنا، ولم نكن نبخل، بل كنا ننال شرفاً يستحق أن نكون قده فنحن حشاشون أصحاب كيف، والعامة في بلادنا يرفعون النقط الست عن الحرفين المتشابهين فيصبح للفظ معنى بأنه حسيس، وما دمنا كلنا محتاجين لعدل الطاسة فلنكن كلنا.. ذلك الحسيس. مع أننا في الأصل ربما كنا أبخل من كلبة يزيد التي لم أتشرف بعد بمعرفتها شخصياً..

الآن أصبح ثمن القرش خمسين جنيهاً، قد نجده بعشرين مثلاً أو بأقل، إنما الحشيش الذي يستحق أن نشربه لا يقل ثمنه عن خمسين. هكذا يفهم إخوتنا الذين يحتفلون بنا طوال مدة إقامتنا في الإجازة، ولهذا فقد اشتروا أعلى صنف من ولد يقف على دحديرة مشابهة في حي الدرب الأحمر ذي شهرة عريضة يعرفه القاصي والداني. وزميلنا الولد مخيمر يده مبروكة يرص القرش مائة حجرة حلوين. وكلنا جدعان بالصلاة على النبي والغربة لم تستنفد قوانا بعد وإن كانت قد أنقصت من بهجتنا كثيراً بل كثيراً جداً، إذ أننا قد أصبحنا نملك كل شيء ونفعل كل ما كنا نحلم به ولكن أحداً منا لا يستمتع أبداً. هكذا نصرح لأنفسنا كلما انسطلنا واحلو كلامنا وأضاءت وجوهنا، لكن الحديث لا يصير جداً أبداً، إذ ينظر الواحد منا إلى المتحدث نظرة ذا معنى ويقول: ((عندما تنتهي من بناء العمارة الثالثة أرح نفسك وارحل إلى الريف ولو أنه لم يعد في مصر ريف))، فيرد الساخط البادىء بالسخط قائلاً: ((بطل نق.. وعندما تشبع أنت من شراء الأراضي التي تهوى تكديسها ليوم معلوم.. إلخ)). وهكذا

ننعطف إلى الضحك بصوت عال جداً، ونختلق نكات صاخبة، ونتشوق لفرح مليء بالصاخب، ويكاد صياحنا يعلو على صخب الدحديرة، ويصعب على من يرانا أن يحدد ما إذا كنا نتعارك أم نتضاحك. تغمرنا بهجة لا ندري إن كانت حقيقية أم طارئة مؤقتة ولكنها ذات وجود طاغ، تجعل الواحد منا يتسامح إلى أقصى حد، ربما إلى حد البله، تجعل الواد مخيمر يدخل على الولد الجرسون بحجر يولعه من نفسه، تجعل الباشمهندس حوده يمسي على الشلل المجاورة بعشرات الحجارة رغم أن تكاليف الحجر الواحد قد تصل إلى خمسين قرشاً لكن سيبك أنت الجدع جدع، تجعل حسن أبو علي خادم الأمير يوزع كروته الخاصة على الذين تم التعارف عليهم في المقهى ومصادقتهم في الحال، وقد كتب في الكارت: ((الشيخ حسن)) على اعتبار أنه في معية الأمير، وكل من في معية الأمير يصبح شيخاً ذا أبهة، يقوم هو ليدفع الحساب، يدفع خمسة جنيهات بقشيشاً للولد الصبي، وأخرى لمن سقانا، وثالثة لم جرى في المجيء بالثلج، ثم يتصنع أنه همَّ بالنهوض، لكنه يتمهل قليلاً، ثم يطلب طاقم الختام الذي قد يبلغ خمسين حجراً متخمة بامضاءات الحشيش المبططة كالبريزة الفضية.. حيلة خبيثة يفعلها دائماً ليجر غيره إلى المحاسبة مثله ودفع البقشيش مثله..

وكان الطاقم الأخير قد أوشك على الانتهاء ورؤوسنا هي الأخرى قد أنهكت من الإرسال والاستقبال فانعطفنا جميعاً نحو قليل من الهدوء سرعان ما آب إلى صمت وغريب كأننا كنا وحدنا مصدر الصخب المروع في الكون. ولم تكن أرضية الأصوات المترسبة في قاع الشارع قد بدأت تتصاعد لتحل محل صخبنا حين انشق الصمت الكاذب فجأة عن صرخة تمزعت لها نياط قلب الشارع برمته، صرخة أحدثت لأول مرة ذلك الخلل الذي لم تستطيع كثافة أحداثه في هذا التوازن العجيب، لأول مرة اضطرب الميزان في أيدي الباعة، وضربت سيدات صدورهن من الخضة، والتوت الأعناق كلها في اتجاه الصرخة وقد تحول الشارع والدحديرة إلى وجه مكشر غاضب يتوجس ويبحث عن طفلة فرمتها سيارة أو ذبحتها سكين غادرة، فما وجدوا سوى طفلة اتبعت صرختها بالبكاء المتواصل في خوف مروع فيما أخذت تدبدب في الأرض بقدميها، وتطلق زئيراً حاداً يثير الفجيعة في القلوب، وتتلفت حولها في ذعر كأنما تستنجد بقوة عظمى لتنقذها من خطر داهم. اقترب منها البعض ثم عادوا ضاحكين يهزؤون ويشوحون بأيديهم في فروغ بال والبعض منهم صار يلعنها ويسبب ديك الذين خلفوها لأنهم لو ربوها جيداً ما أفزعت كل هؤلاء الناس لسبب تافه جداً كهذا..

وكانت الطفلة لا تزال تبكي في فجيعة وكانت الطاسة الساخنة

التي اشترت فيها ببريزة فول مدمس قد وقعت منها على الأرض واندلق الفول يعانق التراب والأوحال، فاندلقت وراءه صارخة باكية، ثم أن جماعة كانت مقبلة لا تلوي على شيء فداست فوق حفنة الفول وأخذت في أقدامها ما أخذت، فارتاعت الطفلة وأعادت صرختها، فانبرى أكثر من صوت يلعنها ويسبب ديك أمها، وبعضهم شخط فيها مهدداً إياها برمي الصنجة في وجهها إن لم تكف وتنكشح. لحظتها مرت سيارة أنيقة تتهادى لا تلوي هي الأخرى على شيء فسحقت ما تبقى من الفول ومضت، واشتد نحيب الطفلة وقد تضاعف خوفها من الناس وراحت تحاول كتمان بكائها فتنتفض. وكانت تختلس النظر مذعورة هنا وهناك وهي تنحني على الأرض، وفي هدوء الفلاسفة وبراءة الملائكة راحت بيديها الصغيرتين الحلوتين تجمع ما تبقى على الأرض من عجينة طينية مشبعة برائحة الفول الساخن الطازج، وتعيدها إلى الطاسة، ثم تمضي متعثرة لتغيب في الزحام.

موقف الغرق

وإذ وجدت في حوزتي بضعة جنيهات أتتني من باب الله احلوت الفكرة في نظري وقررت السفر إلى تلك المدينة التي يسمونها بلد العجائب وأحياناً أم الدنيا، ووضعت في تصميمي أنه لا بد لي من الإتيان بأخي الدكتور من تحت طقاطيق الأرض. المشكلة أنه ليس دكتوراً من النوع الذي يعالج المرضى حتى تكون له عيادة معروفة، إنما هو دكتور مثل طه حسين كما يقول أبي، حيث يظل المرء يدرس ويدرس إلى أن يطلقوا عليه لقب الدكتور، ولا بد أن لقطة الدكتور هذه منتهى الآمال، حتى أن أخي منذ أن سعى إليها – بعد سنوات من الغيبة في التعليم امتص فيها دمنا جميعا أبي وإخوتي وأنا – اختفى من حياتنا تماماً، ولم نعد نراه أو نسمع عنه؛ غير أن بعض الناس في بلدتنا يؤكدون أنه يعيش في أم الدنيا، والبعض الآخر يبالغ فيؤكد أنه رآه رؤية العين في الهيئة الفلانية أو الهيئة العلانية. وكتب لي أحدهم ورقة زعم أن فيها عنوان الهيئة التي يعمل فيها أخي.

* * *

دهمتني العاصمة فلم أعرف لها أولاً من آخر، واتخبل حالي فلم أعرف لي رأساً من ذنب؛ لكن الذي يسأل - حقاً - لا يتوه.

* * *

ذهبت إلى المكان الذي يعمل فيه أخي. وكنت أظن أنني سأقوم برحلة مضنية في سبيل البحث عنه؛ ولدهشتي فوجئت بأنه في نفس العنوان الذي يسمونه هيئة لا أعرف ماذا. وقد تفاءلت وحلت بي سعادة غامرة مرة، إذ أحسست أن أخي شخصية مهمة جداً في هذه الهيئة، يعمل تحت إمرته عدد من الموظفين، وآلة التليفون بجوار مكتبه هو، وكلّهم يجاملونه ويأخذون الإذن منه. غير أنني بعد ساعة واحدة قضيتها في مكتبه اكتشفت أنهم جميعاً يكرهونه بشدة، ربما لكثرة تدقيقه في كل شيء ومراعاة الأصول والضمير كما علمه أبي تماماً فحينئذ عرفت أنه في هذه الناحية ابن أبيه بمعنى الكلمة. وخلال هذه الساعة سمعت أكثر من واحد - بدون

مناسبة – يغريه بالسفر إلى أي مكان يقدر كفاءته بعيداً عن هذه المخروبة. على أن هذا لم يخيفني إنما الذي مرر حلقي هو حالة أخي الذي بدا عجوزاً كركوباً وهو بعد في عز الشباب، نحيف القوام بارز عظام الوجه غائر العينين مرهقاً حتى النخاع؛ وعرفت أنه يعمل صبحاً وظهراً ومساء ليفي بنفقات الحياة في المخروبة التي لم يبارك الله في شيء فيها قدر بركته في عدد العيال.

*** * ***

إنحشرنا في الأتوبيس بعد أن تصلَّبت أقدامنا من الانتظار الطويل على المحطة. وبعد هبد ورزع وكتم أنفاس وبهدلة لمدة ساعة هبطنا.

*** * ***

إذا بنا في قلب بحر غريق والناس يمخرون عبابه بأقدامهم في لا مبالاة. وقال أخي إنها مياه المجاري؛ ولم أكن في حاجة إلى هذا القول. وكانت السيارة التى يركبها الصياع المخبولين العائدون من العراق وليبيا تمر سريعة فتطلق علينا رشاشات من الغائط العتيق.

*** * ***

وقفت حائراً أنظر في أخي الدكتور الذي بدا كأنه لا يعاني من أي مشكلة، بل إنه جعل يتأهب للقفز فوق حجر على مرمى حجر آخر عليه أن يعبره ليقف على فردة كاوتشوك. قلت لنفسي: ماذا نفعل الآن يا حسان؟ الوحل من ورائك والغائط من أمامك فأيهما تختار؟ العجيب أنني رأيت أن لا مفر من اختيار الغائط فهو في الواقع لم يكن محل اختيار بل كان هو الملاذ الوحيد في هذا الوقت في هذا المكان. وقد عجبت للأطفال يسبحون في بحر الغائط على إطارات من الكاوتشوك، يلعبون الكرة، كأنهم جميعاً كائنات غائطية لم نعرفها في قرانا من قبل.

*** * ***

أشرفنا وسط بحر الغائط اللزج المتلبد، على حارة ضيقة فصرنا نتقافز كالقردة والبهلوانات فوق نتوءات صلدة يعرفها أخي جيداً وينبهني إلى عدم الانخداع في أي نتوء فليس كل نتوء صلداً. بعد عناء شديد ومسخرة وصلنا إلى بيت جميل: الشكل من الخارج كعمارة من سبعة طوابق ذات شرفات ونوافذ يتدلى منها الغسيل

فوق الحبال. فما إن دخلنا حتى خضنا في أكوام من القمامة في مدخل الباب وحواليه. ظلت رائحة الروث الإنساني المتعفن ترافقنا على السلم الضيق الواقف، حتى الطابق الأخير.

*** * ***

استقبلتنا وفود من البط الدجاج والكلاب والقطط والأطفال فلم نستطيع تمييز القط من الكلب ولا الكلب من الطفل ولا الطفل الزاحف من الأوزة. أخذنا نتخطى كل ذلك دون أن نفلح في تجنب الخوض في أوان بها أكل البط، لندخل بعد ذلك في ضجيج هائل: صياح وصراخ وجعير وعواء وزئير ونباح وصوصوة وحمحمة واصطدام أشياء بأشياء واصطكاك الأرض بأوان جعجاعة الصوت كأننا أخطأنا فدخلنا غابة مفترسة. تبينت صوت سيدة مرهقة بائسة ترقع بالصوت الحياني - مثلما كانت أمي تفعل منذ أكثر من أربعين عاماً - إلهي أشرب ناركم! أعدمكم واحد واحد يا رب!. إربد وجه أخي وظهر عليه الغضب والانقباض. صرنا في قلب فسحة ضيقة يطل عليها باب تتصاعد منه الروائح الكريهة تقدمني أخى داخلاً، فدخلت وراءه، فاتجه مباشرة إلى كنبة رفيعة تشبه المصطبة في دارنا القديمة، وقف عليها وأقام الصلاة، فيما رحت أتعود على الظلام المتراكم في الحجرة.

الحَوَل

كنت قد وصلت إلى المعزى متأخراً؛ فحمدت الله أن توافق الزمن مع هدفي المرسوم: أن الحق ولو بالربع الأخير، لأمكثه كله، فأكون بذلك قد أديت الواجب بصورة لائقة، في واحد أعتبره من الأعزاء القليلين في حياتي. لحظة إقبالي على السرادق الفخم المهيب في ساحة عمر مكرم كان المقرىء يتأهب لقراءة ما بدا لي أنه الربع الأخير؛ حيث راح عامل الفراشة يعدل مكبر الصوت في مستوى فم المقرىء المتربع على أريكة عالية وينفخ فيه فيصفر ويخرخش.

نهض صف طويل من الرجال بمجرد ظهوري عند حائط مجمع التحرير، في خيمة الضوء البرتقالي المنبعث من ثريات متدلية من سقف السرادق كالعناقيد يعانق ضوؤها بطانة السرادق الحمراء المخططة بشرائط خضراء على شكل مربعات ومثلثات في وسطها كلمات وحروف تنطق بألفاظ الجلالة والآيات القرآنية واسم المعلم صاحب المفروشات وعنوان محله. كان صف الرجال طويلاً مهيباً، كلهم رجال أشداء وقورون في ملابس رسمية كاملة وعلى سنجة عشرة؛ بوجوه حليقة مزنهرة مضروبة ببوية الحزن المتقنة المعجون..

سلمت عليهم واحداً واحداً، مردداً كلمة واحدة: ذنبكم مغفور! ذنبكم مغفور! ذنبكم مغفور!.. ثم تهت في السرادق لبرهة كالعبيط أتمنى أن تنشق الأرض وتبلعني قبل أن أتعثر في البحث عن كرسي؛ حتى لقد تخبطت في ناس انتهزوا الفرصة وقاموا لينصرفوا قبل أن يستبقيهم المقرىء نصف ساعة أخرى..

لحقت بكرسي في نهاية صف الصدارة في مواجهة المقرىء، فجلست، فعاجلني الفراش بملابسه الرسمية حاملاً صينية القهوة ومن خلفه واحد آخر يحمل إبريق ماء وكوباً فارغاً. شكرتهما بحركة تقليدية وعقدت ذراعي على صدري ورميت بنفسي في بحر الحزن الأليف المسيطر. ثم استعاذ المقرىء بالله من الشيطان الرجيم، وبسمل، وشرع يقرأ سورة الرحمن، فتفاءلت خيراً، إذ أنني أعشق موسيقاها وتواتر صورها في دفق الشعور بذبذبات لا نهاية لترددداتها المدوية التي لا تنداح من الذهن أبداً.

غير أنني ما لبثت حتى رفعت رأسي وجلت ببصري في المعزى فرأيتها على درجة عالية من الأبهة، فداخلتني فرحة غامرة هدهدت جوانحي. فعلاً، هذا ما يستحقه ((عبد الرؤوف عجلان)) أنبل رجل فيمن عرفتهم على الإطلاق. فجأة رأيت ((عبد الرؤوف عجلان)) بنفسه يدخل مخترقاً الطريق نحوي مباشرة كالمدفوع بامتنان شديد لكي يتقبل بنفسه عزائي له فيه، فاقشعر بدني وانتفض برعدة الشروع في البكاء الحار. كان معفر الثياب مترهلها كالعادة، بوجهه الكروي المكلبظ كوجه طفل مقشر الوجه لم يتشكل بأي ملامح بعد، مجرد كرة ينزوي فيها عينان عميقتا الغور كناروزتين مفتوحتين على الفضاء ينفد منهما قرطاسان من الضوء المشع الصافي؛ بعد مساحة متاخمة لهاتين العينين تلوح فتحتان أضيق كعلامتي استفهام متقابلتين، فوقهما أنف يكاد لرقته ورهافة تحديده يذوب في كروية الوجه. وقد لا تشعر أنك أمام وجه بشري إلا حين ينفجر ضاحكاً؛ لحظتئذ فحسب، ينفتح فم واسع رهيف الشفتين، تنضغط كرة الوجه كان يداً خفية تقبض عليها فتعجنها حتى لتكاد تنصفط، تتفصد بالعرق الأحمر القاني كأن صاحبها يعرق دماً ورديا لامعاً مشعاً بالبهجة العريضة المعدية في سرعة مذهلة، فسرعان ما تشعر بالرغبة الدافقة في الضحك الصافي والسرور اللانهائي. وعند الإنفعال تكاد كرة الوجه تقفز لتتنطط فوق هضبة كروية أخرى هى كرشه الخفيف الظل، الذي يرتفع حزام السروال حتى منتصفه تماماً فإذا كرشه قد انقسم بالعرض كقوس قزح، وإذا هو على الدوام يمد يديه ليرفع الحزام بين آونة وأخرى ليظل السروال شالحاً فوق الحذاء الأسود اللميع والجورب الرمادي. رغم ما يثيره فيك من بهجة وسرور إذا ابتهج يثير فيك الحزن العميق القاطع إذا حزن؛ طفلك الحبيب قد ألمت به نازلة أفقدته النطق فحولت وجهه إلى كرة من اللهب يثير فيك حرارة الألم. ها هو ذا يسلم علي في حرارة ووجهه كرة من اللهب، ثم جلس بجانبي، فأيقنت أننا نجلس في معزى لعله معزى زميلنا ((عاشور)) كاتب الصادر والوارد بالهيئة التي نعمل بها. أيقنت أيضاً أن صديقي ((عبد الرؤوف عجلان)) قادم لتوه من القرافة، وأنه قام بالواجب في حق زميلنا الراحل خير قيام؛ إنه ليس مجرد رئيس حسابات الهيئة، وليس مجرد رئيس اللجنة النقابية الخاصة بالهيئة، إنما هو إلى ذلك أمين صندوق لا أحد يدفع فيه مليماً واحداً؛ هو منشئه وممولّه الوحيد خدمة للزمالة وإسعافاً لعسرات الحياة ومواجهة أزماتها الطارئة على أي زميل، إذ أننا جميعاً على باب الله قد يعجز الواحد منا في لحظة عن الذهاب بابنه للطبيب فيموت الولد في شربة ماء، وقد تكون زوجة الواحد منا في حالة وضع إن لم يتطلب طبيباً أو مصحة فعلى الأقل يستلزم مواجهة إنفاق ضرورية. وهكذا؛ وكان

المفروض أننا جميعاً قد وافقنا على أن تخصم الإدارة من مرتباتنا قروشاً معدودة لصالح صندوق الزمالة لكن الإدارة لسبب ما لا ندريه لم تفعل، مع ذلك ظل ((عبد الرؤوف عجلان)) يقدم الخدمات ويؤدي الواجب من جيبه الخاص، إذ أنه محترف جمعيات يدبرها من مصروف يده التي لم نرها تصرف شيئاً على الإطلاق للإنفاق على صاحبها. زوجه وأولاده لا يعرفون عن هذه الجمعيات شيئاً؛ إذ هو يقبضها فيرمي بها في بعض محلات تجارية تربطه بأصحابها صلات طفولة وقرابة وعلاقات متينة موثوقة، يدبرون بهذه الجمعيات أحوالهم نظير عمولة ربح متفق عليه تضاف تلقائياً إلى المبلغ؛ ليمر هو فجأة على واحد منهم فينتحي به جانباً: ((شوف لي معك ميتين جنيه بأي كل! دلوقت حالاً!)) ودي الوقت حالاً بأخذها، ليجري لاهثاً فيتجراً لأول مرة في حياته فينادي: تاكسي! إذ لا بد أن يلحق بمريض من الزملاء في مستشفى، أو أن في انتظاره صديقاً على مقهى معذوراً في قرشين، أو سيلحق ((بطلعة)) ميت يمت بصلة قربى لأحد الزملاء ويجب أن يعزم عليه بشيء من النقود أو يتقدم من تلقاء نفسه فيحاسب الفقيه وعمال الفراشة.

-.. ((بينهما برزخ لا يبغيان.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟)) سحبني قرار الصوت. لم يكن بجواري في معزى ((عبد الرؤوف عجلان)) أحد سوى بعض الكراسي الخالية؛ لكن السرادق مع ذلك ملآن بالناس من مختلف الأشكال والألوان؛ شيء مبهج حقاً؛ شخصيات تبدو شديدة الأهمية على درجة كبيرة من الأناقة في أثمن الثياب وأربطه العنق؛ والرابضون بمدخل السرادق كثيراً ما يتسلل بعضهم ليمضي فيعيد الترحيب بهؤلاء وأولئك ممن بدا أنهم شخصيات ذوو مراكز مرموقة، لعلهم وزراء أو كلاء وزارات أو رؤساء مجالس إدارات، يشير إلى ذلك هذه الأرتال من السيارات المرسيدس السوداء والفورد والفولفو، التي راحت تتزايد أمام السرادق. لم يكن ((عبد الرؤوف عجلان)) من ذوي المناصب الكبيرة ولم يكن من الحكام لكنه كان ذائع الصيت في الهيئة وفي هيئات كثيرة لها صلات عملية وثيقة بهيئتنا. كذلك كان معروفاً معرفة جيدة لدى نسبة كبيرة من وكلاء الوزارات ورؤساء مجالس الإدارات؛ كثيراً ما كانوا يطلبونه في الهاتف أو يرسلون له التحيات مع بعض الوسطاء والسعاة؛ لا غرابة فهو متوقد بالنشاط لا ينصرف من مكتبه ووراءه ورقة واحدة في حاجة إلى استكمال، لا يرجىء عملاً للغد أبداً، لو كان الود وده لأنهى عمل العمر كله في يومه. وكان هذا يخدم مصالح هيئات كثيرة وناس كثيرين، سرعان ما يندهشون من أنهم ليسوا مضطرين للعودة غداً، بل لم يكن بعضهم يتوقع أن يدعى للجلوس وشرب فنجان من القهوة ريثما تنتهي مصلحته بعد دقائق. مفتشو الجهاز المركزي ومندوبوه كثيراً ما

يتحرجون في التفتيش عليه، فيكتفون بالمراجعة المطمئنة الواثقة دون تلكؤ عند التأشيرات لاستكناه مضمون غير مضمونها واستقرائها مخالفات وتساهلات وموالسات كما يفعلون مع غيره في أماكن كثيرة. أتذكر الآن أنه ذكر لي مرة في حديث عارض أن أمه من عائلة كبيرة جداً في الصعيد كان منها الباشوات والبكوات قبل ثورة يوليو؛ وهم أغنياء إلى حد أنهم لم تعد تربطهم بأمه أية صلات اللهم إلا في المناسبات الضرورية، لكن اسمه واسم أبيه يرددان في أي نعي تنشره العائلة في جريدة الأهرام عندما يموت واحد منهم إذ يقولون: وصهر فلان الفلاني وابنه فلان رئيس حسابات هيئة كذا. ترى هل نشرت العائلة اليوم نعياً خاصاً بها؟ الواقع أنني مررت على صفحة الوفيات بسرعة فلم تتوقف عيني إلا على النعي الذي نشرناه باسم الهيئة مع صورة له..

- ((.. يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟))

ها هوذا زميلنا ((محمد عزوز)) صراف الهيئة يقبل نحو السرادق. هو الآخر يجيء متأخراً وقد أوشكت المعزى على الانتهاء؟ أشعر نحوه بكثير من الاحتقار والسخط لكنني مع ذلك فرحت بمجيئه، يكفي أنه الوحيد من الهيئة الذي أراه الآن في المعزى. ترى هل جاء غيرنا؟ لا شك أنهم جميعاً حضروا وانصرفوا، وقاموا بالواجب في عملية الدفن وإقامة السرادق. فجأة دخل ((عبد الرؤوف عجلان)) إلى الحجرة التي تضم مكاتبنا نحن الخمسة العاملين في قسم شؤون الأفراد؛ كان ممتقع الوجه لاهث الأنفاس زائغ النظرات يحمل بين يديه مظروفاً تطل منه أوراق مالية من فئة العشرات والخمسات: وقف وسط الحجرة قائلاً بلهجة حزينة متلعثمة بالحرج: ((يا جماعة! كل واحد منك يلافيني على الأقل بخمسة جنيه! فيه عجز كبير في الخزنة والواد محمد عزوز حيدخل فيها السجن مفتش الجرد قاعد مستني عشان يقفل الخزنة! اللي عنده أي اعتراض أو زعل من عزوز يأجله دلوقت! المهم دلوقت سمعة الهيئة لأن ده في وشنا كلنا! إنتوا عارفين إن دي مسألة ما فيهاش هزار! جايز يكون لكم رأي في عزوز إنه ملعب وبتاع ثلاث ورقات! لكن أنا شخصياً بأشوف إنه إهمال! نوع من الاستهتار والمعيلة!! وواجب علينا نديله فرصة المرة دي! عشان خاطر عياله بس! بعد كده هو الجاني على نفسه! يلا بقى يا خوانا اهرشوا في جناب كم آمال!)).

((.. يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام فبأي آلاء ربكما تكذبان؟))..

اختفى ((محمد عزوز)) في ركن قصي. أخذت أجول ببصري في السرادق بحثاً عنه. شد بصري شخص جديد أقبل؛ إنه زميلنا ((عبد الرحمن عرجاوي)) مدير العلاقات العامة في هيئتنا، مهياص كبير، يتنفس الكذب، لكنه مع ذلك لطيف وطيب ورقيق ولا بأس من عشرته إذ أنه مفضوح الكذب، كذبه نوع من الفشر والفشخرة والمعر الناتج عن تضخم في الشخصية؛ الطريف أن هذه الصفات فيه هى التي جعلت منه مدير علاقات عامة ناجحاً، يعطي للهيئة مظهراً فخماً. كان ((عبدالرؤوف عجلان)) يهرول فى اتجاه حجرة رئيس مجلس الإدارة حينما اصطدم بي وأنا خارج من دورة المياه: ((ما لك ملهوف على إيه؟!)). قال مشوحاً: ((الواد عرجاوي مسكين! تصور مخصوم منه عشرة أيام بعد تحويله للتحقيق؟ أصله كان كذب كذبة من المعر بتاعه كلفت الشركة خسارة كبيرة! تفتكر رئيس الهيئة حيوافق على رفع الخصم لو أنا دخلت كلمته؟ الواد صعبان علي والعشرة أيام كتير برضه يقسمو وسط المرتب! على كل حال أدخل له برضه وأتحايل عليه شويه! إن كان كده نبقى نلمهم من بعضنا في السر ونحطهم في الخزنة يقبضهم مع المرتب!))؛ ثم هرول نحو الحجرة..

ها هوذا ((عبد الرحمن عرجاوي)) يسلم على المستقبلين، الذين سلموا عليه في حرارة. كان من الواضح أنه يعرفهم واحداً واحداً.

- ((.. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟))..

بعينه الصقرية ذات الرموش الطويلة السوداء لمحني ((عبد الرحمن عرجاوي))؛ فأقبل نحوي متمهلاً بقامته الطويلة الرشيقة وأناقته المفرطة، ووجهه المزنهر بالحمرة كأنه يشرب كوباً من الدم صباح كل يوم، وبشعره المفلفل المتسق على جبينه وفوديه بمقص حلاق فنان، وملامحه الوسيمة المسمسمة. سلم علي وجلس بجواري: همس في أذني: ((أنت وحدك هنا؟!)). قلت: ((ومحمد عزوز)). قال مستنكراً، ((فقط؟!))، ثم أضاف: ((إحنا أصلنا أتأخرنا! أنا والله قطعت الإجازة وجيت من البلد حالاً!))...

- ((.. فيهما عينان نضاختان.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟)).

همست في أذنه: ((كان المفروض أن يقف جماعة منا بين المستقبلين! ألسنا أصحاب المعزى؟!)). احمر وجهه ولوى شفتيه في أسف: ((المفروض طبعاً)). قلت: ((هل تعرف أحد من الذين استقبلوك؟)). قال: ((ولا واحد)): كدت ابتسم. شدني منظر طائفة من المعزين مقبلة نحو السرادق، تبينت فيهم مجموعة كبيرة من

زملائنا في الهيئة، توقفوا أمام السرادق في ارتباك شديد؛ أوشك منظرهم أن يصير مضحكاً مثيراً للاستنكار؛ انزوى جماعة منهم في المنطقة المظلمة، لمحنا الآخرون فتشجعوا لإنهاء التردد، خاصة أن المستقبلين وقفوا تأهباً لملاقاتهم. دخلوا؛ تناثروا في السرادق كسحابة من الدخان، جاء بعضهم نحونا، ((سالم عيد)) و((سيف الكردي)) و((السيد زيدان))، جلسوا بجوارنا والقلق باد عليهم. مال نحونا ((سالم عيد)) وقال هامساً: ((أمال فين طارق وفيصل؟)). قلت: ((من يكونان؟!)). قال: ((إبنا المرحوم! ما شاء الله طارق في الثانوية العامة يعني لازم يكون هنا! دوروا عليه عشان نعزيه! حينئذ مال ((سيف الكردي)) وهو يكتم ابتسامة أسف حرجة: ((يا جماعة! هذه ليست معزى عبد الرؤوف عجلان! معزى عبد الرؤوف في السرادق المجاور!)). شعرت بغيظ يأكل قلبي: ((إزاي! أنا ما شفتش معزى تانيه هنا)). قال: ((أصلها معزى فقايري! عشان كده مش باينة جنب السرادق اللي احنا فيه داه!))..

رغم الشعور بالأسف تبسمنا في كثير من الضيق والتوتر، صرنا نستعجل المقرىء، لكنه شبك في قصار السور فسمرنا في جلستنا فصرنا كالفئران الحبيسة في المصيدة. قال ((عبد الرحمن عرجاوي)) في توتر: ((لا بد أن نلحق بأولاده ولو في آخر لحظة وإلا فمنظرنا ليس لطيفاً!)). حين صدق المقرىء وطلب الفاتحة كنا أول من وقف؛ أسرعنا إلى الخروج. هرعت في مساحة الضوء أبحث عن معزى ((عبد الرؤوف عجلان)). صاح ((سيف الكردي)) هاتفاً: ((أهه طارق أهه!)) واندفع مهرولاً نحو سيارة أجرة شرعت تتحرك حاملة ((طارق)) وأخيه. جرى ((سيف)) وراءها منادياً: ((طارق!))، لكن السيارة اندفعت مارقة في الشارع الخالي، ثم ما لبثت حتى اختفت. وقفنا خائرين كفلول جيش ضال، انضم إلينا الكثيرون من الزملاء؛ أخذنا نتابع العمال وهم يفكون حبال سرادق شديد التواضع خافت الضوء. وحين فوجئت بأنني مستلق وحدي على كرسي خلفي في سيارة أجرة تزأر على طريق الكورنيش كنت أغالب الرغبة في البكاء وأتمنى لو أنني لحقت بطارق عبد الرؤوف لأعتذر له قائلاً: لا تؤاخذني يا ولدي! فأبوك وأنا!.. كا نعزي في شخص آخر!

المرجع

مثلما يدق جرس الحصص بانتظام، ومثلما نواظب على الحضور يومياً ونتخذ مجالسنا خلف الأدراج، كان مدرّس الفصل يواظب على توبيخي دون ملل، وكنت أواظب - أيضاً - على هز الرأس في طاعة عمياء، والنظر حولي في حرج شديد، ومحاولة الاستمساك بالابتسامة المعلقة على شفتي خوف أن تسقط أو تنمحي فتنتصر الدموع..

يقف ناظراً إليَّ بما يشبه التهديد والوعيد، أخيراً يفتح فمه بالعبارة المنتظرة:

- طلعوا المرجع.

فترتفع موجة من الأصوات يحدثها انفتاح الأدراج وانغلاقها، بعدها يستقر الكتاب (المرجع) فوق كل الأدراج إلا درجي أنا وهو لسوء الحظ لصق درج المدرس مباشرة، مدرِّس الفصل يعرف مقدماً أننى بلا نسخة من كتاب ((المرجع)) وأننى كالعادة لم أفتتح درجي. مع ذلك يبعد نظرته عني إلى عمق الفصل صائحاً كأنه يعنيني أنا وحدي:

- افتحوا على صفحة كذا..

فتنبعث خرخشة الصفحات أما هو فيتراجع إلى الوراء مرسلاً إلى الوراء نظرته المنكلة التي صرت أكرهها قدر ما أرهبها، ثم يعاجلنى:

- أمال فين يا خوية المرجع بتا.. عا.. ك؟!

أتلعثم للمرة المليون، أبلع ريقي الناشف، أحاول اختراع سبب جديد:

- أصل.. أصل يا أستاذ.. ربنا يخليك.. أبويا.

ثم لا أعود أعرف إن كان ما يرتسم على وجهه ابتسامة أم كشف عن الأنياب.. أحس كأن مبنى المدرسة كله فوق دماغي. كلمات

المدرس تقرع رأسي تضربها في التختة:

- ده علم يا شاطر مش هزار.. السنة قربت تخلص.. ثم ده كتاب ثمنه تلاتين قرش. أمال لو ما كانش التعليم مجاناً كنتوا عملتوا إيه ؟.. عايزين كل حاجة ببلاش!.. جتكم البلا..

ثم يسحب نظرته عني في قرف، يخطو بين الصفوف، فيرتد ناظراً نحوي:

- لازم تجيب المرجع يا شاطر وإلا ما تجيش خالص..

يقذف الطباشير في الأرض يسحقها بقدمه صائحاً:

- الولد فلان يقرأ..

ويشوح لي في يأس قائلاً:

- بص مع اللي جنبك.

أكسر رقبتي ناحية جاري وأروح أنظر في مرجعه.

أصبحت أعرف ماذا علي أن أفعل حين يوبخني المدرس هذا التوبيخ، لكنني لم أكن أعرف ماذا علي أن أفعل حين يمتنع جاري عن اشراكي في النظر إلى مرجعه، مع أن هذا المرجع قد أصبح محفوراً في رأسي كلمة كلمة بل ربما كنت الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب كما يقولون، كنت دائم التودد إلى جاري، أبرطله بكل قطعة سكر أو عسلية تقع في يدي، فأصبح يعطي نفسه الحق في تفتيش ماخلاتي وجيوبي بحثاً عن شيء يأخذه. كل الأشياء التي أخذها مني – وما أكثرها – كانت ميسورة إلا ثمن كتاب (المرجع) وقد بكيت لأبي عشرات المرات، وهو لا يريد الاقتناع بأن نترك كتب الوزارة وندرس في كتب خارجية، فأقول له إنه كتاب فيه كل العلوم التي ندرسها ولكنها مختصرة ومنظمة، وأن فيه نماذج من امتحانات السنوات السابقات والإجابات عليها، وأن كل الأولاد اشتروه ما عداي.. فلا يفعل أبي شيئاً بل يبسط يده قائلاً في ألم:

- منين... أجيب ثلاثين قرش منين.. لو كنا نقدر كنا وديناك المدرسة إنما إنت اللى رحت لوحدك..

وكان لا بد أن أرفع قامتى فى الفصل، فصرت آذهب الى سوق البلد والأسواق المجاورة أساعد الناس فى حمل أشيائهم

المشتراة، فيعطونني قروشاً وملاليم أصرها في منديل محلاوي أربطه على وسطي، فلما تجمع لدي ما يزيد على القروش العشرة ذهبت إلى ولد من ولدان السنة الماضية وطلبت منه أن يبيعنى مرجعه القديم، كان قد تهرأ وفقد غلافه وصفحات كثيرة من بدايته ونهايته ولكنه كان حقيقة بين يدي حملته إلى الدار فسهرت الليل كله أفصل له غلافاً من الكرتون ألصقه بالدقيق العلامة حتى إذا ما أقبل الصبح ارتديت ثيابى اهتممت بنظافتها على غير العادة..

حملته وحده بدون مخلاة، تأنقت فى إبرازه، وكان أول شىء فعلته ذلك اليوم أن هزأت بجاري وجررت ((شَكَلُه)) حتى شتمني.. فمزقت له ثوبه وضربته بالشلوت والبونية ولم يخلصه مني سوى الجرس.

ما إن دخلت الفصل حتى وضعت (المرجع) على سطح الدرج ورحت انتظر في زهو دخول المدرس، ولكن الوقت مر بطيئاً ثقيلا، فات نصف الحصة، أخيراً دخل رجل جديد لم نره من قبل أبداً، قال إنه المدرس الجديد، ثم قال أنه سمع عن كتاب ندرس فيه اسمه (المرجع) فماذا يكون يا ترى، فعلى الفور تطلعت بإبرازه في زهو كبير: أهو يا أستاذ..

فتناوله وأخذ يتصفحه بإمعان ثم جلس في فرح صائحاً:

- طب طلعوا صفحة كذا.

فخرخشبت الصفحات وانفردت فأشار المدرس الواحد بعيد وأمره أن يقرأ، ثم نظر نحوي في اعتذار قائلا:

- بص مع اللي جنبك !

منزلة الشوق!

حدثني صديقي الطويل ((جودة أبو ظريفة)) أنه كان في تلك الليلة يعانى من حالة اشتياق شديد جداً لزوجته، حالة وصلت إلى حد الوجد المشبوب والشعور بالهياج العصبي المثير للغيظ أن زوجته لم تكن بالبيت ولا بالمدينة، كانت قد سافرت إلى الخارج لزيارة شقيقها المقيم هناك، وقد تعاهدا بالعين القوية عند لحظة الوداع منذ حوالي ثلاثة أشهر أن يدخر كل منهما للآخر زاداً كبيراً من الشوق لا ينفس عنه إلا عندما يحين اللقاء بينهما.

غير أنه لم يكن يعرف أن لحظات الشوق إن طالت تسبب كل هذا العذاب وتخرج الإنسان عن طوره فيفعل حركات صبيانية تكاد تكون فاضحة. وباعتباره رجلاً محترماً يبزغ الشعر الأبيض على فوديه ويظلل وجنتيه بمسحة من وقار الأربعين، فإنه تعود حين يركب الأتوبيس الذي يوصله إلى الضاحية البعيدة مقر سكنه أن يتجنب الإنحشار قدر الإمكان. وإن قضي عليه بالإنحشار - ولا بد أن يقضي - فإنه ينكمش على نفسه ويقشعر حين يلتصق به اللحم الأنثوي في غير مبالاة وتحتك بأعضائه احتكاكاً قوياً مستفزاً، ويروح هو يبحث لنفسه عن موضوع ملح يشغل به دماغه حتى يسرح بعيداً ولا يظهر عليه أي ردود فعل للإحتكاك، ولكن على كثرة ما في حياته من مشاغل ومشاكل تنتظم وقته دقيقة بدقيقة فإن جميع المشاكل والموضوعات تهرب كلها في تلك اللحظة ويبدو كأن ذهنه يعاني من البطالة. وكان في العادة ينجح في الاحتفاظ باحترامه لنفسه وبوقاره حتى المحطة الأخيرة، ثم يمضي إلى شقته في الشوارع الهادئة الساكنة التي لم تكتمل تقاطعاتها بعد ولم تمتلىء كل فراغاتها، فيتسلل إليه في ضوء القمر أو في الظلام الخافت شعور وردي بأن ثمة من سينشق عنها هذا السكون فجأة لتسأله المساعدة في شيء أو ربما سألته المبيت حتى الصباح.

وفي تلك اللحظة كان قد برح به الشوق فقرر تدبير سفرة سريعة يلتقي فيها بزوجته هناك ويعود بعدها بها أو بدونها أو لا يعود فكل ذلك يمكن مناقشته بعد أن ينتهي من التعبير عن شوقه العارم بكل ما في مدخرات الأيام الفائتة من رغبات وانتظارات حارة. وكان

القمر الساطع في السماء ليلتها يفضح ما في نفسه من أوهام حول السفر، أهمها أنه ليس معه من نفقات السفر مليم واحد.

ثم أن طائفة من الكلاب خرجت من إحدى التقاطعات تجري مهرولة في ابتهاج وشقاوة صبيانية، ولاحظ أنها جميعاً تجري وراء كلبة أنثى، ثم توقفت في الأرض الفضاء وصارت تتقافز فوق الرمال برشاقة، ثم تتسارع في ملاعيب مسرحية، فيما أقعت هي على مبعدة وراحت تتابع في شعور بالملل الساخر كأن كل هذه الملاعيب لم ترق لها. كأن هذه الاستعراضات لم تكشف لها عن الذكر الحقيقي الذي يملأ دماغها فتعطيه نفسها.

وجد نفسه مسمراً فى وقفته يتأمل المشهد بلذة فائقة يتقمص موقفها تارة وموقفهم تارة أخرى، فكان يبتسم مشجعاً لأحد الكلاب على مهارته في رد الخصم بالقوة، ويكاد يصفق لآخر على رشاقته في التصرف، ويكاد يحكم بفوز ثالث لتكامل جسمه وبنيانه. لكن الكلبة كالملكة ما تزال تقلب البصر في ملل وتنظر فيه هو شخصياً كأنها تقول له ولا أنت أيضاً يعجبني ذوقك.. لك مقاييسك ولي مقاييسي التي لا تفهمها أنت ولا تعرفها. ثم أمعنت في احتقارهم جميعاً واعتدلت واقفة ثم شمشت في الأرض ثم انطلقت تجري وحدها بسرعة فائقة، واستمرت بقية الكلاب تتعارك حيث انقلبت ملاعيب الفتوة واستعراضاتها إلى معركة حقيقية بينها.

أحس هو بالإحباط الشديد، فاندفع يمشي في أثر الكلبة محاولاً الإسراع قدر الإمكان. وإلى أن بلغها على الناصية الأخيرة البعيدة كان قد تجاوز التقاطع الذي يقع فيه مسكنه وكان كلباً آخر خرج من مكان ما على غير موعد، وكان مهزولاً وليس في شكله أو هيكله ما يوحي بالإغراء، وكانت هي قد جلست على مؤخرتها مستندة بأماميتيها رافعة رأسها في اتجاه الكلب المهزول كأنها تقول له: تعال أين كنت ؟.. الكلب المهزول أخذ إتجاهه نحوها مباشرة وبدأ بينها ود عظيم.

لا بد أن أنامل الود العظيم تزحف فى صدره لتعزف عليه لحن الهدوء والخلود والأمان. وكان ليس فقط يتابع لكلبين اللطيفين بل يباركهما من كل قلبه ويخفق قلبه بالأمل، لكن لحظة الإلتحام ما كادت تبدأ وتتحقق حتى انشقت الأرض عن كلب أسود زري الهيئة غليظ خشن الصوت، غوغائي، اندفع نحو الكلبين اللطيفين في عدوانية شرسة، فانقض عليها فاتكاً دونما تفاهم، عقر الكلب المهزول فارتمى بعيداً يعوي، وخمش بأظافره الكلبة المحبة فانسربت خجلي تعض على نواجذها من الألم.

غلا الدم في عروق صاحبي. ولو كان في يده مسدس لأطلق النار فوراً على هذا الكلب الحقير الزري. ما غاظه أكثر وأشعل النار في قلبه أن الكلب الأسود الزري اندفع بكل همجية نحو الكلبة طامعاً أن يستأثر بها وحده، ولكن ذلك كان محالاً في نظر صاحبي.. لقد قرر أن ينتقم منه شر انتقام.. فرمى بحقيبته على الأرض، وجمع كومة من الطوب والزلط، ثم اندفع يطارد الكلب الزري وينشن عليه في مقتل، والكلب يتلقى قذائف الطوب متتالية، فيلهث صارخاً متوجعاً، لم يوقفه سوى طوبة قاسية في قدمه السفلى أعجزته فانطرح على الأرض يعوي.. فارتد صاحبي وقد شعر براحة كبيرة.

بحث عن الكلبة فوجدها تقف هناك بعيداً جداً، فظل يقترب منها، فإذا بها واقفة بجوار حقيبته التي كان قد تركها في مطاردة الكلب الأسود. فوقف ينظر إليها في امتنان. وبعد برهة جاء الكلب المهزول يتقافز في مرح ويؤدي أمام الحقيبة وصاحبها رقصة الإبتهاج الكبير. لكن صاحبي كان غافلاً عن ذلك كله في أول الأمر، كل أعصابه معلقة متوترة فى انتظار أن يستأنفا اللقاء من جديد. غير أن وقفته طالت باخت فحمل حقيبته ومضى عائداً إلى بيته، وعندما اقترب من بيته نظر بجواره فرأى الكلبين يمضيان وراءه مباشرة، أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، فنظر إليهما وابتسم.. فظلا يلاحقانه في حراسة مشددة حتى اختفى في الدار.

قيام الواجب

لو كانت المشيخة بتطويل اللحية وتقصير الجلباب والحرص على أداء كافة الفروض الدينية في أوقاتها المعلومة؛ أو بالتفقه في علوم الحديث والتفسير والشريعة وما إلى ذلك، لما استحق أبويا عبد المعطي أبو حسين القزاز من هذه المشيخة مثقال ذرة. إذ أنه لا يحمل من هذه الصفات أي شيء على الإطلاق، ومع ذلك تعطى له، لله في الله، وليس يعرف أي أحد في بلدتنا، ولا هو نفسه، متى درج الناس على تلقيبه بالشيخ، دون شبهة سخرية أو تريقة أو مَقْلَتَه. إلا أن ذلك فيما يبدو قد بدأ منذ وقت بعيد جداً لعله من طفولة أبويا عبد المعطي أبو حسين القزاز. المشيخة تمضي معه في كل مكان يذهب إليه، حتى إذا طالعه شخص لم يسبق له معرفته من قبل واضطر لمخاطبته فإنه بتلقائية شديدة يقول له يا عم الشيخ: ربما لأن سمت أبويا عبد المعطي أبو حسين فيه شفرة السر التي تنطق بالمشيخة على أصولها رغم عدم وجود زبيبة الصلاة في جبهته، أياً ما كان الأمر فإن لقب الشيخ قد بات جزءاً من اسمه كأنه مدوّن في شهادة ميلاده، ينادي به في قعداته التي لا تنتهي صبح مساء، ليل نهار؛ وفي سرحاته الليلية التي يدبر فيها الفصولات الشقية لخلق الله على شطآن الترع والمصارف وغيطان الذرة، ليمتع نفسه وشلة مارقة من صحابه العابثين مثله بمنظر الفزع يدب في الناس الآمنين السائرين في حالهم، بمنظر شخص كان يدعي المرجلة فإذا هو ينكفىء في مسطاح المصرف صارخاً من الرعب يبول على نفسه، بمنظر خفير مغرور بحكم البندقية واللبدة الحكوميتين إذ يتملكه الخوف فيفرغ جعبة ذخيرته الحكومية في حصير مبروم وواقف في الجرن يتحرك بفعل خيوط خفية ممسوكة بأيد تختفي في مكان بعيد.. هي مسخرة في مسخرة يموت فيها أبويا الشيخ عبد المعطي أبو حسين القزاز؛ يفقد فيها كل وقاره بل إنه لا يعترف أصلاً بما يسمونه بالوقار؛ لا يتورع عن لبس جلابيب النساء ولف الرأس بطرحهن ليتقمص شخصية النداهة التي يجب أن تتسلل في الهزيع الأخير من الليل إلى بيت فلان الفلاني تناديه بهمس واعد حلو تدعوه إلى صحبتها لمرافقتها في أي مكان يشاء: ((عايزاك في كلمتين صغيرين! أنا فلانة مانتاش عارفني يا فلان؟!))؛ فيمضي معه الموعود بالعذاب؛ يلف به أبعد الغيطان وكل الخرائب

بحجة البحث عن بقعة آمنة، حتى يكل صاحبنا من المشي وتأجج الانتظار، ثم ما يلبث حتى يفاجأ بما يثير جنوه، بأصبع خبيث يبعبصه في مؤخرته بسرعة مفاجئة فيتلفت حواليه منتفضاً صارخاً كالموتور؛ فما يكاد يمضي خطوتين حتى يفاجأ بأصبح آخر يحاصره أينما لف يجده، ففي اللحظة التي يرتفع فيها صراخه بطلب النجدة تكون النداهة قد دفعته إلى عشة نائية: ((خش هنا يا حبيب قلبي متخافش! دانا باهزر معاك!))؛ وتتركه وتختفي في الحال. هو ونصيبه حينئذ، حسب قدرته على الاحتمال، بعضهم يظل يهذي في العشة وحده حتى الصباح؛ بعضهم بارد القلب يخرج بعد فترة ليقفل عائداً إلى داره منتفضاً متلصصاً يبسمل ويحوقل ويقرأ عدية يسن.

الأعجب من ذلك كيف ينتقل الخبر إلى أهل البلدة في الصباح الباكر في حين أن أبويا الشيخ عبد المعطي أبو حسين القزاز لم يؤت فرصة مقابلة أحد يبلغه الخبر؛ كما أن الموعود بالفصل السخيف ربما لم يفضح نفسه بنفسه بصياح أو جعير؛ إذ هو في العادة يبقى نائماً حتى الضحى العالي لا يستطيع أن يلم نفسه من الفرشة. وهكذا أيضاً أبويا الشيخ عبد المعطي بعد أن يفعل فعلته يظل نائماً ولا على قلبه خبر بأن الدنيا من وراء ظهره مقلوبة تتحدث عما جرى لفلان الفلاني بالأمس..

بمجرد خروج الموعود بالفصل البايخ من عتبة داره يجد الحادث يبرق في أعين جميع من يلتقيهم؛ الكل يبدو أنه يكتم في نفسه خواطر مثيرة للضحك، ربما نشط الخيال فضخم الحادث أضعاف أضعاف حجمه، ولكن حسب درجات العشم، ومركز الشخصية في البلد؛ فلقد يظل الواحد منهم يضحك بعمق غير عابىء بأن صاحبنا قد انجرح أم لم ينتبه؛ ولقد ينجح في كتم الضحك حتى يبتعد صاحبنا، لينفجر حلقه بصوت كحشرجة الكلاب عندما تكشر عن أنيابها لحظة الغضب، فإذا مر صاحبنا بمصطبة في الطريق العمومي بدا الجالسون عليها كأنهم كانوا في انتظاره من صبيحة ربنا؛ يردون عليه السلام بحماسة مبالغ فيها، يشددون في العزومة عليه بكرم حاتمي أن يتفضل الشاي؛ هيهات أن يفلت منهم بأي عذر أو حتى باصطناع الغضب. إن أفلت بمعجزة من أي مصطبة فإن ذلك مستحيل عليه بالنسبة لمصطبة دارنا، التي ربما هي أشهر مصطبة في البلدة كلها...

أبويا الشيخ عبد المعطي أبو حسين القزاز هو الراقوبة التي يبيض فوقها المساء رجالاً ضاحكين عديدين. الوقت ملكه؛ فهو يملك أرضاً يزرعها أولاده الأشداء الذين هم في الأصل أولاد أعمامي ويدخل ضمنهم في نظره إخوته الصغار من أعمامي. يقضي النهار

على هذه المصطبة يذب الشرد أو الذباب عن وجهه، يعيد تبليغ عبارات المؤذن فوق جامع العصاروة القريب من دارنا، مرسلاً كل عبارة بعبارة من عنده تستغفر، تدعو بالستر، تطلب غفران الذنوب، تستشفع بالنبي في رد عذاب الآخرة المتوقع، تستهول نيران جهنم الحمراء. ضمن ذلك يوقف أي عركة تنشب، إذ مهما تعظم شأن العركة وارتفع اللجاج بين المتعاركين لدرجة تنذر بطلوع النبابيت، فإن كلمة واحدة منه - ينطقها بحرفنة عظيمة - لا بد أن توقفها في الحال مع أن العمدة نفسه لو ظل ينطق نفس الكلمة طول النهار فلن يأبه له أحد. إن لم تنفع الكلمة فشخطة حادة تحسم؛ فإن لم تبلغ الشخطة سمع الموتورين فقفزة سريعة عن المصطبة يصير بها في قلب العركة فاصلاً بين الأطراف وهو على أتم ثقة أن أحد الطرفين لن يجرؤ على دفعه بعيداً لينقض على خصمه، بل سوف تتهدل أعصابه في الحال ويمتثل خازياً الشيطان. غالباً ما يعود الأطراف كلهم في نهاية الشوط إلى المصطبة للتحقيق في أصل السبب وفي حله من جذوره بشاي يشربونه جميعاً من براد واحد. فإن لم تكن عركة فإن أبويا الشيخ عبد المعطي لا بد أن يجد ما يفعله في قعدته؛ يرشد الغرباء إلى الطرق الصحيحة الموصلة إلى أغراضهم؛ يتصيد شروة سمك تفوت بها امرأة صياد تحملها في طبق أو مصفاة مغطاة بورق الخروع، فيناديها قائلاً: ((ورِيني يا أم فلان!)). فإذا هي تنزل الشيلة عن رأسها وترفع الورق؛ فيبسمل ناظراً في الشروة بعينيه الضيقتين نظرات تعبر شاربه الضخم المنقوش وأنفه المدبب، تتقبض جبهته المتغضنة تحت عمامة محندقة بشال حول طاقية صوفية كأصيص مقلوب؛ ثم يقول: ((يلا بالبركة! وديهم للعيال!)) مشيراً بكوعه إلى باب الدار المجاور للمصطبة؛ يتبع الإشارة بصيحة: ((يا بت يا فكيهة!))؛ فما تكاد، أي فكيهة، تخف لتلبية النداء حتى يكون قد حدد السعر الذي سيدفعه، ويبدأ الفصال من تحته ببضعة قروش؛ لتظل المرأة تردد خلفه: و((يفتح الله!)) إلى أن يصل لما حدده فلا يرتفع عليه مليماً واحداً. ثم ينصرف إلى تدبير الحيل لتصيد الرجال كي تجلس معه، بأن يضع صينية الشاي بالبراريد والأكواب وطبق من القراقيش الناعمة كالبسكويت بجواره على الدوام، ليقول لكل فائت ألقى عليه السلام: ((الشاي اهه! جاهز وسخن! حود حود والله لتحود!)). لا بأس أن يدخل الشاي الدار للتسخين أو للتجديد طالما أن الضيف قد تم اصطياده، ترك بلغته على الأرض وتربع فوق الحصير الجميل ومن خلفه المساند الوثيرة.. الشاي يسحب شايات، والسلام يشد رجالات، تصير الزَّرِبية كلها كمهرجان يومي تحت شمس الأصيل القرمزية كبطن الخيمة المضاءة؛ تطرح المصطبة ملاحق وقعدات إضافية حولها بحصير على الأرض أو بدكك خشبية عتيقة تسحب من المندرة مجرجرة إلى جوار

المصطبة؛ تنتعش الحكايات والنوادر والطرف والأخبار، يتألق الفرافير البارعون في التشخيص والمقلتة. يا ويل من تعرض للفصل البايخ إذا مر لحظتئذ؛ فأر أغلقت عليه المصيدة؛ إلا أن الجميع بوحي من أبويا الشيخ عبد المعطي يستقبلونه في جدية كأنهم لم يعرفوا أي شيء عما حدث وتمر لحظات طويلة يأمن خلالها صاحبنا ويطمئن ويندمج معهم في الحديث الكلي وفي الضحك. وفي عز اندماجه في الآنبساط يعتدل أبويا الشيخ عبد المعطي في قعدته، يميل نحو صاحبنا كأنه يحدثه عن شخص آخر مجهول:

- ((يقولون إن هلفاً وقع بالأمس في يد النداهة! ألا تعرف من هو يا فلان؟!..

عندها يحمر وجه صاحبنا يصير كالكبدة، يطرق بوجهه إلى الأرض؛ يحاصره أبويا الشيخ عبد المعطي:

- ((وبعد يا رجال؟! لقد استفحل خطر النداهة والناس مع ذلك يصدقونها حينما تعود فتناديهم! أصلها نداهة بنت حرام تنده لكل واحد منهم بما يريده ويصدقه!))..

وهكذا ينخرط السامر في ضحك عاصف، حتى المضحوك عليه لا يجد مفراً من المشاركة في الضحك على نفسه وعلى كيفية استغفاله؛ يضحك بصدر رحب، في غير حقد أو غيظ، لأن أبويا عبد المعطي أبو حسين القزاز لا بد أن يغسل له صدره أثناء تريقته عليه؛ يكفي أن ينظر المغيظ إلى أبويا الشيخ عبد المعطي وهو مندمج في الضحك، إذ يتحول وجهه الملوح بالشمس إلى وجه طفل غاية في البراءة والصفاء، ولا يني يرداد خلل ضحكه المنطلق المنفعل بالبهجة والغبطة عبارات متقطعة جذلة تفيض بالحبور والسرور والحب:

- (لمؤ.. ا.. خذه الـ.. كلا.. م... مباسطة! كلنا في النهاية إخوة مفيش حاجة! بس و... لا.. د الـ.. حرام اللي.. سارحين في البلد دو. ل.. لازم.. نوقفهم عند حدهم! دول حيخلصوا على رجالة البلد! دي مصيبة حلت علينا!)).

ويمسح دموع الضحك بظاهر يده، المغيظ الذي صار الآن مستعداً لغفران ما حدث له؛ لم يعد يغيظه سوى شيء واحد: أن يكون واثقاً بينه وبين نفسه ومن شواهد كثيرة أن أبويا الشيخ عبد المعطي هو الذي فعل به ما فعل؛ في حين أن أبويا الشيخ عبد المعطي ليس فحسب ينفي عن نفسه التهمة بثقة راسخة الأعصاب، بل يصب

جام غضبه على فاعل مجهول غريب عن بلدتنا برمتها. إلا أن المغيظ في النهاية لا بد أن يمضي وقد اقتنع بشكل ما أن أبويا الشيخ عبد المعطي ليس هو الفاعل مطلقاً؛ فليس من المعقول أن هذا الرجل العجوز الشايب يمكن أن يفعل هذه الأفاعيل الصبيانية الصغيرة الخطرة في بعض الأحوال، التي لا يفعلها سوى الصياع وقطاع الطريق الغرباء الأشرار؛ لا سيما أنه غير مستفيد على الإطلاق من فعلها، ليس يسعى من ورائها إلى مكسب أو سلب أو نهب أو كيد أو انتقام، اللهم إلا سبيل الضحك فحسب، كي تظل قعدة المصطبة قائمة على الدوام تؤنس ليالي البلدة بنوادر الأخبار والطرائف، والأخذ والرد والحديث الشهي بأصوات منطلقة مبحوحة من فرط الحماسة والانفعال البهيج، حيث الضحكات تندلق من الصدور إلى الصدور بغير حساب..

إنما كل الناس في بلدتنا دائماً أبداً مستعدين لغفران هذه الفصولات التي يفعلها أبويا الشيخ عبد المعطي؛ إلا أبي المدرس بالبلدة. وبقية أعمامي الفلاحين، الذي لا يرضيهم هذا اللعب العيالي من رجل كبير مثله:

- ((يا أخي أكبر بقى! بطل شغل المصغره دي! ضحكت علينا اللي يسوي واللي ما يسواش!)).

هكذا كان يقول له أبي في لحظات الصفاء خاصة بعد تناول العشاء على طبلية واحدة أيام الأسواق والمواسم، فيؤيده أعمامي كل واحد بكلمة، حتى أعمامي الأصغر سناً في عمر أولاده يوافقون على هذا الزجر من أبي، ولكن بالصمت وهز الرؤوس علامة التأييد. لكنهم جميعاً - بما فيهم أبي نفسه - لا يمكن أن يكونوا جادين في هذا، لأنهم يكتمون الضحك حتى وهم يعترضون: إذ تصحو في الحال أخبار ونوادر وحكايات بسبب فصولات أبويا عبد المعطي تشد حبال الضحك على آخرها حتى ليستلقى أبي نفسه على قفاه من فرط الضحك؛ في حين يفقد جميع أعمامي وقارهم وهم يخبطون بأكفهم على جباههم أو يخلعون الطواقي ليقذفوا بها على الأرض من شدة الانبساط؛ فيما يتابعهم أبويا الشيخ عبد المعطي في جدية بالغة. في هذه اللحظة بالذات يتحول إلى شخص آخر تماماً، هو الوحيد الذي لا يضحك حينئذ بل يشفي غليله بالنظر إليهم في استنكار؛ إمعاناً منه في الإيهام بأنه ليس مسؤولاً عن هذه الأفاعيل الصبيانية التي يتحدثون عنها. ولربما يكون أحد الرجال قد اشتكى لأبي بالأمس؛ وإذ يضطر أبي للتصريح بهذه الشكوى، يسحب أبويا الشيخ عبد المعطي نفساً من سيجارته الرفيعة ويشوح بذراعه الطويلة نحو الخلاء فيما هو متربع:

- ((طب أهو فلان الفلاني ده سهران معايا امبارح لأذان الفجر مجابليش أي سيرة للموضوع ده! يا عام دي ناس بتخاف من خيالها! بتهر على روحها لو قلت لها: بخ! وعلى العموم اللي يضبطنى ويمسكنى باليد حلال عليه قتلى!))..

يعرف أبي أن هذا لن يكون، لأنه فشل كما فشل كل أعمامي في ضبط أبويا الشيوخ عبد المعطي متلبساً بإحدى أفاعيله، مع أنهم تعقبوه كثيراً وسهروا من ورائه طويلاً حتى سئموا من حصاره، ومع ذلك يسمعون في الصباح الباكر أن فلان الفلاني قد حدث له بالأمس كيت وكيت، وجدوه متكوماً على نفسه في مرحاض المسجد، وجدوه يهذي عند ساقية الوقف، وجدوه عارياً في الخرابة، وجدوه يتسلق دار النصارى بحثاً عن كنز مزعوم. حينئذ يكون أبي وأعمامي أول المنطلقين في الضحك؛ حتى ليبدو أبي منخرطاً في البكاء الحاد إذ هو يضحك بصوت مكتوم؛ يضحك رغماً عنه؛ لا سخرية مما حدث فحسب، بل سخرية بنفسه وبإخوته الذين تعقبوا بالأمس أبويا الشيخ عبد المعطي حتى الصباح ومع ذلك أفلت منهم خلسة ليفعل ما فعل..

غير أن أبي كان واثقاً أن أحداً في البلدة لن يكره أبويا الشيخ عبد المعطي أو يسعى إلى الانتقام منه بأي حال من الأحوال. ولم يكن أبي ليقسوا عليه؛ فهو في النهاية أخوه الأكبر. صحيح أن أبي بحكم كونه مدرس وأفندي يلقي الاحترام والتوقير من الجميع ولا أحد يخاطبه إلا واقفاً؛ إلا أن العين لا تعلو على الحاجب؛ ثم إن أبويا الشيخ عبد المعطي - وهو الأكبر – هو أول من يوقر أبي ويقدمه على نفسه في كل شيء حتى لقد تنازل له عن دور كبير العائلة، توقيرا للعلم الذي حصله أبي في المدارس حتى شهادة الكفاءة، وبالأخص للقرآن الذي يحمله كله في صدره..

على أن البلدة كلها؛ رغم ضيقها الشديد من فصولات أبويا الشيخ عبد المعطي، ترخى الحبل دائماً إذا ما احتدم العتاب بين واحد منهم وبينه، حتى لا يصل العتاب إلى مرحلة الخلاف ويقفز الخلاف إلى العراك، وهو أمر لا يتصوره أحد في بلدتنا - فإن نسي أحدهم في غضبة الانفعال وأوشك أن يفقد أعصابه ويسف في الألفاظ؛ سرعان ما يخف الآخرون لتنبيهه، ففي الحال يموت الخلاف في مهده قبل أن يتجاوز نطاق فرد لفرد ليصير بين عائلات لا يستهان بشأنها.

وفي الواقع ليس هذا السبب وحده ما يعتقل الخلاف ويمحوه؛ إنما السبب الحقيقي الذي يعرفه الجميع ويفخر به أبي وأعمامى، أن أبويا الشيخ عبد المعطي هو - ويا للعجب - النجم الأوحد في

بلدتنا، المتخصص في فض المنازعات ووأد الخلافات بين الناس، ليس فحسب بين فرد وفرد، بل بين بلدة وبلدة. هو في هذه المهمة موهوب صاحب عبقرية لا يدانيه فيها أحد في بلدتنا أو بلاد اللعب كله. صاحب حيل بارعة ذكية لا تنتهي أبداً، وصاحب لسان ذرب طليق، وعبارة موزونة مشحونة مؤثرة حاسمة، ليس فيها لت أو ثرة. ولقد تستيقظ الفصول الهازلة في ذهن من يستمع إليه - بل هي مستيقظة على الدوام - لكن المستمع له ينظر في عينيه حينئذ فلا يجد فيهما سوى الجدية الباعثة على الثقة والصفاء الباعث على النسيان. ذلك أن كلامه الممنطق المحكم المليغء بالصدق والحرارة يملأ دماغ المستمع؛ إذا أن أبويا الشيخ عبد المعطي يدخل في الموضوع مباشرة، فيخترق ذهن المستمع يفاجؤه بأنه يعرف ما يفكر فيه الآن على وجه التحديد وما يود أن يقوله: يصرح له بأن الرد وضوح، وأين أذنك يا ١٤٩ الحقيقي الأمثل على ذلك يكون كذا وكيت بكل جحا؟ قال: من هنا، ويلف ذراعه حول رأسه ليمسك الأذن البعيدة، تعبيراً عن السخرية من جحا الذي كان بإمكانه أن يلمس بيمناه أذنه القريبة من يمناه، ثم إن أبويا الشيخ عبد المعطي يسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية حتى ولو كانت باعثة على الخجل أو الحرج، لا يهمه وجود حريم، لا يختشي من عمدة أو إمام مسجد أو شيخ طريقة. ولقد يتحرج الوقورون والوقورات وربما وضعوا أيديهم على آذانهم أو عيونهم من فرط الانزعاج والخجل من لفظ قبيح أو تعبير حاد لم يتعودوه في أي حديث بينهم، تقشعر ملامحهم من شدة كتمان الضحك؛ إلا أنهم سرعان ما يكشفون عن أعماقهم الموافقة على هذه اللهجة لأنها رغم شكلها الصارم تريحهم تماماً إذ تضع النقط على الحروف تؤكد صدقه إلى حد الأنفة من تجميل الشيء بلفظ موارب أو مرواغ؛ من هنا فالمعاني عنده دائماً محدودة وقاطعة، خاصة إذا كان الحديث في أمر تحقيق الحقوق وجلسات المصالحة؛ ولا ينسى أحد أن ألفاظه العارية وعباراته الساخرة هذه كثيراً ما فثأت غضب المتخاصمين فمزجتهم جميعاً بضحكة واحدة صاعقة صافية يصعب بعدها استئناف لبس قناع الزعل، ويسهل الاسترسال في عبارات الأريحية الميالة نحو التصالح يدعم ذلك أن لديه مخزن لا ينفذ من الحكايات القديمة والجديدة تبدو كأنها كلها من تأليفه يقحم فيها عمر بن الخطاب وسيدنا علي وأبا حنيفة والإمام الشافعي أو سيدي إبراهيم الدسوقي أو السيد البدوي؛ لأن أحداً غيره لا يعرفها؛ وجميع المشايخ المحترفين والمتنورين لم يقرؤوها في مصادرهم وأمهاتهم؛ و كلها حكايات تنتهى نهايات محبوكة على الموقف الراهن دامغة صارمة، تحض على الحلم وتبين مخاطر الغضب وعواقب الاندفاع وفضيلة الاعتراف بالحق ومكرمة العفو عند

المقدرة، وضرورة انتقام السماء فعلى الباغي تدور الدوائر، والعدالة الإلهية التي بني عليها الكون، هل أتاكم حديث ذلك الرجل المؤمن الذي نزل ضيفاً على أحد معارفه في غيبته فزاغت امرأته في عينيه وزاغ فى عينيها فهمت به وهم بها لولا أنه تذكر برهان ربه فاستغفر وصان نفسه من الخطيئة؛ فلما عاد إلى داره رأي زوجته في حالة اضطراب غير طبيعية فسألها عما يكربها فقصت عليه كيف أن السقا جاءهم بالماء اليوم، فلما شعر أن رب الدار غائب تطاول عليها فغازلها بمعسول الكلام حتى كاد يستميلها لولا أنها ردته بخشونة ولقنته درساً قاسياً؛ حيثنذ اتعظ الرجل المؤمن وصفق كفا على كف وهو يقول: ((دقة بدقة! ولو زدنا كان زاد السقا!))؛ نعم يا جماعة؛ داين تدان، العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم. إلى آخر هذه الحكايات والطرائف التي تمتلىء بها جعبة أبويا الشيخ عبد المعطي أبو حسين القزاز..

كثيراً ما يمر على مصطبته في عز الليل ناس منهمكون في المشي بحماسة وانفعال؛ فإذا هو قائم يعترض طريقهم، يجبرهم على رمي السلام، وعلى الطلاق بالتلاتة لتشربوا الشاي، وشاي في حكاية، ومثل في آية، وموعظة في حديث، يمضي الوقت؛ وفي النهاية ينصرفون وقد داخلهم ما يشبه اليقين بأنه كان على علم بأنهم ذاهبين لتقليع زرعة أو سرقة زريبة أو التربص بغريم، وأنه عمد إلى تعطيلهم حتى تضيع الفرصة فيثوبوا إلى رشدهم. مهما يكن من أمر فإن قعدته الليلية هذه على المصطبة أمام الدار كثيراً ما لعبت دوراً في وأد جريمة في مهدها، أو في تدبير مؤامرت تكشف عن طوايا نفوس صافية لنفوس صافية آخري كانت متخاصمة، فتعيد وصل ما كان انقطع بين نفوس ونفوس..

مؤامرة بريئة كهذه فضت خلافاً بين عزبتين مجاورتين؛ ومثلها قضت على عداء متحكم بين بلدين. يعزم على الغداء في منزل أقطاباً من عائلات المتخاصمين دون أن يعلم هذا بحضور ذاك؛ وعلى طبلية الغداء يتم التصافي بكل الحيل الجميلة والطرق القصيرة. شيئاً فشيئاً – وبأساليب جهنمية – يسعي للربط بين عائلات المتصالحين حديثاً في مصاهرات، يغري هذا بخطبة ابنة ذاك لابنه، ويساهم في تذليل أي عقبات تنشأ في سبيل إتمام الزيجات، ربما تعهد لنجار الموبيليا بضمان بقية فلوسه، ربما ابتدع صيغة لكتابة قائمة العفش ترضي الطرفين، ربما تطوع بمحاسبة المغنين أو الطباخين، وربما أرسل النقوط خروفاً ثميناً أو أردباً من الأرز..

الحق كل الحق أن ذاكرة الناس في بلدتنا أصبحت تربط بينه وبين النقيضين في صورة محيرة: السعي بين الناس بالصلح،

والسعي فيهم بالهزل والمسخرة. إلا أن عقلاء بلدتنا كانوا يؤكدون أن هذه الأخيرة جزء من تمام الأولى؛ وبهذا أراحوا أنفسهم واعتبرواه قريناً لفعل الخير بوجه عام..

لهذا، لم يكن أحد في بلدتنا أو في العب كله يتوقع أن أبويا الشيخ عبد المعطي أبو حسين القزاز ينتهي هذه النهاية الفاجعة؛ بل لم يكن ليرضاها له أحد على الإطلاق. ذلك أن أبويا الشيخ عبد المعطي أبو حسين القزاز قد قتله أشباه الرجال في غفلة من الزمن في فصل هزلي لا يقل خرقاً ولا طرافة عن فصوله الهازلة التي طالما افتتن بتدبيرها والقيام بتنفيذها بنفسه: كان بكري خفير التفتيش الغلبان المكسور الجناح قد اشتكى له من خليل البقال، الذي دأب على مغازلة امرأته الجميلة وإغرائها بارتكاب الفحشاء معه أو تطلق نفسها من بكري لتتزوجه. وكان أبويا الشيخ عبد المعطي يعرف أن وهيبة زوجة بكري امرأة جميلة بالفعل وتساوي رقبة عشرة مثل بكري وخليل معاً، هكذا يقول له دون حياء، لكن هذه نقرة وهذه نقرة، الحق حق، ونجاسة الذيل نسبة للبلدة كلها. وهكذا أقسام أبويا الشيخ عبد المعطي لبكري خفير التفتيش أن يجعل خليل البقال يتوب عن هذا الفعل على يديه توبة نصوحاً، ليجعلنه يفقد الخلفة يصبح هو والمرأة سوء. وبعد منتصف الليل ترك جلاسه الساهرين معه على ذمة أن يفعل مثلما تفعل الناس ويستنجي ويتوضأ لصلاة الفجر؛ ثم دخل الدار، ثم تسلل من الباب الخلفي المطل على الغيطان، بعد أن لف جسده بالملس الحريمي ولثم وجهه بالطرحة، وزرق في الحواري الموصلة لدار خليل البقال الجديدة المبنية بالطوب الأحمر على شاطىء مصرف نمرة تسعة. وتحت شباك الحجرة التي ينام فيها خليل كمن أبويا عبد المعطي حتى رأي خليل البقال قادماً بعد تشطيب الدكان يتخبط في الظلام يدوس فوق الكلاب النائمة. ناداه في همس وغنج: ((سي خليل! سي خليل!)) ففزع خليل وبصق في عبه: ((بسم الله الرحمٰن الرحيم! مين؟!))

- ((هش ش ش! وطي صوتك يا سي خليل!.

متخافش دانا وهيبة! جوزي بايت في التفتيش الليلة وبكره وبعد بكره! الدار خالية وأمان! تعالَ ورايا!))

ومضى أبويا الشيخ عبد المعطي كشبح يتقصلع في الظلام ويطرقع اللبانة في فمه - كإحدى أبرز سمات وهيبة - ويطرقع بالشبشب في كعبيه، ويكاد لبراعته في التمثيل والتقليد يكون وهيبة بذات نفسها بمشيتها المعجبانية المعروفة.. ومن خلفه

مضى خليل البقال يتراقص من الفرح والغبطة لاهث الأنفاس خشية أن يتوه الشبح من عينيه بين أحراش الحلفاء وأعواد التيل والبوص وشجر الجزورين؛ حيث اخترق أبويا الشيخ عبد المعطي دروباً مختصرة تخترق غيطاناً وحدائق وتعبر قنوات، تجنباً للخوض في حواري وسط البلد حتى لا يراهما أحد؛ مما ضاعف من مصداقية الملعوب، حيث قد وقر في ذهن خليل البقال أن المرأة اللعوب جادة في دعوته والوصول به إلى دارها في أطراف البلدة من الناحية القبلية..

الذي لم يكن يعلمه أبويا عبد المعطي أن وهيبة كانت قد تواعدت بالفعل مع خليل البقال ولكن بالإشارة فحسب؛ إذ كانت في دكانه في الضحي تشتري شريطاً لمبة الجاز نمرة خمسة وذكرت له أن بكري سيبيت الليلة في التفتيش في حراسة ماكينة الري، وأنها تخشى المبيت وحدها في الظلام ولهذا جاءت تطلب شريطاً للمصباح، فأعطاها الشريط بالمجان، ونخبة من فصوص اللبان النتاية، حفنة من اللب والسوداني للتسلية، وشريحة من الحلاوة الطحينية، ولم تكن المسكينة تعرف أن زوجها بكري المكار قد أوهمها بأنه سيبيت في التفتيش لكي يفاجئها في الليل، فبعد أذان العشاء صفرت عليها الدار، ورسم لها ضوء المصباح على الحائط أشباحاً من المخاوف، فتذكرت أن خليلاً البقال وهو يغمزها بالهدايا قال لها: ((يمكن أفوت أشرب الشاي معاكي!)) فردت عليه قائلة: ((تشرف البيت بيتك!)) لأنها كانت واثقة أن خليلاً البقال لا يمكن أن تواتيه الجرأة على فعل شيء كهذا، وواثقة أن ردها هذا مجرد واجب كلامي لا أكثر ولا أقل؛ إلا أنها استعادت ضغطة يد خليل على يدها، والشبق المجنون في عينيه، والحرارة الواثقة في صوته، فاقشعرَّ بدنها، فخشيت أن يركب خليل عقله فيفعلها ويجيء تكون الفضيحة، استعادت شريط خليل من يوم ما بدأ يعاكسها فتمثل لها شيطاناً مجنوناً يمكن أن يفعل أي يفعل أي شيء لينام معها بأي شكل؛ فرأت أن أسلم شيء تفعله أن تقوم الآن فتذهب لتنام مع أمها العجوز الوحدانية في دارها في عزبة العبيد؛ فسحبت الملس فتلفعت به وانطلقت مهرولة إلى هناك. قرب منتصف الليل أن يفاجيء لبكري زوجه ويقطع دابر الشك من نفسه بعد أن فاحت الرائحة في البلدة ووصلت إليه الأخبار من شهود العيان تؤكد رؤيتهم لوهيبة مختلية بخليل في ركن قصي من دكانه. كانت ركبه سائبة وقلبه يتفزز من موضعه كلما اقترب من داره، وبندقية التفتيش تهتز على كتفه فيشدد قبضته على حزامها. فتح الدار فلم يجد زوجه، فركبه الجنون – سأل الجيران أن فرداً فرداً فلم يجد لها أثراً عندهم؛ وأخبره طفل صغير أنه شاهدها واقفة مع خليل البقال عند داره. قرر

أن يعاجلهما من أقصر طريق، أن يخرم من المزارع ليكون في مواجهة الدار مباشرة، نفس الدروب التي سلكها أبونا الشيخ عبد المعطي وهو متنكر في زي النداهة. كان أبويا الشيخ عبد المعطي ينوي تتويه خليل وتعذيبه في الغيطان والمصارف بقية الليل حتى يمسخره ويربي له الخفيف، فجعل يموه على خليل البقال كي يوقعه في معجنة بشعة على مشارف دار بكري، إذ أن الخريجية قد تريحوا كنائف الجامع الكبير منذ ثلاثة أيام فقط فملؤوا بالخراء بركة عريضة جافة حتى سووها بالأرض وتركوها لتجففها الشمس فجففت سطحها فحسب. كانت الخطة أن يتركه غارقاً في الخراء حتى أذنيه ويرجع إلى جلاسه على المصطبة كي يستمع معهم إلى صراخ خليل طالباً النجدة بعدما تعييه الحيل..

ولم يكن قد بقي على المعجنة سوي خطوات قليل حينما لمح أبويا الشيخ أبو المعطي شبح خفير بندقية معلقة في كتفه يمشي بانفعال والشرر يتطاير من وقع قديمه على الأرض. حاول أن يداري نفسه في جزورنية قريبة. إلا أن الخفير لمحه، فتتبعه متلصصاً، فإذا بشيخ خليل البقار يظهر لاهثاً في البحث عن شبح وهيبة الذي احتجب بالجزورنية، فصار يهمس منادياً بصوت متهدج ((وهيبة! رحتي فين يا وهيبة؟))، واتجه إلى الجزورنية ملتحماً بشبح وهيبة. حينئذ صرح فيه بكري: ((استنى عندك يا أبو ديل نجس)). وكان خليل قد أمسك بطرف الملس وجذب شبح وهيبة يريد احتضانها حينما رن الصوت فزلزله. ما كاد بكري يرى الملس الأسود ينسلخ عن جذع الجزورنية حتى صرخ: ((آه يا فاجرة!))، ولم يدر إلا والبندقية قد قفزت مستقرة بين يديه، وأحكمت النشان وأفرغت في الشبحين كل رصاصها فسقطا فوق بعضهما على الأرض جثة واحدة متداخلة الأطراف مختلطة الدماء..

قرب العصر صدر التصريح بالدفن. كان يوماً عصيباً مؤلماً على عائلتنا كلها. ركبهم الذهول حتى عجزوا عن البكاء وعن فعل أي شيء، بل انعقدت ألسنتهم في حلوقهم وعلاهم الشحوب والحيرة فصاروا كالبلهاء الخرس يتخبطون في المهانة والخزي. لم يكن في الوقت متسع لحمل الجثة إلى الدار. كان لا بد من التعجيل بالدفن كيفما اتفق. ورجال البلدة كلهم في عز موسم الشغل في الحقول البعيدة..

أقرب مكان يصلح لتغسيل الجثة وتكفينها وإقامة الصلاة عليها هو جامع سيدنا هارون، ذلك المسجد العتيق البالغ من العمر خمس مئات من السنين كما هو ثابت في لوحة بجوار منبره العتيق. يقع في مكان معزول وحده خارج مباني البلدة في بقعة متاخمة

للمقابر، فمع أنه أفخم مسجد في البلدة من حيث طراز البناء وطول المئذنة وضخامة قبة الضريح إلا أنه كان يبدو كالمنبوذ المكفر، لا يؤمه للصلاة إلا مجموعة قليل جداً من مجاذيب الطرق الصوفية والدراويش حيث يتيح لهم فرصة الاختلاء بأنفسهم لوقت طويل، انجذاباً إلى سيدنا هارون؛ ذلك الولي الزاهد الذي أقام لنفسه خلوة في هذا المكان منذ ذلك التاريخ البعيد، فلم مات دفن فيها؛ فبعد دفنه زار بعض الموسوين في المنام وطالبهم ببناء مسجد له، فامتثلوا على الفور فأقاموا في المسجد حول الضريح فصرفوا عليه مبالغ طائلة لكي يجعلوا منه تحفة نادرة؛ إلا أنه قد أحيط بالشؤم من أول يوم، حيث سقط من على سقالاته أثناء البناء ثلاثة من الفواعلية فماتوا، وحدث خطأ هندسي في بكية البوابة القبلية فسقطت بعد عامين من بنائه على بعض من كانوا نائمين في ظله فماتوا. إبان بنائه واكتماله حلت بالبلدة غزوات من عسكر من ملل كثيرة نهبت وهتكت وسفكت وخربت؛ فكان أن هجره الناس هجراناً شبه تام؛ فخيمت عليه سحابة من الكآبة والمهابة والرهبة؛ وكان مع ذلك يبدو للقادمين من الطرق الزراعية شيئاً جميلاً ثميناً يضفي على بلدتنا عراقة وأبهة، خاصة أن محاط بخلفية من أبراج الحمام كالقوس يكاد يحتويه في حضنه. وكانت قبة الضريح والمئذنة يغوصان في أحشاء الأبراج يلتحقان بها كأنهما المركز المتميز الذي تتفرع عنه هذه الأبراج البيضاء المستطيلة الشامخة بعشرات المئات من العيون المفتوحة في تشكيلات عديدة. أجيال لا حصر لها من الحمام تربت وتعلمت الطيران فوق هذه المئذنة وهذه القبة حتى استوطنتها بأعداد مهولة. أبدع مشهد في بلدتنا على الإطلاق هو قوس الأبراج وفي قلبه الجامع كخاتم يحيط بحجره الكريم..

عندما شرعوا يغسلون الجثمان فوق الضرابية في الميضآة كان الحزن قد وصل بأبي إلى منتهاه، حتى سمعته يهذي بالكلام لأول مرة منذ جاءنا الخبر المشؤوم. الحزن لم يكن بسبب الموت فحسب، ولا الطريقة البشعة السخيفة التي تم بها الموت، إنما لاكتمال الشؤم الفاجع، بأن يتم تغسيل الجثمان والخروج به من هذا المكان المشؤوم خرجة لا تليق أبداً بسمعة عائلتنا ولا بقدر أبويا عبد المعطي بالذات وهو نار على علم في العاب كله؛ فكيف يخرج هكذا في يوم خلت فيه البلدة تماماً من الرجال؟! وكان أبي ينظر إلى الذين يؤدون صلاة الجنازة فيجدهم يعدون على أصابع اليدين؛ فينكس رأسه في الأرض محمر الخدين متهدل الملامح كالمضروب على وجهه بنعل جزمة قديمة.

ما كاد النعش ينتصب واقفاً في صحن المسجد غير المسقوف حتى انهالت عليه أسراب الحمام بغزارة كالمطر، تسقط فوقه

جماعات جماعات، عمودياً كتساقط الفاكهة الناضجة من أفرع الشجر؛ في مظاهرة شديدة الصخب من صفق أجنحة ورفرفة وهديل. ما إن ينطلق سرب حتى يحط بدلاً منه أسرابُ تحتل كل بقعة في خشب النعش وفوق غطاء الجثمان، كأنها اكتشفت لعبة جديدة مثيرة مبهجة. والفقيه الذي أم صلاة الجناز راح يرفع صوته ليغطي على لغط الحمام؛ والمصلون ملخومون متوترون يدفعهون عن وجوههم رفرفة الأجنحة ويختلجون في اندفاعها أمام وجوههم مباشرة. وحتى بعد أن انتهت الصلاة وتقدمت الرجال لحمل النعش لم يجفل الحمام، بل ظل في كانه منكمشاً انكماشاً وادعاً إذ يري نفسه يرتفع بارتفاع النعش فوق الأكتاف، ويهتز النعش بشدة إثر اندفاع سرب على حين غرة يحتل مكانه سرب آخر، وإذ خرج الموكب الصغير من البوابة القبلية وانعطف على الطريق المؤدي إلى المقابر كان ثمة نعش يتهاوى وسط حوالي عشرين رجلاً تتسع المسافات بينهم، فكأنهم أعمدة قامت فوقها خيمة عريضة هائلة من أجنحة الحمام ترفرف صاخبة مزغردة صاعدة هابطة في تشكيلات تتسلخ من بعضها لتدور حول بعضها لتعود فتتلاحم تتداخل تتشاكل تملأ الفضاء بنتف عزيرة بيضاء من الريش كالقطن المندوف. وصارت الخيمة تتسع وتمتد لتلتحق بالمقابر المقامة عل مرتفع جبلي، فتختفي الأشباح الصاعدة شيئاً فشيئاً يخفيها ذيل رداء شديد البياض؛ فيما يرتفع النعش بغطائه الأبيض فكأنه المنطاد يسبح في السماء معلقاً في مظلته بحبال خفية.

العرجاوي عطا

لي أعمام كثيرون جداً في بلدة الشُقَّة، لكنهم جميعاً، على شدة بأسهم، يتضاءلون أمام عمي العرجاوي عطا. ذلك أن جميع الناس في بلدتنا وكل البلاد يحترموننا بشيء كثير من الرهبة لأننا من سلالة العرجاوي عطا. وحين نقوم بزيارة أعمامي في بلدة الشقة نقول إننا ذاهبين لزيارة عمي العرجاوي عطا..

تبعد بلدة الشقة عن بلدتنا مسافة ساعتين بالركوبة من طريق الكنيسة في اتجاه الجنوب الشرقي، على طريق متعرج ثم مستو على شاطىء مصرف نمرة تسعة، ثم يتعرج مرة أخرى في كوعة على اليمين في أعلى الجنوب مروراً بعزبة الطوال، ثم يأخذ الطريق في الاتساع على شاطىء ترعة تحفها على الجانبين أشجار الجميز والتوت والصفصاف، تلقي على حافة الترعة ظلالاً داكنة تتماوج بحركة مضببة سرعان ما يتبيّن أنها تلال صغيرة تتصاعد منها دوائر وتروس وصلبان خشبية فوق رقاب ماشية مغماة تدور بالسواقي.. تلك هي أحلى وصلة في الطريق، عندها يتبأطا الحمار في خطوه يمشي باطمئنان وروية، حيث تلفظنا خيم الأشجار كل حين إلى عراء الشمس لتستقبلنا خيم الأشجار من جديد تحتوينا، إلى أن تزداد كثافة الظلال لمسافة طويلة يتلذذ الحمار بقطعها في خطو مهيب ذي إيقاع مبهج؛ إن الحمار يعمل حساباً لعمي العرجاوي عطا إذ ربما التقاه في الطريق ماشياً بشكل غير مهذب فيسلخ جلده من الضرب، كما أنه يعرف أن راكبه قد بدأت تعتريه بهجة الفرح بلقاء أهله، يعرف كذلك أنه منذ وطىء وصلة الأشجار قد صار بالفعل في رحاب الديار، أي تحت سمع وبصر عمي العرجاوي عطا، الذي يبدو طريق هذه الوصلة كأنه شعاع من عيني عمي العرجاوي عطا الجالس كالصقر أمام الدار على مبعدة حوالي ستة كيلومترات، فيبلغه نبأ قدوم ضيفه قبل وصوله بوقت طويل. يميل الحمار إلى التروي في السير لإضفاء مزيد من الوقار على دخلة صاحبه، ولإعطاء فرصة لأبناء العائلة المنتشرين في حقولها على الجانبين لأن يروا ضيوفهم. الحمار ينحرف عن الطريق العمومي إلى الجرن الواسع المرصع بأكوام من الردم والسباخ وأعواد الذرة وقش الأرز وبرك صغيرة منحدرة من الترعة تسبح فيها طوائف من الأوز والبط والدجاج، وثمة مواش مربوطة في أوتاد أمامها حزم من البرسيم

الجاف؛ ومرصع أيضاً بشوارب عمي العرجاوي عطا، وبنظراته التي لا تكف عن التنقل بين الأشياء تغسلها من الكسل والغفلة تصحيها بوخز كوخز الإبر، لدرجة أن اللص - يقولون - حين يفكر في السطو على أي شيء فإنه سيصطدم بنظرات عمي العرجاوي في أي مكان يسطو عليه في أي لحظة إذ أن عمي العرجاوي يترك نظرته على الأشياء. ويمضي فتبقى هي حتى بعد أن تزول الأشياء.

ما يكاد الحمار يدخل فى هذا الإنس الزاخر بروائح الروث والردم الطازج والقشدة الزاعقة في الأفران حتى يندمج في رقصته الجميلة المعهودة كأنه يهدهد راكبه؛ ففي الحال يقفز الراكب هابطاً إلى الأرض تاركاً الحمار يمضي مهرولاً في رقصته السريعة حيث تهتز مؤخرته فيبدو تحت البردعة المنجّدة بالقطيفة الرصينة اللون كالرهوان؛ يتوجه مباشرة إلى الباب الكبير لهذه الدار العريضة، فيخترقه إلى الزريبة التى يعرف مكانها جيداً، ولا بد أن يجد من يستقبله في منتصف الطريق بترحاب ليقوده إلى مذود حافل بالتين والفول، ينزع عنه البردعة، يربطه في الوتد ويتركه. أما الراكب فإن خبر وصوله يكون قد تهاتف به الطريق والشجر ومياه الترعة، فخف لاستقباله عدد من الرجال كلهم صور منسوخة من عمي العرجاوي عطا..

تلك هي الدار الأصلية لعائلة عطا، التي تفرعت عنها كل هذه القرية برمتها، بدورها المتراصة على الجانبين تتخللها شوارع وحارات ورحبات، ومدرسة إلزامية أقامتها وزارة المعارف العمومية منذ أكثر من خمسين عاماً بطلب من عمي العرجاوي عطا الذي تبرع بالأرض وعمال البناء وظل لسنوات طويلة مسؤولاً عن إيواء المعلمين إلى أن تعلمت أجيال من العطاوية فصار منهم معلمين في المدرسة فانحلت مشكلة السكن، وتحقق حلم عمي العرجاوي عطا فأصبح العطاوية يعلمون العطاوية زيتنا في دقيقنا. هي الآن مبنى جيري كالح مصفر ذو سور من الأسلاك الشائكة، تطل على جرن آخر خلف ظهر القرية، يطل على مصرف عريض، له كوبري مبني بالأسمنت على قضبان من الحديد بمثابة قنطرة تنحدر قليلاً لتلتحق بالطريق الزراعي السائح في جرن القرية كأنه متفرع منه، مبقع على الدوام ببطش من الجلة والروث. في مواجهة هذه القنطرة حارة طويلة ضيقة كشق متعرج في جسد الدور، فيه يمضي السالك بين جدران من الطوب اللبن المليس بالطين المخلوط بالتين لا يفتح عليها أي باب أو حتى طاقة صغيرة. يتفرع منها حارتان يشطرانها كالصليب، إن حودات على يمينك وجدت كتاب الشيخ طلبة الحيطاوي، الذي اختاره وزينه عمي العرجاوي عطا لكي يذهب إليه الأولاد قبل سن الذهاب إلى المدرسة حتى إذا ما

انتقلوا إلى المدرسة كانوا على دراية بالقرآن الكريم يجيدون القراءة والكتابة. وإن حودت على يسارك وجدت كُتَّاب الشيخ بسيوني جمعة، الذي اختاره ورتبه أيضاً عمي العرجاوي عطا إذ أن أولاد العطاوية في تكاثر مستمر باسم الله ما شاء الله. كلاهما ضرير وعتيق لكن الشيخ طلبة مكرش بصورة فاجعة، وشكله وهو قاعد يشبه قبلة الولي؛ أما الشيخ بسيونى فإنه نحيل ربعة القوام يحرص دائماً على ارتداء الجبة والقفطان والعمامة على عكس الشيخ طلبة الذي يلبس الجلباب الكالح المتجلد والطاقية الدبلان الحائلة، ويميل إليه الأولاد لأنه مرح مهزار يتفنن في العقاب الذي يوجع البدن ولا يوجع النفس لكنه مع ذلك يتقن تعليم الأولاد. وكلا الكتابين فى الأصل مندرة تستقبل الولدان في الصباح لحفظ القرآن الكريم وفي المساء تستقبل ضيوف الأسرة حيث يجلسون على المصاطب المفروشة بالحصير، وبجوارهم شباك مستطيل مغلق وفوق أرضه رصات من الورق المصفر الشايط تتخللها فتلات الخيط وبقع الدقيق العلامة والصمغ والأحبار، هي نسخ من المصحف الشريف وسيرة الهلالية وعنترة وكتاب ألف ليلة وليلة وتفسير الجلالين ونسخة متهرئة من صحيح البخاري، إن حودت إلى اليسار قادتك الحارة الفرعية إلى مزارع تمتد على مساحات شاسعة الى بحر نشرت؛ وإن حودت إلى اليمين قادتك نفس الحارة إلى مزارع أخرى تمتد على مساحات يقطعها الحصان السريع في نصف نهار حتى يصل إلى بلدة الحصَّة. هذه المساحات وتلك كلها ملك لناس تنتهي أسماؤهم بلقب ((عطا))، وليس في البلدة عدد سكانها حوالي عشرين أو ثلاثين ألف نسمة، من لا ينتهي اسمه بلقب ((عطاء))، فلاحاً كان أو من الأعيان أو عمدة أو شيخ بلد أو صعلوك أو شحاذ أو معتوه أو شاعر رباب أو أجير؛ كما أن الأسماء المشهورة فيها متكررة بصورة لافتة للنظر، فدائماً أبداً هناك نسخاً مكررة من عمي العرجاوي عطا والحاج عطية عطا والشيخ عبد العزيز عطا والحاج شعبان عطا والمغني سالم عطا ولص الماشية ريشة عطا وقاطع الطريق علوان عطا؛ ناهيك عن سواقي عطا ومواشي عطا ومحاريث ونوارج وجمال عطا، كلها أشهر من نار على علم في جميع حقول الناحية، كلها لها على حقول الجيران أفضال لا تنسى، كما لشباب عطا في أفراح الجيران ومعازيهم على السواء حضور أساسي بارز..

وجوههم جميعاً ماركة مسجلة، عليها بصمة العطارية الزاعفة، بالشقرة الضاربة إلى الحمرة في لون الشعر والشوارب والرموش والحواجب، والخدود المنتفخة بالقشدة والحليب المخلوط بالشاي، والرقاب المبرومة المطوقة بدوائر فوق بعضها فكأن الرقبة رصات

من أقراص الحلوى السمسمية، يولد بها الأطفال ذكوراً والأناث، صوتهم واحد، جهوري، يضخم الكلمات يعطيها هيبة وجلالاً حتى لو كانت من الألفاظ السوقية، لهم في صوتهم جعصة كجعصتهم حين يجلسون على الكنب المنجد أو الكراسي الخيرزان، فإذا هم يتحدثون بصوت منتجعص هو الآخر، ولكن في غير غطرسة أو ترفع، إنما هي ترييحة في الصوت عند الاندماج في الكلام إذ أنهم جبلوا على التدفق في الحديث بحماسة وانفعال تتزايد حرارته في الحلق حتى ليبدو الواحد منهم كأنه يبكي إذا هو في الواقع يعبر عن ترحيبه الشديد في لهجة ودودة طيبة، تتزايد هذه الطيبة كلما توغلنا في بيوت الفرع الفقير من العطاوية الذين عثرت حظوظهم في الحياة لسبب أو لآخر، حتى لتصل الطيبة إلى حد العته أحياناً واللامبالاة أحياناً أخرى نتيجة للإفراط في زواج الأقارب كما يقول المتنورون العطاوية؛ بعكس الأعيان الذين هيأت لهم مراكزهم المالية زيجات من بيوتات غنية من بلاد أخرى. ولقد فاضت نساؤهم عن شبانهم منذ وقت مبكر، فصاهروا بهن عائلات كبيرة في بلدان مجاورة أصبحت تدين بالولاء للعطاوية، وانتشرت بذلك بصمة العطاوية على كثير من الوجوه في الناحية كلها باستدارة الوجه واكتناز الملامح وطول الرموش وثقل شعر الحواجب الواقف أبداً كالأسلاك الحمراء..

جدي الأكبر، ذو الصورة المعلقة في برواز على حائط مندرتنا في البلد يعلوها التراب، كأنها شباك كبير مفتوح على الماضي، حيث يطل وجه جدي ((أبو السعادات عطا)) ببسمته الخفية السمحة، ولحيته القصيرة المشذبة المنسقة المبرقشة بدوائر بيضاء، وجبين مضيء تحت طربوش داكن، وربطة في عنقه تحت ياقة القميص الأفرنجي، والسترة على كتفيه تنبىء عن أجود صوف. جدي هذا – يقولون - كان يخدم في الخاصة الخديوية إذ يعمل ناظراً لزراعة أفندينا الخديوي في ضيعته الواسعة التي تقع بلدتنا على تخومها. وقد منحته الخاصة الخديوية إقطاعية في أراضي الناحية، شأنها مع كل من يلتحق بخدمة القصر الخديوي من غير الدم الخديوي، وتسميهم العائلة الخديوية: الأوباش. إقطاعية جدي كانت كبيرة، حوالي ثلاثمائة فدان من أجود الأراضي في زمام بلدتنا. ولما كان مصرحاً لذوي النفوذ من هؤلاء الأوباش الباشوات بأن من يستصلح منهم أرضاً بوراً فهي له مهما كانت مساحتها؛ ولما كان جدي - بحكم وظيفته - يمتلك الفلاحين والأجراء والأنفار العاملين كلهم في أرض أفندينا؛ لذا فقد تمكن جدي بشطارته من استصلاح خريطة شاسعة هي المنطقة التى أقيمت فيها بلدة الشقة..

تزوج جدي تسعاً وأربعين زيجة، جمع فيها بين العائلات

الأرستقراطية والمتوسطة الحال والفقراء بل والخواجات أيضاً. لم يكن يحكمه سوى جمال المرأة فحسب، إن راقت له تزوجها في الحال ليشبع نفسه الظمآنة أبداً، إلى أن تكشف العشرة عن عوامل النفور وضرورة الانفصال فيطلقها بالمعروف مثلما تزوجها بالمعروف. وقد عاش مائة وأربعين عاماً، ظل خلالها يحتفظ دائماً بأربع زوجات في عصمته في أربع أماكن يتردد عليها لمباشرة مهام عمله في المعية: القاهرة والإسكندرية والأقصر وبلدتنا؛ ذلك أن لأفندينا أطيان في زمام كل هذه البلدان، أنجب جدي حوالي مائة وخمسين ابناً وابنة. وكان عند الاختلاف مع زوجاته لأي سبب من الأسباب يتسامح في كل شيء إلا في حضانة الأولاد، ما إن يش-ب الابن أو الابنة عن الطوق حتى ينتزعها أو ينتزعه ليضمه ويضمها إلى معيته في بلدتنا. فمنهم من عمل موظفاً في الحكومة في بلدان بعيدة، ومنهم من عمل في التجارة في بلدان أمهاتهم؛ وصفصف الأمر على حوالي المائة من أبنائه الأشداء رآهم يميلون للفلاحة فأطلق أيديهم فى أراضيه الصالحة فانتزعوها شيئاً فشيئاً من شاغليها ثم قسموها فضعف ريعها فبيع معظمها لناس آخرين.. إلا أراضي بلدة الشقة المستصلحة فإنها بقيت في حوزة العطاوية بفضل قوة عمي العرجاوي عطا في ردع من يفكر في البيع وتخويف من يفكر في الشراء..

هذه الدار الكبيرة المطلة على هذا الجرن الكبير، الممتدة على مساحة أكثر من فدانين، بأكثر من زريبة وأكثر من منخ للجمال وأكثر من مراح للغنم وأكثر من مندرة وأكثر من مخزن للحبوب وحجرات نوم ومعيشة تتكشف في قلبه الدار في صفوف متقاطعة متداخلة.. ابتناها جدي في الزمن الغابر كاستراحة تليق بأن يستضيف فيها علية القوم لأزمنة راحة طويلة، وأن تكون مستقره النهائى حتى تجيء اللحظة التى لا يصبح فيها قادراً على خدمة أفندينا بصدق وإخلاص. وهذا ما قد حدث بالفعل كما تقول حكاوي العائلة وأغنياتها وجدران الدار ودواليبها وما تبقي فيها من أشياء أصيلة بنت أصل عريق. تقول الأغنيات وحواديت الجدات أن هذه الدار شهدت سنوات من الليالي الملاح لم تشهد المديرية كلها شبيهاً لها، زارها واستراح فيها طوائف من جميع أنحاء الأرض؛ وعلى واحد من هذه الأسرة النحاسية الأثرية نام جدي نومته الأخيرة بين أحضان زوجته الكبيرة ذات الأصل الصعيدي، من زيجاته المبكرة جداً، الوحيدة التي عمرت معه مصرة بعناد مازح أن تكون قدمه إلى القبر أسبق من قدمها. كانت ذات سلطان جبار وسحر لا يقاوم، استمدته من عراقة أصلها العربي المستوطن في الصعيد في بيت تسكنه الباشوية منذ وقت بعيد، هي العقل المدبر وصاحبة اليد الطولى في كل شيء، هي

التي اختصرت عدد أبناء جدي بإغرائهم على الرحيل حتى يتم تسيد أبنائها هي وعلى رأسهم عمي العرجاوي عطا. كانت في الواقع محقة، يكفي أنها أنجبت العرجاوي عطا، فيه وحده حق لها أن تشتهر في جميع أنحاء البلد بأنها أم العرجاوي عطا؛ شهرتها بأنها أم العرجاوي عطا أذيع وأشهد فخراً لها من شهرتها أنها زوجة ناظر الخاصة. ثم إن أبناءها هم أبرز أبناء جدي على الإطلاق، أكثرهم عدداً، أشدهم رجولة ومدعاة للفخر، أميل إلى العمل والسيادة وملء الهدوم بجواهر الرجال؛ إليهم يرجع الفضل في قيام اللون الأخضر على هذه المساحات المهولة التي كانت مجرد رمال وبرك ومستنقعات كانوا أكثر من ثلاثين رجلاً، كل رجل فيهم بمقام بلدة بكاملها، ورثوا عن جدهم حب الزواج والإنجاب حتى ملأت بطونهم هذه الدور كلها..

قدِّر لجدي في أيامه الأخيرة أن يستمتع بمنظر هذه المملكة، وأن يدعو من قلبه لعمي العرجاوي، الذي عيشه كأفندينا بالضبط في كل شيء وإن على نطاق مصغر نوعاً، أكبر ما كان يفرح جدي أن أبناءه وأحفاده بات منهم الزعيم والعمدة وشيخ البلد والخفراء والمعلمين وموظفي الميري، السلاح فوق أكتافهم وتحت آباطهم وفي سراديب مبنية في قلب الحيطان بكميات كبيرة وبدون ترخيص. أما يوم وفاة جدي فقد جعله عمي العرجاوي يوماً واقفاً على شعر رأسه لمدة تزيد على مائة وسبعين ساعة لم تنقطع خلالها الوفود ولم تهدأ الطرقات من الركايب التي تشغى بها. لعلع في سماء العب كله صوت القرآن الكريم بحناجر بلبلية خاصة بالقصر الخديوي، وتعاقب على منصة الخطابة باشوات ووزراء وعمد، زعماء أحزاب فألقوا خطباً نارية تلهج بأمجاد جدي وتصب المديح على رأس عمي العرجوي عطا..

حق لأبناء العربية الأقصرية من جدي - التي قيل إنها من أصل يمني ثم قيل بل مغربي، بل هو خليط من اليمني والمغربي - أن يحتلوا هذه الدار وحدهم، فصارت لهم السيادة المطلقة على العب كله، إذ أن كافة الأوراق والسجلات والخزائن في مستقرات لها في أماكن من هذه الدار. كان يسري فيهم عرق غطرسة تركية كانت مدسوسة في صلب جدي من قديم، لكن عرق الغطرسة تحول عند أبناء العربية الأقصرية - خاصة عمي العرجاوي عطا - إلى مجرد شعور بالإعتداد بالنفس مبالغ فيه قليلاً، أو كثيراً في بعض الأحيان. اعتداد بالنفس تضخمه عادات موروثة كالحرص عن اقتناء نسخة من شجرة العائلة، وحفظ التواريخ والمأثورات والحكايات عن الآباء والأعمام والأخوال، وأيام المعارك وأيام الأفراح وما أكثرها في حياة العطاوية....

أبناء جدي هؤلاء لم تكن تخلوا طبائعهم تماماً من اللطشة التركية، إلا أنها كانت تمتزج بكثير من اللطشات الفرعونية والبدوية والعربية، حتى لقد كان عمي العرجاوي عطا يبدو أحياناً كفرعون، وأحياناً أخرى كعمر بن الخطاب، وكثيراً ما يبدو وكأنه الحجاج بن يوسف الثقفي. هو - عمي العرجاوي عطا - رجل ذو هيبة ورهبة بكل معنى الكلمة؛ يرتبط مع الحياة بلسانه؛ إذ قال فعل، وإذا فعل لا يتراجع، وإذا اقتنع لا يتزحزح، وإذا هوجم فالنصر أو الموت، وإذا لحقه عدوان فالثأر في الرقاب قاب قوسين أو أدنى من الهلاك..

أي حكايات تحكى عن عمي العرجاوي و إخوته لا بد أن يصدقها المرء مهما بدت خيالية خرقاء لا تحدث إلا لعفاريت من الجن. فأفاعيلهم ونوادرهم واشتداد بأسهم أمور لا يكاد يصدقها عقل، لكن العقل يقبلها مع ذلك في حالة واحدة فقط: إذا حكيت عن عمي العرجاوي عطا أو أحد من إخوته.. فلقد اعتاد العقل السائد في بلدتنا والبلاد المجاورة أن يتعامل مع أعمامي هؤلاء باعتبارهم أنصاف آلهة شياطين، إذ أن الواحد منهم قد يرمي بابنه في المصرف لقاء رهان التزم به حول شيء، وقد يقتل عشرات الناس لقاء وعد أقره، وقد يبيع قطعاناً من الماشية ليفي بسداد مبلغ كان ضامناً فيه لأحد المدينين فلم تمكنه ظروفه من الدفع، وقد يرتكب الواحد منهم فعلاً أخرق ليدلل بنتيجته على مقولة يود أن يلفت إليها الأنظار، مثلما فعل عمي العرجاوي نفسه ذات يوم. كان عائداً من سوق التلات على ظهر بغلته يحتضن بلاص عسل، إذ أنه يعتبر العسل الأسود ماء المحاياه، وكل صباح على الريق يشرب منه كوباً كبيراً قبل الإفطار بساعتين، ولذا فهو يحرص على انتقاء نوع العسل بنفسه. وقرب داره استوقفه اثنان من البرابرة كانا مندمجين في عراك شديد، فطلبا إليه أن يتوقف قليلاً ليحكم بينهما، في الحال طافت بذهنه المندرة القبلية المعدة لمبيت الضيوف الغرباء؛ وأيقن أن مجموعة من البط والأوز ستطير رقابها بعد قليل على شرف هذين الضيفين الغريبين. فما إن توقف حتى لاحظ أن العراك بينهما يدور حول حصانين معهما أحدهما أبيض والآخر أسود. فلما استفسر منهما عن سبب العراك أخبراه أنهما غريبان سيضطران اليوم للمبيت خارج ديارهم، والمشكلة الآن هي أن الحصانين سينامان بعيداً عنهما في الزريبة، فحين يأتي الصبح كيف يتسنى لكل منهما أن يتعرف على حصانه من حصان الآخر؟! أحدهما يقترح على زميله بأن يقطع أذناً من حصانه كعلامة يميزه بها، والآخر يعترض قائلاً: اقطع من حصانك أنت، فماذا يكون الحل يا عمنا الحاج؟!.

فما كان من عمي العرجاوي إلا أن رفع بلاص العسل على طول ذراعه وهبده في الأرض بغيظ شديد فجاء إلى ستين حتة. ثم أشار

بأصبعه إلى العسل المندلق صائحاً في أسف شديد:

- ((وحق من أسال هذا الإدام على الأرض إنكما لأغبى ما رأيت طول حياتي! يا بني آدم أنت وهو! كل منكما لا بد أن يميز حصانه بلونه على الأقل!)).

ثم تركهما وواصل السير إلى داره كأن شيئاً لم يكن.. الحكايات ليست في حاجة إلى شهود عيان من الزمن المنصرم تشهد بصحة ما جرى فيها. ليست في حاجة إلى وثيقة فالواقع نفسه وثيقتها المتجددة..

عمي العرجاوي عطا فولكلور قائم بذاته يعتبر من تراث العائلة رغم أنه لم يرحل عن الدنيا بعد بل إنه ما يزال في عنفوانه وقوته وصحوة رأسه رغم تجاوزه المائة عام، ويتوقع له الناس بقاء أطول من أبيه. إنه طويل القامة ضخم الجثة كعامود في معبد الكرنك، جارم الملامح والأطراف، مستطيل الوجه مسترخ العضلات ثقيل شعر الحواجب كمظلة فوق عينين صقريتين تبعثان شواظاً من لهب، واسعتان، إذا نظر فى الواحد جفافه، أفقده فى الحال إرادته: إقعد يا فلان فيقعد في الحال دون مماحكة؛ قل ما وراءك، فيقول ما في جوفه بكل صدق وأمانة وترقب؛ فضها سيرة يا فلان يعني يفضها سيرة؛ أعد السريقة لأهلها فلا بد أن يعيدها دون أدنى تردد. هو - كعمدة - ليس في حاجة لاستخدام يده في الضرب لأنه لو صفع شخصاً براحة اليد فإنها الصفعة التي لا قيام بعدها. تكفي النظرات بدير بها كل الأمور، وما الخفراء إلا صورة رسمية فحسب من قبيل الأبهة مثل آلة التليفون والسلاحليك وصندوق البريد المعلق تحت شباك الدوار. لهذا فإنه عمدة البلدة بالتزكية منذ وقت موغل في القدم وإلى ما لا نهاية؛ تجيئه العمدية وهو قاعد على المصطبة أمام الدار. يفتل حبلاً أو يشرب النارجيلة التي يغرم بها على غرار أجداده وتمييزاً لنفسه عن رعاياه الذين يدخنون الجوزة. لا يعترف بزوال الملكية ولا ثورة يوليو وإن كان مع ذلك يهنىء الفقراء بها! ظل سنوات طويلة يشمئنط ويشيح بوجهه كلما جاءت سيرتها في قعدته؛ حينئذ يبدو وفي جلسته بين الرجال شبيهاً بتمثال شيخ البلد، خاصة إذا خلع العمامة المصرية المملوكية الكبيرة فألبسها ركبته المرفوعة تاركا رأسه الحليق كالبطيخة النمس معرضاً للهواء تعبيراً عن أن رأسه قد ضاق بما يقولون. فإن طال المديح في ثورة يوليو وزاد الملق من بعض ((المتفلسفين)) في القعدة، الذين يروا أن الثورة قد عملتهم بنى آدمين على آخر الزمن؛ فإنه يشد زمام ابتسامته الغامضة على سره فلا تعرف إن كان موافقاً على المديح أم رافضاً له، لكن صفحة وجهه الغنية بالدماء وعمق التصميم وقوة

الإرادة تكتسي بدهاء مخيف، بصنعة لطافة يتسلل في الدخول إلى الكلام مغيراً مجرى الحديث، بطريقته الخلابة في المؤثر بنبراته الجهورية، يحكي حكايات وطرائف من التاريخ أو من الأساطير، عن رجال فقدوا رجولتهم منذ خصاهم السلطان؛ عن سلاطين توهموا القدرة على كسر أنف الشعوب فقهرتهم الأيام والأحداث في عزل واغتراب وذلّ وعوز؛ عن عواقب الظلم، عن الشطط في فرض الأحكام ومعاملة الناس بغير الحسنى. قليلون هم الذين تبلغهم رسالته الخفية في الحكايات والطرائف؛ والكثيرون يأخذونها كمواعظ في الحياة مفحمة، دون الانتباه لمغزاها السياسي الذي يجيد إخفاءه في تلافيف الحكاية. إلا أن عداءه للثورة كان معروفاً للجميع ولكن لا أحد يستطيع الجهر به؛ إنما قد يجد شيئاً ما فتفلت منه تعليقة عابرة تكشف موقفه بكل وضوح فتتفجر صدور السامعين بالضحك البهيج..

الكل يعرف أن عمي العرجاوي عطا لا يهمه من أحد، ولا يخاف إلا من الله، ويعطي لكل ذي واجب واجبه على أكمل نحو، ويأخذ من كل ظالم حق المظلوم كاملاً، إذ أنه العمدة والقاضي وشيخ الخفراء والخفراء. وأي جلسة في أي مكان في أي لحظة تنعقد لأي سبب من الأسباب فإن عمي العرجاوي عطا لا بد وأن يكون هو مدبرها وئيسها وصاحب الكلمة الأخيرة فيها. الغريب أنه لا يفرض نفسه أبداً بل لا بد أن يدعى لذلك بإلحاح شديد يحلو له أن يتجاهله طويلاً، ذلك أن قوته أصابت الآخرين بالضعف. وكان ذلك يحزنه جداً، ويصفق كفاً على كف قائلاً في توتر:

- ((كل شيء لا بد أن أفعله أنا بيدي؟ متى يتعلم العطاوية المساكين أن يصبحوا مسؤولين؟ أمنيتي أن يجتمعوا مرة بدوني! أن يفعلوا شيئاً دون سؤالي في الفارغة والملانة! ماذا يفعلون لو مت غداً أو بعد غد؟!)).

هو إلى ذلك شديد الأدب، دمث الخلق، حيي، محب للعمل اليدوي. سرعان ما يخلع الجلباب الكشمير والقطنية الشاهي فيرميهما بجوار العباءة الجوخ والشال الحرير، يخلع المركوب البنى والجورب، يمضي بالفنلة والسروال الداخلي ذي التكة بشراريب، والصديري يحيط بجذعه الأعلى منتفخ الجيوب من الناحيتين، على اليمين منظر المحفظة الكبيرة مطبوع تحت قماش الجيب منتفخة بالفلوس الفضية والورقية التي لا تنفد مطلقاً؛ وعلى اليسار منظر الطبنجة واضحاً؛ وقبضة الخنجر العاجية المشغولة بالأحجار الكريمة تطل بجرابها من تحت كم الفانلة القطنية.. وهكذا ينزل إلى الجرن ليقوم بمهمة تكييل القمح أو البرسيم، حيث يمسك بعيار الكيلة

المصنوع من الخشب المعشق المرصع برؤوس المسامير؛ إذ يدبه في كومة الحصاد ليملأه؛ وبيديه يمسكه من عنقه ويروح يهزه بقوة ويغرف الحب ويملأ؛ دون كلل حتى يتهاوى التل في دقائق..

أو تراه وقد تخلى فجأة على الأبهة فأمسك بالفأس وراح يعزق. ضربة فأسه بقوة عشرة رجال؛ يعزف وحده فدانا كاملاً في زمن قليل. أقصى راحة له كي يستأنف العمل ربع ساعة يقضيه في تدخين حجر من التبغ المعسل على النارجيلة التي تصاحبه في كل مكان..

رأيته ذات مرة متربعاً على الأرض أمام البوابة الكبيرة، لاوياً تحت وركه خروفاً سميناً، و بالمقص راح يجز صوفه، صانعاً حوله أكواماً من الصوف تنتظر من يجمعها لمن سيجيء ليشتريها. وكان يومها قد تسلم مراح الغنم من صبيحة ربنا ليجز صوف الأغنام، فما كاد الضحى يعتلي سقف المراح حتى كان عدد الاغنام الزعراء الحليقة الملطخة بآثار ضربات المقص قد بدأ يتكاثر بين الأغنام، قام متجهاً إلى المصطبة ليشرب حجراً على النارجيلة في هدوء وروية وبمزاج. كان بالفانلة والسروال فحسب، وقد اغتبر وجهه بتراب الصوف، وانحسر طرف السروال عن ساقية الطويلين المشعرين وعن جزء من لحم وركه. ولم يكن يتحرج من ذلك لثقته أن جنس الحريم الذي يمر من هنا يعرفن أن أي جزء من جسده يعتبر عورة لكن عيونهن لشدة رهبته لن تنظر إلى الجزء العاري فيه بل قد لا تلحظه أصلاً..

سحب النارجيلة أمامه؛ أمسك بورقة التبغ المعسل ماركة السلوم وفتحها؛ وجد التبغ ناشفاً؛ صار يبلل أطراف أصابعه بشفتيه ويدعك في التبغ فيما يصيح في بوابة الدار: ((النار يا ولد الفرطوس)). فبعد قليل أقبل الغلام ممسكاً بالماشة وبين فكيها قطعة نار حمراء متوهجة قال:

- ((النار يا جدي))..

أشار عمي العرجاوي إلى وركه العاري، قائلاً:

- ((حطها هنا!))..

وراح يواصل ترطيب التبغ بريقه ودعكه بأصابعه، نظر إليه الغلام في تشكك وحرج وتردد. فسلط فيه عينيه شاخطاً فيما يشير إلى وركه العاري:

- ((قلت لك حطها هنا وأمشى!!))..

فامتثل الغلام لأمره في الحال، فوضع جمرة النار على فخذه العاري، وانصرف. فلم تصدر عن عمي العرجاوي آية وحوحة، أو أية ارتعاشة أو حتى اختلاجة رمش، فكأن الغلام قد وضع الجمرة فوق رخام. بقي عمي العرجاوي متربعاً يدعك في التبغ حتى أصلحه،ثم وضعه بكل هدوء فوق الحجر وسواه ودندشه؛ ثم أمسك الجمرة المشتعلة بأطراف أصابعه فوضعها فوق التبغ وراح يجذب الأنفاس على مهل..

عمي العرجاوي عطا هذا، ليس مستعداً لغفران أي غلطة مهما كانت تافهة. أنت غلطان فلا بد أن تدفع الثمن حتى لا تقع فى يجلسون حوله يتحدثون في أمر من الأمور. من سوى حظ الواد عكاشة أن بطنه كانت مضطربة لأنه أكل وحده أوزة كاملة؛ فلم يشعر إلا وصوت ضرطة قوية ينفلت من مؤخرته داوياً قبل أن يتحكم فيها. ذهل الولد وغاصت الدماء في خديه من شدة الحرج الممزوج بالخوف من جده العرجاوي. لكن ذلك لم يشفع له؛ ما درى إلا والشومة المبززة الثقيلة تتراقص في الهواء لتهبط فوقه بغيظ جنوني، والولد المذهول قد التاث وعجز عن الجري. حتى الجالسون كلهم تجمدوا في أماكنهم خوفاً من أن تتحول الشومة إلى أدمغتهم. وهكذا راحت الشومة تنهال على ضلوع الولد صاعدة هابطة حتى كسرتها وشجت رأسه والولد يصرخ . حملوه إلى حلاق الصحة فحمله بدوره على الركايب إلى مستشفى البندر. وبعدها بأيام عاد الولد من المستشفى بعاهة مستديمة في رأسه وأخرى في ضلوعه..

إلى أن جاء يوم كان أشد حالكة.. كانت المندرة الكبيرة مرصعة بالرجال من عدة بلدان مجاورة: عمد ومشايخ عرب وأفندية وضباط شرطة وعضو مجلس الأمة عن دائرة الناحية؛ جاؤوا لإنهاء معركة مزمنة بين عائلتين متجاورتين بسبب مياه الري الشحيحة، حيث يحتجزها أحد الطرفين عن الآخر لفترات طويلة يموت الزرع خلالها. وكان عمي العرجاوي عطا قد تكفل بحل النزاع إذا عقل الرجال وسحبوا أوراقهم ودعاويهم من أمام قضاة المحاكم. وصار من المؤكد لجميع لحضور أن عمي العرجاوي عطا لن يعدم وسيلة يذيب بها الجليد المتراكم بين العائلتين. وكات أيدي المتخاصمين قد صارت على وشك أن تمتد للمصافحة علامة التصافي، لولا أن حدث ما حدث في لمح البصر وبشكل لم يكن يتوقعه أحد على الإطلاق، حتى عمي العرجاوي نفسه. لحظتها كانت جميع الأبصار منصبة عليه في انتظار أن ينطق بالحكم في مسألة تعويضة مقترحة؛ فيما قد تربع هو، مندمجاً في إطراقة طويلة كان لا شك خلالها يفكر في حل مناسب ينهى به الخلاف. وكان الجميع يعرفون أن عمي

العرجاوي عطا في السنوات الأخيرة قد بدأ يكثر من الشرود لأوقات طويلة حتى أصبح لا بد من تنبيهه ولو بصنعة لطافة؛ كان قد بدأ يفقد الكثير من القدرة على التركيز. ويميل جميع الحاضرين إلى الاعتقاد بأن عمي العرجاوي قد فقد الإحساس بوجودهم لبرهة وجيزة، أو أنه من فرط التركيز بينه وبين نفسه نسي وجودهم.. إذ فوجئوا به – بكل بساطة وبدون أدنى حرج – يرفع إليته اليسرى عن الأرض قليلاً، ويدفع إلى الهواء بضرطة قوية رنت في الأرض رنيناً مدوياً، وملأت فضاء المندرة والأنوف برائحة كريهة..

في الحال أفاق عمي العرجاوي؛ شهق، تحجرت ملامحه تصخرت في عينيه نظرة رعب مرعبة، كغريق طفى على سطح الغرفة فلما أفاق تمنى أن لو غاص في القاع مرة أخرى. منظره التعيس وحده كان كافياً للاعتذار، خاصة أن الحضور قد جمدتهم المفاجأة فلم تلن وجوههم حتى عن ابتسامة ولو على سبيل الرثاء. وكان من الممكن أن يمر الأمر كأن لم يكن، لو أن ذلك حدث من شخص آخر غير عمي العرجاوي عطا، أما وقد حدث ما حدث ومنه هو بالذات، وقد حدث وانتهى الأمر ولا سبيل إلى محوه من سجلات ذاكرة القرية؛ فإن الأمر قد بدا خطيراً غاية الخطورة ينذر بنهيار كوني داهم راحت نظراته المتصخرة تتفتت حوله وقد بدأ يعتريه الكثير من التوجسس المفاجىء، كأن أحداً غيره فعل هذه الفعلة النكراء في حضرة الرجال، كأنه ثمة مؤامرة كونية دبرت ضده وأدخلت في جسده شخصاً آخر لم يتلق أي تربية يفعل هذه الفعلة ويختفي كالعفريت. وقعت نظراته على الواد عكاشة الذي كان واقفاً في الخدمة مع رهط من شبان الدار، توقفت النظرات عند العاهة المستديمة التي تركتها شومته على رأس الولد وعلى ضلوعه؛ انتفض راكساً على ركبتيه في حركة جنونية رعناء؛ تقلصت ملامحه فيما تمتد يمناه فتنزع الخنجر من ساعده الأيسر لينتقم به ممن أوقعه في هذه الورطة. ثم إنه حرك ساعده بالخنجر إلى الوراء، وبكل قوته وعنفوانه دك الخنجر عن آخره في فتحة مؤخرته دون أن يطلق أنه واحدة. ثم تهاوى فوق الأرض غارقاً في دمائه.

الصاعقة

على غير العادة فوجئت بشراعة باب شقتي مفتوحة، وضوء الردهة يفرش ظله الونيس على أرضية مدخل الشقة في الطابق الأرضي يرسم على درجات السلم الأسمنتي شبكة الشراعة الحديدية بكل نقشها بصورة مكبرة. رأيتها بمجرد دخولي عتبة البيت، فداخلني شعور غامض بالبهجة والفرح، إذ لا بد أن يكون ثمة ضيف حميم جداً يزورنا الآن. ثم تذكرت أن زوجتي لا تفتح باب الشراعة هكذا إلا حين يكون ذلك الضيف رجلاً غريباً، أو عاملاً جاء يصلح شيئاً في الشقة، وذلك درءاً للشبهات وتأميناً لنفسها؛ فاهتز قلبي بالخوف من المجهول، لبرهة ثقيلة حاولت أن أحدس شخصية الضيف وأسباب زيارته. وكنت مرهقاً إلى حد الرهك فحاولت تجاهل الأمر..

خير يا رب. قلتها فيما أسرب يدي من خلال شبكة الشراعة لأفتح الباب من الداخل. فإذا بي أفاجأ بما لم يكن يخطر لي على بال مطلقاً. كانت هي أمي، نعم أمي، بلحمها وشحمها جالسة على الكرسي المواجه للباب وحولها بعض الشبان والفتيات، بين زوجتي وأولادي، وحالة من الأنس المكتوم تحيط بهم جميعاً، وألوان التلفزيون تنبثق وتتراقص وتترادف في فضاء الردهة. إنشد قلبي إلى أسفل من شدة الفرحة والرجفة والمفاجأة، فهذه أول مرة تزورني أمي في بيتي في هذه المدينة الخرافية الاتساع، بل لعلها أول مرة تنتقل فيها أمي من قريتنا البعيدة في شمال الدلتا لتقطع كل هذه المسافة من أجل أن تراني، ولا بد أنها داخت حتى اهتدت إلى عنواني. حينئذ تملكني شعور جارف بالذنب وتأنيب الضمير، فأنا الذي بت أستبعد المسافة بين القاهرة وبين قريتي واستثقل السفر إليها خاصة بعد أن كثرت عيالي، اضطررت أمي الكبيرة المرهقة إلى المجيء بنفسها لتراني..

حبست دموعي وأنا أملأ فراغ الباب داخلاً. وقف الجميع في استقبالي فارتفعت بداخلي معزوفة الحزن المروع، وارتميت على صدر أمي فاحتضنتها واندفعت أبكي بحرقة وأقول:

- ((إزيك يا أمه! دانتي واحشاني خالص خالص! وتاعبة نفسك

للدرجة دي؟ دانا والله كنت ناوي أجيلك الأسبوع الجاري! القلوب عند بعضها صحيح! وعاملة إيه يا أمه؟ دانا نفسي أتكلم معاكي من هنا لحد يوم القيامة! عندي كلام كثير قوي!)).

ثم تركتها تنسحب من صدري باسمة بعد أن تعبت من طول الوقفة رائحتها العتيقة تملأ خياشيمي وتنتفض في عروقي بعد طول احتجاب، حتى لقدر رأيتني طفلاً أتوق إلى التدلل واللعب، كما استيقظت في دمائي كل الأوجاع التي أتوق أن أسمعها صوتها طمعاً في مزيد من حنانها الدافق اللذيذ، أستنيم لهذه الرائحة وأشعر بالأمان والاطمئنان في عبقها. لهذا جلست بجوارها بعد أن وسع لي أحدهم مكانه. في غمرة الانفعال نسيت أن أسلم على بقية الضيوف الذين لم أكن قد عرفتهم بعد وإن رأيت على وجوههم أختام دمائنا بتلك العلامة المسجلة التي تذوب في ملامح كل أبناء أسرتنا، فلا بد إذن أنهم من أولاد إخوتي..

قالت أمي من خلال البلغم المتراكم دائماً أبداً فوق صدرها يزيق ويعطل انتظام تنفسها عند الكلام:

- ((لم تسلم على بقية العيال!)).

- نسيت نفسى يا أم!

وسلمت عليهم جميعاً وأنا شبه غائب عن الوعى، حتى أولادي سلمت عليهم بالجملة دون أن أدري بالابتسامات العابثة في عيونهم والحركة المازحة في أيديهم وإن كنت قد لمتها على الطاير. وقلت:

- ((تعشيت؟))

قالت:

- ((نعم! زوجك الأصيلة غدتنا وعشتنا وأكرمتنا كرماً زائد عن الحد!))

ثم أضافت موجهة الحديث إلى زوجي:

- ((هات لزوجلات يتعشى!))

كان وجهها مورداً، يشوبه قليل من الشحوب، وبعض شعيرات بيضاء صفيقة تحاول الظهور من تحت التعصيبة المحكمة على

رأسها والطرحة البيضاء الملفوفة حول رقبتها.

تذكرت أننى لم أر هذا الوجه منذ سنوات بعيدة جداً، وأن عدم رؤيته كانت تحرمني الكثير من هذه المشاعر الدافقة الطازجة..

وكنت أشعر أنني أريد أن أحدثها في عشرات الموضوعات والمشاكل التي ضاقت زوجي بحديثي عنها فاعتقلتها في صدري طوال سنوات وسنوات، جعلت أعصر دماغي لأتذكر ولو موضوعاً واحداً من تلك الموضوعات فلم أفلح، فصرت أشد طويلاً لواقع تحت مخدر ثقيل، ومن حين لآخر أقطع شرودي ناظراً إليها في وله حقيقي قائلاً:

- ((والله زمان! أنت نورتني! شرفتني! أحييتني من جديد!))

تفك طرحتها وتعيد حبكتها من جديد حول عنقها، نفس حركتها المعهودة دائماً، الحبيبة دائماً تقول بنبرة عتاب خفي:

- ((لا نأخذ منك غير حلو الكلام!)).

وتلمع في عينيها نفس النظرة المؤنبة العاتبة. أقول درءاً لشكّها في عظيم حبي لها.

-((قد لا تعرفين مقدارك عندي!))

تتسع الابتسامة تحت شفتيها المضمومتين، نفس الابتسامة التي أحببتها فاحتفظت بها طول عمري بين شفتي:

- ((أسمع كلامك أصدقك! أشوف أمورك أستعجب!))

نفس العبارة الأزلية في فمها التي طالما وجهتها لأبي في لحظات الصفاء، والتي باتت توجهها لكل منا..

وكانت زوجتي قد انتهت من إعداد عشائي فوق الترابيزة الصغيرة وعدلتها أمام الكراسي المواجه لقعدة أمي، فانتقلت فصرت مواجهاً لها ففرحت بالقعدة وشرعت أكل ببطء..

وفجأة دهمني دوار عاتى الشدة قابضاً على قلبي، رأيت الأرض ترتفع أمامي وحوالي كأنني في سفينة تتلاعب به الأمواج الثائرة. إنبثق من داخلي شعور طاعن ساخر هازىء مصحوب برياح خراباً، وتملأ الأفق العريض ببقايا أعواد جافة. وبدا كأننى صرت راكباً في

قطار يمرح صاخباً في بلقع بين جذوع أشجار جرداء كالحة.. ذلك أنني قد تذكرت أن أمي هذه الماثلة أمامي بلحمها ودمها قد ماتت منذ ما يزيد على عشرة سنوات، نعم ماتت وشبعت موتاً، ولم أكن حضرت جنازها إذ وصلت بعد دفنها بأيام لأن البرقية التي أرسلها إخوتي وصلتني متأخرة ثلاثة أيام. تذكرت أيضاً أن هذه البرقية ما تزال محفوظة بين أوراقي الخاصة في أحد أدراج مكتبي وأنها كثيراً ما وقعت في يدي أثناء البحث عن أشياء أخرى. كدت أصاب بالشلل من فرط الرعب، وقد منعني الروع من رفع عيني في مواجهة هذه الحقيقة الشاخصة المجسدة المرعبة.

المحتويات

نصف العنوان	2
عنوان الكتاب	3
حقوق التأليف والنشر	4
الفهرس	6
سمبو	7
طَبَقُ الأرض	14
العروس	18
طق الليل	23
شق الثعبان	30
ديك الجن	59
سَارقُ الفَرَحْ	68
أمسيات الفحم الرديء	88
عدل الطاسة	97
موقف الغرق	101
الحَوَلْ	104
المرجع	110
منزلة الشوق!	113
قيام الواجب	116
العرجاوي عطا	129
الصاعقة	141